بسم الله الرحمن الرحيم

# إصلاح

رواية

obeikandl.com

إصلاح: رواية/ عزيزة الأبراشي .- دمشق
دار الفكر ٢٠١٠ .-٣١٢ص ؛ ٢٠سم.
ISBN: 978-9933-10-161-9
١-٨١٣,٠٣ أ ب ر إ ٢- العنوان ٣- الأبراشي

مكتبة الأسد

obeikandl.com

عزيزة الأبراشي

# إصلاح

رواية

obeikandl.com

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

شباب لعصر المعرفة
2010=1431

دار الفكر – دمشق – برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

---

# إصلاح

رواية

عزيزة الأبراشي

الرقم الاصطلاحي: ٢٢٤٧،٠٣٦
الرقم الدولي: ISBN: 978-9933-10-161-9
التصنيف الموضوعي: ٨١٣ (القصة والرواية والحكاية)
٣١٢ ص، ١٢ × ٢٠ سم
الطبعة الرابعة : ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م

© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

obeikandl.com

# الإهداء

إلى الشباب من الجنسين

وإلى الأزواج والزوجات

نقدم تلك القصة الواقعية

لعل فيها عظة وذكرى.

**المؤلفة**

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandi.com

# مقدمة الناشر

هذه هي الطبعة الرابعة من رواية «إصلاح» لعزيزة الأبراشي.. كتبتها في الخمسينيات من القرن الماضي لتصور حياة الطبقة الرافهة في مصر، وبدايات تفتح الوعي لدى الشباب فيها، طبعت دار الفكر في الستينيات طبعتها الثالثة، فلقيت رواجاً وشهرة. واليوم وبعد أن أتى عليها زمن تراخى، وقد أرادت إعادة إصدارها بالأسلوب الطباعي الجديد فإن آراء القائمين على النشر تفاوتت فيها من بين مشجع لما فيها من توجهات سليمة، ومتحفظ لأسباب تتعلق بالجانب الفني؛ إذ ركبت المؤلفة مطيّة المباشرة في طرح الأفكار منذ أول الكتاب حتى آخر سطر فيه. وهذا ما سيدفع ببعض النقاد إلى الكلام عليه بالطعن أو التجريح.

لكنها إلى جانب ذلك أحكمت عقدة الرواية وساقت الأحداث سوقاً فاعلاً متنامياً ومشتعلاً، وصورت الشخصيات ونمّتها في أسلوب التشويق المتصاعد الذي يجرّ القارئ، ويركض به حتى النهاية للوصول إلى

الهدف الواضح الذي ألقت به بين يديه. مما يجعله يتعاطف مع الأحداث ويمضي قدماً في القراءة.

على أي حال فإن الرواية مع ما هي عليه تمثل مرحلة في تاريخ القصة العربية عموماً، وقد وجّه إلى غيرها من القصص ملاحظات شتى، لا يكاد يخلو منها كتاب كاتب مشهور أو مغمور، وكان في ذلك إغناءٌ لحركة النقد استفادت منها الدراسات الأدبية.

وعلى كل حال أيضاً يبقى الكتاب - مع ما قد يقف في وجهه من مثالب يطلع بها المترصدون - توجهاً يصف مجتمعاً من نوع ما، ويخاطب الأسرة إذا لم يشأ نقاد أن يضعوه في دائرة الرواية.

obeikandl.com

في ذلك الحي الهادئ بالقاهرة، وعلى إحدى ضفتي النيل الجميل، حيث يهب نسيمه الوادع، وتتمتع العين بمنظره الساحر، تجد قصراً من أفخم القصور رابضاً في أحضان جزيرة الزمالك الجميلة، شامخاً بعظمة بنيانه، وجمال منظره بين قصورها الشاهقة التي تكتنفها البساتين المزهرة، وتظلل شوارعها الأشجار المورقة ويشملها الهدوء.

والحق أنه كان قصراً عظيم البنيان، بديع التصميم، تحيط به حديقة كبيرة منسقة على أحدث طراز. وتطل شرفات طبقتيه الواسعة على الحديقة من جهة، وعلى النيل من الجهة الأخرى.

وكان يمتاز عما حوله بضوئه وضوضائه لكثرة ما كان يقام فيه من حفلات اللهو والطرب.

ولهذا كان غالباً أشبه بناد أو مسهر. سيارات فخمة تحمل إليه وفود الأصدقاء والصديقات، ليقضوا معظم الليل مع سكانه بين حلقات الرقص والسمر. وخدم كثيرون يحملون إليهم أكواب الخمر ومختلف الشراب، وحجرات عدة مفروشة بأفخر السجاد وأحدث الأثاث. ويمكنك بعد ذلك أن تقدر ما كان عليه أصحابه من عيشة الترف والنعيم، وكان معروفاً بقصر زينات هانم.

obeikandi.com

كانت زينات هانم سيدة «عصرية» في مقتبل العمر، على كثير من الجمال والثقافة، إلا أنها كانت محبة لحياة اللهو والخلاعة، منقادة «لهوى نفسها» ورغباتها.

ويقال إن الذي شجعها على المضي في هذا، هو تهاون زوجها «شاكر باشا» وإهماله في ردعها أو على الأقل سلامة نيته وتسامحه؛ فقد كان من أصل تركي، كبير السن طيب القلب.

والباشا، وإن كان مؤمناً ومحافظاً على فرائض الدين، إلا أنه كان ضعيف الإرادة، قليل النصح، وهو بعد مغلوب على أمره أمام عناد زوجته وسيطرتها، فترك لها حرية التصرف في شؤون بيته وأولاده، فنشأتهم على حب اللهو وملاذ الحياة.

وكان لزينات هانم ابنان وابنتان تشبهانها في صفاتها وأعمالها، غير أن إصلاح صغرى الفتاتين كانت تمتاز بجمال فاتن وقوام بديع.

وتعتبر زينات هانم في طليعة المشتغلات (بالنهضة النسائية) فقد كانت رئيسة لجمعية (السيدات العصريات) وغيرها من الجمعيات التي تهدف إلى سفور المرأة وتحررها.

وفوق ذلك كانت شديدة الحرص على الظهور في

المجتمع، فكانت تكثر من إقامة الحفلات باسم الخير داخل القصر وخارجه.

ولم يكن حرص زينات هانم على الظهور في تلك الحفلات مقصوراً عليها فحسب، بل كان يهمها كذلك أن تكون ابنتاها قبلة أنظار المدعوين إليها ومحط إعجاب الموجودين بها.

من أجل ذلك كانت تصحبهما إلى محال التجميل والتزيين كلما أقامت حفلة من هذه الحفلات.

obeikandl.com

obeikandl.com

# ١

كانت الساعة العاشرة صباحاً عندما استقلت زينات هانم وفتاتاها سوزان وإصلاح سيارتهن الفخمة التي كانت تنتظرهن أمام باب القصر.

وما كادت السيارة تنطلق بهن حتى أخذت تقطع طريقها وسط رياض الزمالك مخترقة جسور النيل إلى أن وقفت بهن أمام محل شهير للسيدات.

وفي تلك اللحظة أقبلت سيدة ترتدي ثوباً أنيقاً وبصحبتها فتاة جذابة الملامح لا تقل عنها أناقة هي ابنتها «يسرية».

ولاحت من زينات هانم التفاتة نحو السيدة. فما إن رأتها تدخل هذا المحل نفسه.. حتى صاحت في سرور:

- عنايات هانم؟ يا لها من مقابلة سارة.

وفاضت العواطف، وتبودلت القبلات. وما لبثت «عنايات هانم» أن بدأت الحديث مع زينات هانم قائلة:

- شكراً لك يا عزيزتي على دعوتك. فقد وصلتني بطاقة الدعوة أمس وإني لسعيدة بأننا سنقضي الليلة في «حفلتك الخيرية».

obeikandi.com

وتعالت الضحكات، وتماسكت الأيدي، ودخلن المحل.. وهناك حول منضدة منضد عليها مجلات تحوي آخر مبتكرات تصفيف الشعر جلسن متجاورات يتشاورن في اختيار أجمل «تصفيفات الشعور» اللاتي تتناسب ومسابقة «جمال الرؤوس» المزمع إقامتها مساء اليوم، في «أوبرج الأهرام».

وفي أثناء ذلك التشاور تسللت إصلاح في هدوء إلى مدير المحل وطلبت منه آنسة للقيام بتزيين رأسها وتجميله، ثم عادت إلى مجلسها معهن. ومضت فترة، وجاء الحلاقون.. فاتخذت كل منهن مقعداً متقارباً أمام حلاق منهم.

وقبل أن يجلسن. أقبلت فتاة رشيقة ترتدي معطفاً أبيض. واتجهت نحو مقعد إصلاح.

فعلت الدهشة وجوه الجميع وبخاصة يسرية.

كانت يسرية، صديقة الفتاتين، وكانت تمت بصلة القرابة إلى زينات هانم وكانت بحكم هذه الصلة تتردد كثيراً على تلك الأسرة.

لكن حدث منذ أكثر من عامين أن التحقت «بكلية الآداب» واشتغلت بعلومها. ومن ذلك الحين انقطعت زيارتها عنهن إلى أن كانت دعوة زينات هانم وكان هذا اللقاء.

ومن الغريب أن يسرية قبل انقطاعها عن زيارتهن كانت تحضر مراراً مع إصلاح إلى هذا الحلاق نفسه لتزيين رأسيهما. ومع ذلك ما كانت تشاهد إصلاح تمتنع عن الجلوس إلى الحلاق أو تطلب آنسة أو تفكر في مثل ذلك.

لهذا ما كادت ترى ما بدا من إصلاح اليوم حتى استولى عليها الدهش، وتملكها العجب وراحت تسائل نفسها:

- ماذا جرى لإصلاح؟ وما سبب هذا التغير الذي طرأ عليها؟ لقد كانت مثالاً للفتاة المتبرجة ولم تكن يوماً من المحافظات على التقاليد أو العادات المحتشمة. فما سبب ذلك التطور؟

وهكذا ظلت تسائل نفسها في صمت وحيرة.

وفي هذه اللحظة بالضبط، كان الجميع في حيرة يسرية ودهشتها.

وكانت زينات هانم بالقرب من إصلاح وقد بدا الغضب على وجهها وفي غفلة من (الآنسة) مالت على ابنتها وقالت:

- لماذا استدعيت الآنسة؟ أنسيت أن الرجال هم أجدر وأمهر من النساء في فن تصفيف الشعر وتزيين الرأس؟

obeikandl.com

فأجابت إصلاح بصوت رزين:

- ما زلت أعلم ذلك يا أماه. ولكني عرفت أخيراً من «أستاذي» أن جلوس المرأة إلى رجل ليزين رأسها حرام ويغضب الله.

واستمرت يسرية صامتة، وانفجرت سوزان ساخرة. واتجهت إلى أختها وقالت:

- أستاذك؟.. حقاً لقد غير الشيخ كثيراً من طباعك العصرية وآرائك الحديثة، ولشد ما أخشى عليك الاتصاف بالرجعية إذا ما تماديت في ذلك.

فنظرت إليها إصلاح، ولم تزد على أن قالت:

- إذا كانت الرجعية في نظرك معناها الرجوع إلى أوامر الله ورسوله فما أسعدني بتلك الرجعية.

كان هذا الحوار بينهن على مسمع من عنايات هانم التي جعلت تنصت إلى إصلاح في صمت ما لبث أن استحال إلى عجب أخرجها عن صمتها فراحت تتساءل:

- من يكون هذا الشيخ؟!

وقبل أن تجيب واحدة منهن.. أسرعت إصلاح قائلة:

- إنه عالم جليل، كبير السن، جاء به والدي بعد أن أتممت تعليمي في مدرسة «المير دي دييه» ليرشدني وإخوتي إلى...

فقاطعتها عنايات هانم في استنكار:

- عالم؟... ما لك يا بنتي وكلام العلماء والشيوخ وآراءهم؛ إن للشيوخ طريقة في الحياة لا توافق طبيعة نشأتك.. التفتي حولك ثم انظري.. هل تجدين أحداً في هذا العصر يسمع لقولهم أو يعمل بوعظهم!

- لا. لا يا فتاتي. لا. إن من يستمع إليهم يعيش في وحشة ويحرم بهجة الدنيا. ومن حقك التمتع بها وأنت في ريعان الشباب ورغد العيش.

فأحست الفتاة بخطأ هذا الرأي وتمتمت في نفسها:

- يا الله.. ما أشد جهل الناس بمصلحتهم؛ إذا مرضت أجسامهم بادروا إلى علاجها عند الأطباء حفظاً لحياتهم الفانية، أما من يشفون أرواحهم وهي مصدر حياتهم الدائمة فهم عنهم غافلون وبهم مستهزئون.

واتجهت إلى عنايات هانم وقالت في رقة:

- عفواً يا طانت.. ما أحوجنا إلى وعظ علماء الدين في هذا العصر. أليس العلماء هم ورثة الأنبياء وللأرواح أطباء؟ فلم لا نستمع إلى العاملين منهم المخلصين؟ ومن غيرهم يشفي قلوبنا من الآثام؟ ويرشدنا إلى معرفة معاني القرآن وفرائض الإسلام؟

ثم ألست مكلفة أن أتبع أوامر الدين وأنا في سن الشباب؟ ثم أليس نعيم العيش يتطلب شكر الله وطاعته؟

واستدارت واعتدلت جهة الآنسة..

وارتسمت على قسمات زينات هانم دلائل الغضب مرة أخرى وقالت:

- ما كنت أنتظر منك هذا يا إصلاح بعد اعتراض عنايات هانم، وما كان ينبغي لك أن تستمري في نزعاتك الشاذة، بعد هذا النصح والإرشاد.

وكانت عنايات هانم بجانبها فوجهت إليها الحديث قائلة:

- لشد ما يؤلمني أن أرى جنون هذا الشيخ قد انطبع في عقل ابني حسين ودفع بإصلاح إلى الانضمام إلى «جماعة المسلمات المجاهدات».

وأدركت سوزان نبرات الأسى في صوت والدتها. فتابعت في تفاخر:

- أما أنا وأخي سامي.. فإننا نستمع إلى آرائه العتيقة ولا نعمل بها.

وصمتت زينات هانم كمن يعيد ذكرى بعيدة، وعادت إلى الحديث قائلة لعنايات هانم:

obeikandl.com

- تصوري.. لقد كان والدهم يريد أن يغير من عاداتي الحديثة مثل هذا الشيخ، وكان لا يريد لي الخروج كثيراً، وإذا خرجت أخرج متحجبة.

فأغرقت «عنايات هانم» في الضحك وقالت:

- متحجبة.. يالسخرية الناس. إن الباشا لمخطئ في ذلك. أيعقل أن تكوني رئيسة لجمعية (السيدات العصريات) ولا تكوني سافرة؟

فوقع هذا القول في زينات هانم وبالرغم من وجود الحلاقين بينهما واستماعهم لحديثهن فقد راحت تتابع:

- من أجل ذلك كان اختلافنا أنا وزوجي. ولما استفحل الخلاف بيننا ولم أوافقه في آرائه الرجعية تركني وشأني.

فقالت عنايات هانم في تملق ممزوج بالفضول:

- الحق معك. وماذا يأخذ الإنسان من الدنيا إلا التنعم بما فيها والتمتع بلذاتها. لكن هكذا الرجال، لولا صلابة آراء نسائهم وشجاعتهن أمامهم ومخالفتهن لأوامرهم لحرموهن نعيم الحياة.. وما رأي الباشا في حفلة الليلة؟ وهل وافق على ذهاب أولاده إليها؟

- إنه لم يعلم بذلك فقد سافر إلى ضيعته الكبيرة، إذ اعتاد التنقل بين ضياعه بعد أن أحيل على المعاش.

obeikandl.com

لهذا فهو لا يرى معظم حفلاتنا، ولا يعلم بما نعمله في غيابه، ولا يسأل عما وقع عند إيابه. وهكذا نعيش في دنيا غير دنياه وحياة غير حياته.

وانتهى الحلاقون، ودعت زينات هانم يسرية ووالدتها لتوصيلهما إلى منزلهما فركب الجميع السيارة.

obeikandl.com

## ٢

وفي السيارة جلست يسرية بين إصلاح وسوزان في المقعد الخلفي صامتة تسبح بخواطرها، وكانت متجهة إلى الطريق بوجهها ولاهية عما حولها. ولحظت ذلك سوزان فلم تشأ أن تتركها على تلك الحال. وقالت وهي تربت بيدها على كتفها:

- يسرية ترى لماذا أنت صامتة؟ وفيم كنت تفكرين؟

فتنبهت يسرية والتفتت إليها وأجابت:

- لم أكن أفكر في شيء بعيد يا سوزي ولكني كنت أتأمل في تقلبات هذه الحياة وعدم استقرارها على حال.

ففهمت سوزان ما ترمي إليه ولكنها تجاهلته وقالت متسائلة:

- وكيف؟

- بصراحة يا سوزان إنني لم أزل مشغولة بالحالة التي رأيت عليها إصلاح اليوم، فمن يصدق أن إصلاح التي نشأت على حب اللهو والسخرية من أهل الدين تصبح هكذا؟

obeikandl.com

ترى ما الذي بدّلها وغير من آرائها؟

فأجابت سوزان في شيء من السخرية:

- صدقيني يا يسرية أنا أيضاً في حيرة من أمرها، ولا أعرف لذلك سبباً، وأظن أنه قد اعتراها نوع من الجنون.

وكانت يسرية توقن بأن انتقال الإنسان من الانغماس في الشهوات إلى العمل بأوامر اللّه إن دل على شيء فإنما يدل على تمام العقل وسيطرته لا على الجنون كما تظن سوزان.

وكانت الوالدتان تجلسان بجوار السائق لاهيتين عن حديث الفتاتين فلم تستطع يسرية أن تسأل زينات هانم عن السبب في تحول إصلاح وعندئذٍ رأت أن أقرب طريق لمعرفة السبب في هذا التحول هو من إصلاح نفسها.

* * *

لقد كانت إصلاح إلى ما قبل العام الماضي على الحالة التي كانت تعرفها عنها يسرية من قبل. تخبط في غياهب الضلال بين الهوى واللذات مترسمة خطا والدتها وفي معزل عن الطريق الذي يسلكه والدها. لا يهمها سوى اللهو والطرب، ولا تعرف عن أمور دينها وأوامره شيئاً.

لكن الدوام على الحال ليس من صفات الإنسان الذي ميزه الله بالعقل ولا من طبيعة البشر المفطورين على الأهواء والشهوات.

فالإنسان بحكم سلطان «العقل» وإغواء «الهوى» متقلب.. وبقدر تغلب أحدهما على الآخر تتغير أعماله وتتبدل أحواله.

لذلك أحياناً ترى إنساناً طائعاً لربه مؤمناً ثم إذا بك تراه وقد تغلب (هواه) على (عقله) قد انقلب شيطاناً مريداً عاصياً لربه.

وأحياناً تسمع عن إنسان كان منغمساً في شهواته ولذاته ثم ما تلبث أن تسمع أنه قد استقام واهتدى بسبب تغلب عقله على هواه.

كذلك كان شأن إصلاح، فقد ظلت على الحالة التي عرفتها عنها يسرية قبل انقطاعها عن زيارتهن إلى أن تغلب عقلها على هواها ثم كان ما رأيناه منها عند الحلاق.

* * *

لهذا ما كادت «يسرية» ترى ما رأت من «إصلاح» اليوم حتى تملكتها رغبة شديدة في سؤال إصلاح عن سبب تحولها، واتجهت إليها قائلة:

- إصلاح! لا شك أن هذا التحول جدير بالإعجاب.. لكن الذي أعرفه عن كثير ممن تحولوا مثلك هو أن تحولهم لم يكن إلا عن أسباب ودوافع، كأن تعترض المرء مثلاً حادثة تؤثر فيه وتكون سبباً في تفتح قلبه لقبول الحقائق الدينية والأوامر الربانية.. فهل لنا أن نعرف منك السبب الأول في هذا التحول.

وكانت إصلاح طول ذلك صامتة وقد ساءها وصف أختها لها بالجنون، لكنها آثرت السكوت.. فلما سمعت قول «يسرية» تألق وجهها ولاحت عليه بوادر الاطمئنان والثقة بالنفس وأجابت قائلة:

- الحق ما قلت يا يسرية؛ إذ لا بد لتحول الإنسان وتفتح قلبه للعمل بالأوامر الدينية من أسباب أو دوافع تؤثر في نفسه وتدفعه إلى السير في طريق الخير.. وإن لي في ذلك التحول «قصة».

وأطبقت عينيها الجميلتين شأن من يستعيد ذكرى بعيدة، ثم فتحتهما وبدأت قصة تحولها قائلة:

- لقد كنت إلى ما قبل العام الماضي إحدى ضحايا تغلب الهوى على العقل؛ أهيم على وجهي في ملاذ الحياة ومفاسدها. وكنت على الحال التي تعرفينها عني. واستمرت هذه حالي إلى أن استيقظ (عقلي) فأرشد (قلبي) وملك زمام نفسي وتغلب على (هواي).

فأغرقت سوزان في الضحك، غير أن إصلاح لم تعبأ بضحكها وراحت تتابع:

- كان ذلك في العام الماضي بعد رجوعنا أنا ووالدتي وإخوتي من الاصطياف في الأقطار الأوربية التي تنقلنا في معظم بلدانها وملاهيها.

دخلت ليلة على والدي في حجرته لأقص عليه ما شاهدته في رحلتنا الجميلة وما رأيته في تلك البلدان البعيدة، فوجدته جالساً في مصلاه، وفي يده مسبحته، وأمامه كتاب الله الكريم فحييته بتحية المساء، فبادلني برفع يده ولم يقطع قراءته، فلم أشأ أن أقطع عليه عبادته، وخرجت من عنده متأثرة بمظهره الجليل.

ومع أنني لم أكن قبل هذا الوقت أقدر أعمال والدي الدينية ولا ألتفت إليها، ولا أعرف شيئاً عن شرائع الدين وكنت أسخر ممن يعمل بها كما تعلمين، إلا أنني في تلك اللحظة أحسست بأن عقلي قد تنبه وشعرت به يحفزني إلى النظر في أعمال ما كنت أفكر فيها من قبل، وفي هذه الليلة بدأ يدعوني لألتفت إلى لون آخر من ألوان الحياة غير الذي تعودت أن أراه.

دعاني أولاً لأتأمل في أعمال والدي المخالفة لما أعمله طول حياتي.. ثم دعاني لأستمع إلى ما يلقيه

openelkandil.com

بعض المصلحين في المذياع من الحكم الدينية والعظات القرآنية فتنبهت إلى ذلك. وتاقت نفسي إلى معرفة هذا النوع الجديد. ولأول مرة استمعت «لصوت العقل» ورغبت في أن أسلك الطريق الذي يسلكه والدي برغبة صادقة وعزم أكيد. ثم أمسيت معظم ليلتي أفكر في تلبية هذا النداء، بعد ذلك أصبحت أنظر إلى أعمال والدي، وأستمع إلى العظات كما دعاني «عقلي».. فما لبثت كثيراً حتى تفتحت عين قلبي للإيمان، وانبهرت بنوره، ورأيت جمال الحق وقبح الباطل. عند ذلك عزمت على أن أقتبس من نور هذا الكنز ما أستطيع الحصول عليه لتتحلى به نفسي ويستنير منه قلبي.

وكان الحديث عن الحفلة قد امتد بين الوالدتين وشغلهما عما حولهما فلم يسمعا من قصة إصلاح شيئاً بينما اقتنعت يسرية واستراح بالها، أما سوزان فقد بدت السخرية من نظراتها وضحكاتها، وأدركت ذلك إصلاح فقالت لأختها الساخرة:

- لا تسخري مني يا سوزي فأنا أعلم أن كلامي لا يروقك وقد كنت مثلك أسعى للاستمتاع بزخرف هذه الحياة الفانية حتى تحققت من وجود حياة ثانية خير منها وأبقى فآثرتها ورغبت في متاعها.

عند ذلك شرح الله صدري لتلقي أوامر دينه

وتكشفت لي كنوزه ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾.

وكانت يسرية تنظر إليها في صمت واهتمام لمعرفة باقي أخبارها، فما انتهت إصلاح حتى صاحت في إكبار:

- لله أنت يا إصلاح! وهل حصلت على كثير من هذه الكنوز؟

فصمتت إصلاح لحظة ثم قالت في شبه أسف:

- في الواقع لم أحصل على شيء كثير إلى الآن غير أني شعرت ببغض شديد واحتقار زائد لتلك الحياة المظلمة التي كنت أحياها، يقابله حب عميق وشغف للسير في طريق النور الذي اهتديت إليه بعد أن ندمت على ما كنت أفعل من قبل. ولهذا طلبت من والدي إحضار «أستاذ» كي أكتسب منه كثيراً من المعلومات الدينية، وشرائع الإسلام التي كنت أجهلها، إذ كنت كسابح مبتدئ بين الأمواج، يغوص تارة ويطفو أخرى، ولا بد له من مدرب يأخذ بيده.

ولم أزل حتى الآن في احتياج إلى استذكار واستطلاع، فالقلوب تصدأ مثل النحاس، وجلاؤها ذكر الله ونور العلم، ولم أزل حتى الآن أجاهد في

معرفة ما يرضي ربي وما يغضبه، وأرجو الله أن يظل عقلي دائماً مسيطراً على هواي. حتى لا أعود إلى ما كنت عليه في الماضي.

ووقفت السيارة أمام منزل عنايات هانم فنزلت مع ابنتها وسارت السيارة إلى القصر.

opeikandi.com

## ٣

دخلت زينات هانم وفتاتاها القصر في ميعاد الغداء وذهبن تواً إلى حجرة الطعام.

وعلى مائدة الغداء اجتمعت الأم وأولادها كالمعتاد. إلا أن «سامي» الابن الأكبر كان قد تأخر عن الحضور.

وظلت والدته وإخوته على المائدة ينتظرونه في قلق وتساؤل.

وقبل أن ينتهوا من الأكل أقبل سامي والبشر يلوح على وجهه والسرور يشع من عينيه.

فَعَلَتِ الدهشة وجوه إخوته وراحوا يسألونه عن سبب فرحه البادي عليه.

وكأنما أراد أن يزيد في تشوقهم فجلس بجوار أخيه حسين وبدأ يأكل في صمت.

وعندئذ راح كل منهم يتنبأ بما كان يغمره من الفرح والسرور. وطفق كل منهم يقترح سبباً، وسامي يضحك ولا يوافق عليه.

وأخيراً وقد ظهر عجزهم قالت الوالدة وكانت أعلم بطبع ولدها:

- إذا صح ظني يكون سامي قد كسب مبلغاً من الميسر.

فترك سامي الأكل وصفق طرباً وقال في لهجة مضحكة، والطعام يملأ فمه:

- مرحى! مرحى! فقد لعبت اليوم الميسر مع شاب يدعى «محسن المستكاوي» وكسبت منه مبلغ مئتين من الجنيهات دون أن أخسر شيئاً. وهذه أول مرة أكسبها في حياتي، فما أسعد حظي اليوم!

وكان لزينات هانم قريب متوفى هو والد يسرية تعلم أن له ابناً من سيدة قبل (عنايات هانم) له اسم ولقب هذا الشاب فلازمت الصمت وانفجر الإخوة ضاحكين.. وقالت سوزان مداعبة:

- وأظنه حنق عليك بعد ذلك يا سامي؟

- كلا لم يحنق ولم يغضب بل هنأني على حظي السعيد.

فقالت سوزان في إكبار:

- يا له من شاب سخي!

- وغني أيضاً لا يهمه المال، وقد ينفق على أصدقائه أكثر من عشرة جنيهات على مائدة شراب في جلسة واحدة. هذا ما عرفته عنه من صديقي الذي عرفني به اليوم.

obeikandi.com

وأخذ يوازن بينه وبين رجل آخر فقال:

- إن هذا الشاب على عكس رجل كان يلعب الميسر مع آخر بجوارنا ويظهر أنه كان فقيراً أو خسر كثيراً لأننا رأيناه رفع الكرسي على زميله هكذا.

وهب واقفاً، وأمسك بمقعد المائدة الخالي بجانبه ورفعه بحركة مضحكة وهو يقهقه من فرط سروره، وعاد مسرعاً يواصل طعامه.

فضحك إخوته، حتى خادم المائدة الذي كان يوزع الحلوى وقتذاك لم يتمالك نفسه من الضحك.

تم هذا التمثيل وتلك الضحكات في الوقت الذي كانت فيه والدتهم شاردة مشغولة بأمر محسن المستكاوي، تفكر في الطريقة التي يتسنى لها من ورائها أن تعرف شيئاً عن هذا الشاب بنفسها وفي خفية عن أولادها.

ولاحظ هذا الشرود أولادها دون أن يعرفوا السبب.

فقالت سوزي في مكر:

- يبدو أن والدتي لم تكن معنا بفكرها وإلا لضحكت من سامي وهو يمثل الرجل الذي خسر نقوده في الميسر.

وتنبهت زينات هانم وأسرعت قائلة في كبت:

obeikandi.com

- حسبكم أن تضحكوا أنتم من هذا الرجل، أما أنا فلا أفكر إلا في الشاب الغني السخي.

واتجهت إلى سامي وقالت:

- سامي. أصغ إلي.

- ماذا يا مامي؟

فقالت وقد أخفت الدافع الحقيقي:

- سأقيم في الأسبوع المقبل حفلة خيرية بنادي جماعة (السيدات العصريات) لإتمام المشروع الذي ستقام من أجله حفلة الليلة الخيرية ويهمني أن يحضر هذه الحفلة ذلك الشاب الغني، الذي لا يعرف للمال قيمة، فعلى أمثاله يقوم نجاح مشروعنا.

فأجاب سامي مسروراً:

- لك ذلك يا أماه.

وتم الاتفاق، وفرح الأبناء ووافقوا في سرور.

غير أن إصلاح لم يظهر عليها شيء من الاهتمام أو الموافقة على ذلك الحفل، بدليل ما بدا على محياها الصامت الجليل.

وكانت قد عينت عضواً بجماعة (المسلمات المجاهدات) منذ شهر فراحت تطلب من والدتها في رجاء أن تأذن لها بعدم الذهاب إلى حفلة اليوم

obeikandl.com

والحفلة القادمة معتذرة بكثرة أعمالها في هذه الجمعية.

وتذكرت زينات هانم ما كانت قد رأته وسمعته منها عند الحلاق فأثقل عليها القول وعاودها الغضب وهبت في نفسها ثورة حقد صامتة.. لا شك أن هذه الجمعية من أهم بواعث تغير إصلاح وتحولها، فلماذا لا أحول بينها وبين الذهاب إليها؟

وفي لهجة آمرة حتمت عليها الذهاب معهم في كل حفل تقيمه.

وخيم الصمت وكان قد انتهى الغداء فقامت تستعد للخروج إلى الحفلة.

* * *

انقضت فترة بعد خروج زينات هانم دخل بعدها حسين وإصلاح كل منهما إلى حجرته ليستريح ويستجم بالنوم. أما سوزان فكانت حريصة على زينة رأسها فآثرت الخروج إلى شرفة القصر المطلة على النيل وتبعها سامي وجلسا يقطعان الوقت بلعبة (الكونكان) المحببة لديهما، واستمر اللعب بينهما حتى غابت الشمس واصطبغت السماء بحمرة الشفق، فتركا اللعب وغادرا الشرفة، وأسرعت سوزان إلى حجرة الزينة وما لبثت أن استعدت للذهاب إلى الحفلة.

obeikandl.com

واستيقظت إصلاح، وعندما رأت أن الظلام قد غشى المكان أسرعت إلى الحمام الملاصق لحجرتها لتتوضأ ولتسابق بصلاتها دخول وقت العشاء.

ثم أخذت تستعد للحفلة واتجهت إلى صوان ملابس السهرة وعندما فتحته وقفت حائرة لا تدري ماذا ترتدي؛ فهذا ثوب مكشوف الصدر، وهذا أنيق ولكنه عاري الظهر، وذاك لا أكمام له.

وأخيراً اختارت من بينها ثوباً يعتبر أكثرها احتشاماً وأقلها خلاعة.

ثم وضعت فوق كتفيها ملحفة من الحرير الموشى لتخفي ظهرها العاري وأخفت ذراعيها ويديها بقفازين طويلين يصلان إلى ما بعد المرفقين.

ووقفت فترة تنظر في المرآة تسائل نفسها:

- أهذا الاحتشام يرضي ربي؟ وهذا الرأس الحاسر أيباح ظهوره؟ وتلك الحفلة هل يجوز الذهاب إليها؟ وذاك (الأوبرج) ما حكم الشرع في ارتياده؟

وهكذا ظل يتتابع في ذهنها سؤال بعد سؤال، شأن من تودع حياة الضلال لتستقبل حياة النور والهداية.

obeikandl.com

## ٤

إذا كنت في الجيزة وسرت في الشارع الموصل إلى الأهرام فإنك ترى بعد بضع محطات من الترام في الجهة اليمنى بناء مكوناً من طابقين. داخل حديقة واسعة يطلق عليه (أوبرج الأهرام).

وهذا هو المسهر الذي اختارته زينات هانم لإقامة حفلتها الخيرية.

كان الأوبرج في تلك الليلة آية في الزينة والإبداع فقد ازدان مدخله الخارجي والداخلي بأنواع المصابيح الكهربائية المختلفة الألوان والأحجام. وأضيئت المصابيح المعلقة على أشجاره فخلعت على فنائه زينة وجمالاً، وافتتنت زينات هانم فأدخلت زيادة على ما يعمل في حفلاتها نوعاً من التجديد، فكانت مسابقة «جمال الرؤوس» بجانب تذاكر نصيب تسحب على سيارة تبرع بها أحد المشجعين.

وكانت الموسيقا تصدح بأنغامها الشجية. والحسان بملابس السهرة غاديات رائحات في أجمل زينة وأتم أناقة.

وكان الشيوخ والشبان بحلل السهرة الأنيقة ينتقلون مع زوجاتهم وصديقاتهم من موائد الميسر والشراب

إلى حفلات الرقص. وكان الكل ينعمون بالأغاني المختلفة من المغنين والمغنيات، وجاء خدم الموائد بالعشاء الفاخر المختلف الألوان.

هذه هي حفلة «الليلة الخيرية».

وهذا هو الأوبرج الذي كانت إصلاح تحبه ويزيد قلبها سروراً كلما وجدت به، ولكن... ما بالها الليلة صامتة تشعر باحتقار لكل ما فيه، واشمئزاز مما تراه أمامها دون أن يغادرها الملل والضيق.

انظر... إنها تجلس الآن غافلة عما حولها أمام إحدى الموائد النائية مع فتاة جميلة هادئة القسمات ناضرة الشباب هي «إكرام».

ومن غريب أمرها هذه الليلة أنها أهملت كل من كان يوجه إليها نظرات الإعجاب. ولم تشترك في شيء مما كان يعمل هناك حتى إنها لم تبتع تذكرة من التذاكر التي بيعت على السيارة ولم تدخل في مسابقة تصفيف الشعر، وظلت منفردة بصديقتها إكرام دون أن تبرح مكانها.

كانت إكرام فتاة جمة الأدب رائعة الحسن، تمتاز بثقافة وخلق كريم صادفتها إصلاح في الحفلة، وأعجبت بأخلاقها وما لبثت أن جلست معها وأخذتا تتحادثان. ولم يطل بهما الحديث حتى عرفت إصلاح أن صديقتها من أسرة كريمة ومن والدين صالحين

أخذت عنهما الدين. ولما توفيا تولى (عمها) رعايتها ورعاية أموالها. وعاشت في كنفه وأنها تأتي إلى هذه الحفلات مع أسرته مرغمة.

وجدت إصلاح في إكرام تشابهاً في الميول واتفاقاً في الآراء، فلم تفترقا لحظة ولم تغادرا المائدة.

وانتصف الليل وأعلنت نتيجة (مسابقة الشعر) فكانت الفائزة بالجائزة الأولى سوزان.

وكانت إصلاح لم تزل وصديقتها في جلستهما الهادئة حينما أقبلت سوزان على مائدتهما تختال بقامتها الرشيقة وتخطر في سرور بثوب السهرة العاري، وقد حلت صدرها بشارة الجائزة، فتلقت منهما التهاني ودعيت إلى الجلوس فلم تمانع.. وفي احتراس وتمهل أمسكت بذيل ثوبها الطويل وجلست على المقعد الخالي حول مائدتهما ووضعت مرفقها حول المائدة وذقنها بين راحتيها الصغيرتين وأخذت تنظر إلى ما حولها.

وكانت رؤيتها لأختها على هذه الصورة من العزلة قد ضايقتها فأمسكت عن الكلام قليلاً ثم بدأت الحديث قائلة لإصلاح:

- لقد تركت يسرية الآن في ساحة الرقص وأتيت إليك لأصطحبك معي إلى هناك ولكن.. ما لي أراك الليلة معتزلة الناس على غير العادة، طويلة المكث في مكان واحد؟

ولم تنتظر ردها بل راحت تتابع مشيرة بيدها في إغراء:

- انظري.. هل ترين هذه المائدة؟ تلك فتاة جالسة لا شك أن الذي بجوارها هو خطيب أو حبيب، لأنهما يتقارعان الكؤوس، ويتبادلان نظرات الوجد والغرام. وهذا جمع من الرجال والنساء منهمكين في لعب الميسر تعبر حركاتهم عما يشعرون به من سرور وأمل في الكسب، وهؤلاء يرمون سهامهم في فرح وسعادة والكل في نشوة كأنهم يحلمون وهم يقظون. فلم لا تمتعين نفسك كما يتمتعون؟ ولماذا تحرمينها من هذا النعيم؟

ولم تكن إصلاح في مثل إعجاب أختها، ولكنها كانت في حال تعبر عن أسف واستنكار فلم تجب عن سؤالها.

ورأت سوزان ذلك فزاد ضيقها وتمادت في إغرائها متابعة:

- ما أبدعه من حفل وما أعظمها من ليلة! أصغي إليّ يا إصلاح وعودي إلى ما كنت عليه.. تنعمي بما في الحفلة وتشعري بما أشعر..

ونظرت إلى إكرام كمن تستمد منها العون والمؤازرة.

ولم تتكلم إكرام.

واعتدلت إصلاح في جلستها ونظرت إلى أختها من خلال أهدابها الطويلة.

وفي هدوء وعدم اكتراث أجابت على ما سمعته منها بقولها:

- لا يا أختاه لن أعود ولن أتحول مهما سمعت ورأيت.

فزادت عينا سوزان اتساعاً وقالت:

- وا أسفاه.. ما الذي جرى لك الليلة؟

- لا شيء إلا أنني لم أعد أشعر بمثل ما تشعرين.

- لماذا؟ أليس هذا هو الأوبرج الذي كنت تحبين كل شيء فيه.

- لو حكمت عقلك وتجردت من أهوائك لاشمأزت نفسك واستنكرت هذا الحاصل أمامك.

واقتربت منها بوجهها وتابعت:

- انظري أنت معي إلى هذه «البارات».

وأخذت تشير بأصبعها:

- أليست هذه المشارب تباع فيها العقول ويشترى الجنون بالأموال؟ ثم انظري إلى هذا المرقص ألم يكن مكاناً يباح فيه نوع من البغاء المكشوف؟ حيث

openkandil.com

تتخاصر الرجال والنساء وتلتف الأذرع وتلتصق الأجسام؟ وهؤلاء ماذا يعملون؟! أليسوا يقومون بضروب المنكر علناً وبمختلف الآثام في جرأة ومباهاة؟.. فما قولك بعد ذلك في هذه المنكرات؟.

فأجابت سوزان مخالفة:

- أنا لا أرى في ذلك شيئاً من المنكر ما دام الغرض منه عمل الخير وجمع المال اللازم لتأسيس ملجأ لإيواء الفقراء، إذ لا سبيل إلى إخراج هذا المال من جيوب الأغنياء والبخلاء إلا بما يشبع رغباتهم ويمتع نفوسهم.

وتكفي نظرة واحدة إلى الأموال التي تتدفق من أيدي المتبرعين ثمناً لزهرة وابتسامة من فتاة جميلة أو غادة حسناء للحكم على نجاح «المشروع الخيري» الذي سيعمل منها.

فوجمت إصلاح وقالت:

- هكذا حكمك؟

- إنه عين الصواب.

- وهل تسمين ما يعمل من هذا مشروعاً خيرياً؟

- دون شك. فما عمل كل ذلك إلا من أجل الإحسان إلى الفقراء.

- أوَتحسبين أن اللّه سيقبل هذا الإحسان الذي تجمع أمواله من هذه المحرمات؟

- إنه بحث غريب.

- لكنه حق (فاللّه طيب ولا يقبل إلا الطيب) أما سمعت من أستاذنا الحديث الشريف:

«كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به».

وطرق سمع سوزان اسم الأستاذ فمطت شفتيها وقالت في تأفف:

- الأستاذ دائماً! ألا لعنة اللّه على هذا الشيخ الفاني ويوم حضر عندنا وعلمك مثل هذه الفلسفة الجديدة وهذا الكلام الغريب.

وأشاحت بوجهها عنها فوقع بصرها على فتاة كانت تثبت زهرة في سترة شاب تبرع بثمنها، فصمتت ولم تتكلم.

وهنا لاحت من إكرام التفاتة فرأت الفتاة نفسها التي بيدها الزهرة فصاحت مستنكرة:

- ألا سحقاً لمال يجمع من مثل هذا المنكر. وبعداً لخير تكون وسيلته غضب اللّه.

وفي تلك اللحظة أقبل شوقي خطيب سوزان وكان يرتدي حلة سهرة ذات الذيل الطويل. ووقف بجانب خطيبته يحادثها في همس.

obeikandi.com

كان شوقي من الشباب الذين يحبون في المرأة المال والجاه، خطب سوزان عقب تخرجه في الجامعة لما سيؤول إليها من ثراء عن والدها الثري بعد حب متبادل ترجح كفته عند سوزان. ألذ الأوقات إليه وقت يقضيه في حفلة من حفلات زينات هانم متنقلاً بين الميسر والشراب. لذلك كان يرى في كل حفل مع سوزان.

ولم يطل وقوفه إذ صدحت الموسيقا برقصة جديدة فاستدار وأخذ خطيبته من يدها في رشاقة وخفة واتجه بها نحو المرقص.

واستمر الحفل حتى الفجر.

وعندما أوت إصلاح إلى فراشها أخذت تستعرض قبل نومها ما عملته في هذه الحفلة من خير وشر.. وأخيراً حمدت اللّٰه على أن حفظها من عمل المنكرات، فلم تلعب الميسر ولم تذق خمراً كما كانت تفعل في الحفلات السابقة ولم تلب دعوة الداعين إلى الرقص، ونامت ملء جفونها مستريحة الضمير بعد أن أدت صلاة الفجر.

* * *

وفي الصباح عاد شاكر باشا من ضيعته وكان مسافراً إليها منذ أسبوعين فأسرعت إصلاح بالدخول عليه في حجرته. وكان قد خلع ملابس السفر وارتدى

ملابس النوم. واستلقى على سريره بجسمه الذي بدا عليه الهزال، ورأسه الذي غلبه الشيب ليستريح، فأقبلت عليه تقبل يده في شوق وحنان وجلست بجانبه على حافة السرير.

وما هي إلا لحظات حتى راح يحادثها باهتمام في شأن جمعيتها ويسألها عن أغراضها ومبادئها وكان لا يعبأ بالجمعيات التي ترأسها زوجته ولا يرضى عن اندماج ابنته سوزان فيها... فلما سمع من إصلاح ما سره عن هذه الجمعية أعرب لها عن رضاه وشجعها على المضي فيها والسير على مبادئها.

وكان قد حان ميعاد الإفطار فاستأذنت من والدها وانصرفت.

وعلى مائدة الإفطار طاب لإصلاح أن تذهب إلى جمعيتها، فقد مضت عدة أيام دون أن تذهب إليها.

ولكنها ما كادت تبدي لوالدتها تلك الرغبة حتى بدا لها منها الرفض وعدم الموافقة فصمتت على مضض.

وبعد الإفطار دخلت إصلاح شرفة حجرتها المطلة على الحديقة وارتكزت بيديها على حافتها وراحت تسبح في غمار خواطرها مع نفسها الصابرة على محاربة والدتها لأعمالها الخيرية.. وظلت تنساب بأفكارها في وادي الآلام مستلهمة نصر الله، وكانت لاهية عن كل

ما حولها من جمال الطبيعة وشقشقة الطيور في ذلك الصباح المشرق، وبينما هي كذلك إذ بأحد الخدم يدخل عليها بأسعد نبأ كانت ترجوه ولا تتوقعه: (إشارة تلفونية من جمعيتها تستدعيها بسرعة وتطلب حضورها لأمر هام).

وعلى إثر هذا النبأ استقلت إصلاح السيارة في سرور على كره من والدتها التي لم تر بداً من الخضوع لهذا الطلب.

وصلت إصلاح إلى جمعيتها قبل الظهر مستفهمة عن سبب استدعائها. فوجدت السيدات مجتمعات يتشاورن فيما بينهن في عمل خيري نافع يحقق بعض أغراض الجمعية ومبادئها.

فجلست معهن، وانتظم عقدهن.

وفي غمار المقترحات ومختلف الآراء انفردت (فتاتنا الرشيدة) برأي أعجبت به الزميلات ووافقن عليه.

كان هذا الرأي مشروع تأسيس مدينة يطلق عليها «مدينة السعادة» لإيواء بنات الشوارع الساقطات والأولاد المشردين والأيتام؛ على أن تجمع الأموال الطائلة التي يحتاج إليها هذا المشروع من السيدات العضوات جميعاً دون أن تجمع تبرعات خارجة عن دائرتهن..

ولما كانت سيدات الجمعية كلهن ممن حباهن الله

obeikandi.com

بالثراء والمال الوفير وكن يردن أن يدخرنه عند اللّه لينعمن به في الدار الباقية، فقد تمت موافقتهن بالإجماع في هذه الجلسة، على هذا الاقتراح.

* * *

قالت إصلاح لوالدها تلك الليلة في حديث بينهما حول مشروع هذه المدينة رداً على سؤاله:

- نعم يا والدي فقد أذعنت جميع السيدات لرأيي وأخذن باقتراحي، واتفقت كلمتنا على تأسيس هذه المدينة من مالنا الخاص. وقد رأيت أن أساهم بقسط وافر في هذا المشروع الخيري. فإن رغب والدي في الخير ساهم في سبيل اللّه وتبرع بضيعته القريبة من القاهرة كي نقيم عليها المدينة ونبدأ في تنفيذ المشروع.

قال الباشا مدفوعاً بما انطوت عليه نفسه من حب الخير والإحسان:

- نعم الرأي ما أشرت به يا بنية، بارك اللّه فيك. وسأشرع في عمل ما يلزم لتحويل تلك الضيعة إلى الجمعية باسمك.

ولم تمض بضعة أيام حتى أخطرت الجمعية بهذه المنحة الكبرى وبها رشحت سيدات الجمعية زميلتهن إصلاح للرئاسة عليهن.

obeikandi.com

## ٥

ومرت الأيام ومضى أسبوع، فأقامت زينات هانم حفلتها الخيرية التي كانت قد اتفقت مع سامي على إقامتها.

وكانت قد أرسلت دعوة إلى محسن فلباها وذهب إلى النادي الذي أقيمت فيه تلك الحفلة.

ومحسن شاب لم يتجاوز الثامنة والعشرين، مشبوب العاطفة وسيم الطلعة، أنيق الملبس مموج الشعر، إلا أنه من النوع الذي تغلب هواه على عقله فانقاد لحياة اللهو.

واتخذ محسن مائدة حول ساحة المرقص بعد أن اشترك في جميع الملاهي والمبيعات. وأخذ يملأ كأسه وينظر حوله.

وفي تلك اللحظة لاحت منه التفاتة إلى إحدى الفتيات فلم يتمالك نفسه وأبعد الكأس، وأخذ يتطلع إلى جمالها الساحر... وغفل عن الحفلة وجلس ساهماً موزع الفكر خافق القلب، إذ كانت هذه الفتاة قد رآها مرة قبل هذه في حفلة سابقة. وكان قد بهره جمالها وأضنى فؤاده حبها، على أنها لم تكن قد شعرت به أو

obeikandl.com

التفتت إليه. ومع هذا فلم يزل خيالها ماثلاً أمام عينيه.

آه! إنها هي، ولو تغير ثوبها واحتجب جمال جسمها تحت ذلك الثوب الشتوي الأنيق. إنها فتاة أحلامه ومنتهى أمانيه.

وفي اتجاه منضدة مالكة لبه ظل ساهماً خافق القلب يمد إليها بصره ولا تمتد إليه عينيها.

وإنه لفي مجلسه ذاك وإذا بشاب أسمر اللون متناسب القسمات لا يقل عنه أناقة يقبل عليه في لهفة ويتعانقان في محبة وشوق.

كان هذا الشاب صديقه القديم ورفيق صباه، وكان مستشاره السابق في أموره، ملهمه في أعماله، إذ كان محسن ضعيف الإرادة منقاداً لكل جديد كثير الوقوع في الزلل.

وترجع هذه الصداقة إلى تجاور الأسرتين في بلاد المغرب حينما كان منزل جد محسن لوالدته مجاوراً لمنزل والدة هذا الصديق وكان بين الوالدتين صداقة وود متصل قبل وفاتهما.

ثم فرق بين الشابين السفر للتعليم، فذهب إلى فرنسة، وذهب «ممدوح» إلى الجامعة المصرية.

ولم يلبث ممدوح أن التحق بإحدى الوظائف

الحكومية وابتاع فيلا صغيرة في القاهرة وأقام فيها بمفرده.

عرف ممدوح أن صديقه جاء قريباً إلى القاهرة بعد حصوله على شهادة من «جامعة السوربون» بفرنسة ليكون بجانب أملاك والدته التي ورثها عنها فسر سروراً عظيماً.

فرح الصديقان بتلاقيهما وأخذا يتحادثان، وتناسى محسن بوجود صديقه الحالة القلقة التي كان عليها قبل حضوره وقدم لصديقه الشراب، وأخذ يملأ له الكأس بعد الكأس وهو مشتت الفكر بين سالبة عقله والترحيب بصديقه.

ومرت زينات هانم في تلك اللحظة بموائد المدعوين مرحبة على غير عادتها.

وكانت قد عرفت المنضدة التي يجلس إليها محسن وصديقه.. فاتجهت نحوها، وفي خطاً وئيدة تقدمت من محسن وخصته بترحيب ملحوظ لا يدري له سبباً.

وفي هذا الوقت كانت إصلاح تجلس على مائدة تضم يسرية وصديقة لها هي الأستاذة «سنية المحامية» وكانت إصلاح في ثوب السهرة المحتشم والوجه الطبيعي الخالي من المساحيق آية في الحسن. وكانت تلك الليلة تخفي شعرها الذهبي بخمار قصير موشى

حجب صدرها وعنقها، وكانت بهذا الابتكار مثالاً للجمال المحتشم الأنيق.

وأتمت زينات هانم دورتها حول الموائد حتى وصلت إلى مائدة إصلاح فاقتربت منها وقالت آمرة:

- بعد قليل يبتدئ جمع التبرعات، وعليك أن تحملي سلة الورد وتطوفي بها لهذا الغرض.

فوجمت إصلاح وقالت في توسل:

- أرجو ألا تحمليني على ذلك يا أماه. فهذا عمل أستنكره ولا أقره.

فغضبت والدتها وقالت:

- إصلاح.. يجب أن تمتثلي لما أقول. ولا أقبل منك أي اعتراض على ذلك.

وانصرفت إلى مائدتها.

* * *

مضت مدة على تلاقي الصديقين.. شغل ممدوح بعدها بكأسه لاهياً عما حوله من موسيقا وجمال، ورجع محسن إلى شروده الذي قطعه عليه حضور صديقه، واستأنف النظر إلى مالكة فؤاده، وشرد لبه مرة ثانية وسبح في خياله. ترى من تكون؟ داعية أو مدعوة؟ متزوجة أو خالية؟

obeikandl.com

والتفت إلى صديقه وكان مشغولاً بكأسه وقال:

- ممدوح! أيها الأخ الرشيد أصغ إلي!

ولم يترك الشاب كأسه وقال دون أن ينظر إليه:

- ماذا؟ أبك شيء يا محسن!

- قد انتابني عامل نفساني لا أستطيع الآن كتمانه، إني أحس أن فراغ قلبي قد شغل وليس لي قدرة على إخفاء ما بي.

فلم يعبأ ممدوح بقوله وقال:

- لا عليك يا صديقي؛ فهذه أعراض كثيراً ما كانت تعتريك من زمن ولا تلبث أن تزول. إليك هذه الكأس ترجع بعدها إلى حالتك الطبيعية. فاستاء محسن من قول صديقه وقال متسائلاً:

- ما هذا الذي تقول يا ممدوح؟

- إنه الحب يا محسن. إنه صديقك القديم وحذار أن تقع فيه الآن. وأغرق في الضحك.

فقال محسن:

- دع المزاح يا ممدوح، وانظر.

وأشار إلى المائدة المجاورة واستطرد:

- هذه التي تسلمت الورد الآن، ما أبدعها! وما أجملها!

لقد سحرت بها وفتنت بجمالها. وإني لأذكر أني رأيتها مرة غير هذه، رأيتها في حفلة أخرى وكان قد دعاني أحد أصدقائي إليها، لكني لست أعرف من هي، فهل تعرفها يا ممدوح؟ أعتقد أنك أعلم مني برواد هذه الحفلات.

وكان ممدوح لم يزل مشغولاً بكأسه، فلم يرفع عينيه، بل أمسك بالكأس وتجرعها جرعة واحدة، وزاد في الضحك، ثم ملأ غيرها، وقال مازحاً:

- ترى من تكون يا محسن؟ أليست واحدة من بنات حواء؟ اشرب.. اشرب.

فتناول محسن الكأس من يده وأخذ منها رشفة واحدة لأنه كان لا يريد نسياناً لنفسه وقال:

- أستحلفك بحياتي يا ممدوح أن تنظر إليها.

فرفع ممدوح نظره إليها متكلفاً؛ على أنه ما لبث أن أنعم فيها النظر، وقال في إعجاب:

- من تقصد يا محسن؟

- لقد قربت منا.. وأشار إليها.

- إذا كنت تقصد هذه، فلا يسعني إلا أن أهنئك يا صديقي إذ أرى أنك قد أفلحت هذه المرة ويحق لك أن أراك على ما أنت عليه من الشرود، وقهقه ضاحكاً.

فقطب محسن بعد سرور وقال:

- ألم أقل لك دع المزاح يا ممدوح الليلة.

- ما قصدت مزاحاً يا صديقي.. وما قلت إلا الحق.

فقال محسن في لهفة:

- هل عندك ما ترويه لي عنها ما دمت تعرفها؟

- نعم يا محسن، ومن ذا الذي لم يعرفها! ويعرف والدتها وإخوتها! إنها الآنسة «إصلاح هانم» ابنة زينات هانم صاحبة الدعوة.

- إصلاح؟.. يا له من اسم جميل.

- ويا لها من حسناء عصرية.

وأشار إلى إحدى الجالسات وقال:

- وهذه أختها سوزان تلك الجالسة مع خطيبها يحتسيان الخمر.

وأخذ بعد ذلك يحدثه عن والدتها ومنزلة أسرتها وما كان يعلمه عن حب إصلاح لحياة اللهو والترف، ومحسن مصغ إليه في شوق واهتمام إذ رأى في وصف صديقه لحبيبته صورة لفتاة أحلامه العصرية التي يريدها شريكة لحياته.

ولم يخطر بباله أنها أتت هذه الحفلة مرغمة من والدتها.

obeikandi.com

ولم يخطر بباله أنها تقصد من هذا المظهر المحتشم إرضاء الله وخشيته.

بل رأى فتاة العصر والأناقة متجلية في شخصها، كما رأى فيها جمالاً وفتنة وحياة.

استمع محسن إلى صديقه وهو ينظر إليه واله النفس خافق القلب والحبيبة لاهية عنه، قد حال بينها وبين الاهتمام به وبغيره الخوف من الله وغض البصر.

وما إن انتهى ممدوح من حديثه حتى كانت إصلاح تحمل سلة الورد وتمر بها على الحاضرين نزولاً على أمر والدتها لجمع التبرعات وقد ارتسم على وجهها الجميل طابع الملائكة وزينة الحياء.

واستدارت إلى الموائد الباقية فإذا بها وجهاً لوجه أمام محسن.

فألفى محسن نفسه ينظر إليها مسحوراً مأخوذاً بجمالها ولم يصدق عينيه.

لم يسمع منها كلمة ولا حظي بنظرة، غير أنه رأى نفسه بدافع خفي يمد إليها يداً مرتعشة بورقة بمئة من الجنيهات ثمناً لوردة من يدها.

وتناول منها الوردة بقلب خافق وتمثلت له فيها حبيبته فأودعها قبلة عاطفية وثبتها في عروة سترته.

ورأى ذلك ممدوح فقال ضاحكاً:

- ماذا يا سيد محسن؟ أهذا بتأثير الحب أم بدافع الكرم والتبرع؟

قال محسن في تنهد ولوعة:

- لكنها لم تنظر إلي ولم أحظ منها إلا بكلمة شكر عابرة.

فبدت لمعة الدهشة تبرق في عيني ممدوح وقال:

- أتطمع في أكثر من ذلك يا محسن؟

- ما زلت تسخر يا ممدوح وأنا أحوج الناس إلى معونتك.

- يا لك من طفل كبير يا صديقي؟ ماذا عراك؟ أتتصور أن ابنة زينات هانم يبلغ بها التواضع حداً يحملها على الحفاوة بك بمجرد تبرعك بمئة جنيه ثمناً لوردة؟ ألم تر هذا الجمع يكاد يركع تحت أقدامها دون أن تلتفت إلى أحد منهم؟.

فاقتنع محسن بقوله وقال:

- الحق معك يا ممدوح فإن هذا الجمال ليسمو بصاحبته أن تبذله رخيصاً، وإنه ليعلو بها تيهاً وكبراً أن ينال بسهولة.

وهدأت نفسه لهذا الخاطر الذي اهتدى إليه هو

وصديقه دون أن يعرفا ما في نفس هذه الفتاة التي أصبحت ترى الله أمامها في كل مكان.

وفي تلك اللحظة ساد الحفل صمت عظيم فقد ارتقت زينات هانم المنصة بجوار الموسيقيين لتلقي كلمة الشكر للمتبرعين.

فدوى التصفيق وأصغى الجميع إليها.

وما إن انتهت من إلقاء كلمتها حتى خف إليها محسن مع المعجبين، وكانت لا تزال في مكانها فأثنى على حفلتها شاكراً جهودها، وفي أثناء ذلك رأى منها اهتماماً به وابتسامة رقيقة خاصة له وشكراً موجهاً إليه. فعجب من هذا وتملكته الدهشة.

ولا تسل عن أثر ذلك في نفسه فقد كاد يطير من الفرح.

وما لبث أن عاد إلى صديقه وهو يسائل نفسه عن سر اهتمام زينات هانم به.

وخيل إليه أنه ربما بلغها ثناء عليه من مالكة لبه.

فهل عندها مثل ما عنده من الحب؟ وهل تعرفه وتعرف من أمره مثل ما يعرف من أمرها؟

وأفضى إلى صديقه بما كان يجول في نفسه لعله يمده بما يريح قلبه. فقال:

- إن حبي لهذه الفتاة يا ممدوح وانطباق صفاتها العصرية على من أريدها شريكة لحياتي المستقبلة، يدفعني إلى غاية لم أشعر بها نحو عشرات الفتيات اللائي أحببتهن قبلها إذ أجد فيها المثل الأعلى وضالتي المنشودة.

فقال ممدوح في دهشة ومن دون تفكير:

- أتريد الزواج من ابنة زينات هانم يا محسن؟

- ولم الدهشة يا ممدوح؟ وماذا في ذلك؟ أتظن أني غير جدير بها وأنها لا تقبلني زوجاً؟

- ما قصدت ذلك، لكن تشجع وأنت وحظك، وما فاز باللذات إلا الجسور، ويالسعادة من يتصل بزينات هانم إنه يتملك اللذات والنعيم. وأردف قائلاً:

- هيا يا صديقي! تقدم إليها من الآن طالباً يد ابنتها، فلعلك تنال ما تريد. فصمت محسن لحظة ثم قال:

- حبذا لو أستطيع.

- وماذا يمنعك؟

- لا أجسر على ذلك.

- وممَّ تخاف؟ ألست تقول إنها قد أحاطتك الليلة بالرعاية، وخصتك بالعناية؟ فما عليك إلا انتهاز هذه الفرصة ولا تدعها تفوتك.

فوقع هذا القول في نفس محسن موقعاً حسناً وما لبث أن قام لتوه وأصلح من هندامه واطمأن إلى الوردة في صدره؛ وأخذ بيد صديقه وخفا إلى زينات هانم كي يقدمه إليها مدعياً أنه يريد شكرها هو أيضاً لعله يجد في ذلك فرصة مواتية لتحقيق غرضه.

obeikandl.com

## ٦

كانت زينات هانم قد ذهبت إلى حجرتها الخاصة للإشراف على ما جمع من التبرعات، في الوقت الذي ذهب فيه محسن وممدوح إليها.

فلما لم يجداها دلفا إلى حجرتها ووقفا بالقرب من بابها ريثما تخرج.

وما أشد دهشتهما عندما رأياها تنظر إليهما باسمة كمن تريد أن تتحدث إليهما.

وشجعتهما هذه الابتسامة وتلك النظرات المتحدثة.

فتقدم إليها محسن قائلاً:

- أقدم إليك صديقي ممدوح بك ليعبر لك عن شكره وتقديره.

فوقفت قبالتهما وابتسمت قائلة:

- وإني لسعيدة بك وبصديقك يا محسن بك.

فبهت محسن وقال مستفهماً:

- أتعرفينني يا سيدتي؟

- لقد عرفتك من ولدي سامي. ألست تعرفه؟

obeikandl.com

- من بواعث سروري أني عرفته منذ قريب.

فنظرت إليه وقالت من دون أن تفكر:

- لقد كنت عازمة الليلة على إرساله إليك، لاستدعائك كي تحدثني عن نفسك.

فدهش ممدوح وظهر العجب على وجه محسن وقال:

- أيهمك أمري يا سيدتي؟

وبدا لها أنها تسرعت بهذا التصريح فقالت موارية:

- إن الكرماء أمثالك يا محسن بك لهم عندي المنزلة السامية والمكانة الملحوظة..

فاستخفه الطرب وقال:

- شكراً يا سيدتي، وما أستحق كل هذا.

وسكت وسكتت، وساد بينهما صمت أحست خلاله في نفسها رغبة ملحة تدفعها إلى معرفة أخبار هذا الشاب.

وأشارت إليه بيدها وأخذت تمشي بجانبه في جهة بعيدة عن المدعوين.

رأى ممدوح منها ذلك الاهتمام بصديقه فوجد من اللياقة أن يبتعد عنهما فاستأذن وقفل راجعاً إلى المائدة.

obeikandl.com

وخلا المكان إلا منهما، وسارت به إلى ركن من حديقة النادي بعيداً عن المدعوين وسار بجانبها في ضوء القمر. وكانت تسير متمهلة، وأخذت تسأله وتدور معه بأسئلة مختلفة.. عن صديقه ممدوح، وعن لعب الميسر الذي كان بينه وبين سامي و.. و.. وتدرج بها الحديث معه إلى أن وصلت به للسؤال عن حياته الشخصية وعائلته. وكان ذلك منها في لباقة وحسن تصرف.

عند ذلك رأى محسن أن الفرصة قد واتته ويجب عليه انتهازها وألا يدعها تفوته كما أوصاه بذلك صديقه. ومن يدري فلعل ذلك يساعده على الزواج بمالكة لبه... وقال:

- بدأت حياتي بين والدتي وجدي (الشريف المرجاني) شيخ الإسلام السابق في بلاد المغرب. إذ كان والدي علي بك المستكاوي قد طلق والدتي بعد ولادتي بعام واحد. فأخذتني مع مربيتي (عسرانة) وسافرت إلى والدها تاركة أملاكها بالقاهرة ثم ماتت وأنا صغير.

وكأنما كان اسم والده واسم مربيته قد زادا في اهتمامها لسماع بقية الحديث، فقالت مستفهمة زيادة في التأكد:

- ألم تر والدك في حياتك!

- كلا يا سيدتي.. ولم أدر عنه شيئاً وتقول مربيتي إنه مات، وترك فتاة من سيدة تزوجها بعد والدتي.

وعند ذلك تأكدت من صلة القرابة التي بينهما.

ولكنها ما كادت تهم بإطلاعه على تلك القرابة حتى بدا لها شبح سر دفين مع والده تعرفه مربيته عسرانة منذ كانت في خدمتها وعادت تسأله:

- وهل مربيتك على قيد الحياة؟

- نعم.. وهي لم تزل في خدمتنا حتى الآن.

فاضطربت واكتفت بهذا وعزمت على إخفاء تلك الصلة عنه وعن أولادها وغيرت الحديث وقالت متسائلة:

- ومتى جئت القاهرة؟

- منذ بضعة شهور بعد أن نلت شهادة من «السوربون» وكان جدي قد عارض كثيراً سفري إلى مصر وأخيراً تغلبت أنا وخالتي عليه وجاء معنا، وقد عينت مديراً لإحدى الشركات الكبرى بمرتب كبير..

وإلى هنا رأت أن تغير مجرى الحديث بعيداً عن أسرته حتى لا يرتاب في أقوالها فقالت:

- أتحب القاهرة؟

- ما أحببتها كحبي لها الليلة.

opeikandi.com

وأعجبها القول فابتسمت وقالت:

- لعلك وجدت فيها الليلة هوى «يا محسن بك»؟

فانبسطت أسارير وجهه وتذكر في الحال قول صديقه «فاز باللذات الجسور» فاجترأ وقال:

- وإن هواي لعند سيدتي.

وأدهشها القول وقالت مستفهمة:

- عندي أنا؟

- نعم يا سيدتي.

ونظر إليها ونظرت إليه، وكان يشع من عينيها بريق استفهام شجعه على استئناف الحديث فقال في جرأة:

- وإن هواي لفي الزواج من الآنسة إصلاح هانم، فهل تقبلني سيدتي زوجاً لابنتها؟

وصمت وانتظر الرد، وكان قلبه يخفق، وأخذ ينظر في اضطراب.

كانت زينات هانم إلى هذه اللحظة تجد في نفسها سراً أليماً يدفعها إلى معرفة أخبار هذا الشاب، وصلة القرابة توحي إليها بذلك دون أن تفكر فيما طلبه منها الآن أو يخطر لها على بال. فلما ألقى عليها هذا الطلب حضرتها خواطر شتى وذكريات ماضية.. وترددت في صمت:

أتراها تقبله وقد أعجبت بصفاته ومؤهلاته؟. أو

ترفضه حرصاً منها على الابتعاد عن تلك الذكرى الأليمة. لكن لماذا الخوف؟ وممن تخاف؟ ومن الذي سيكشف هذا السر؟ إنه دفين.. ولا أحد يعرف عنه شيئاً.. وإن كانت مربيته تعلمه.. فيكفي أنني أخفيت عنه قرابتي منه.

واقتنعت بهذه الخواطر وخرجت عن صمتها قائلة:

- يلزمني يا «محسن بك» قبل الإجابة عن سؤالك أن أتدبر الأمر وأفكر فيه.

إلا أن محسناً تشجع وألح وأكثر؛ واستعطف وتملق، وكانت زينات هانم ترى ذلك وتعجب من تلك المصادفات التي أيقظت السر الدفين ومن المقادير التي أبت إلا أن تربط الماضي بالحاضر. وأخيراً وأمام إلحاحه ورغبته الصادقة في طلبه، لم تجد مندوحة عن موافقته على ما أراد بعد أن راقتها صفاته ومؤهلاته.

ولما كانت تعلم أن ابنتها لا توافق على الزواج من أمثال هذا الشاب فقد طلبت منه ألا يكلم إصلاح هذه الليلة حتى تمهد له ذلك. وحددت له موعداً للحضور عندهم لمقابلة (الباشا).

وكان الباشا قد سافر إلى إحدى ضياعه فكان هذا الموعد موافقاً لعودته فابتهج محسن وغمره السرور، ووافق على ما أرادت، ثم قدم إليها بطاقته شاكراً،

obeikandi.com

ورجع إلى صديقه وهو لا يكاد يصدق ما وصل إليه، وأخذ يقص عليه ما تم بينهما في فرح وسعادة.

واستمر الحفل إلى ما بعد منتصف الليل.

وقبل أن تأوي إصلاح إلى فراشها أخذت تستعرض كعادتها ما رأته في تلك الحفلة من موبقات، وتسترجع ما سمعته من منكرات فاشمأز قلبها وضاق صدرها، وفي الحال تذكرت الحكمة الملهمة لها:

«من لم يستطع أن يزيل المنكر فليزل عنه».

فعاهدت نفسها على مقاطعة جميع الحفلات التي تقام باسم الخير، وتحوي ضروب المنكر.

وفي سريرها أخذت تفكر في حياتها الجديدة بعد أن نالت شرف الرياسة في جمعيتها فعزمت على أن تكون قدوة صالحة لمن معها، وأن تجاهد في سبيل الله وتدعو إليه ما استطاعت.

غير أنها رأت أن ذلك العزم لا يتحقق إلا إذا زادت عنايتها بفهم درس الدين الذي تأخذه من «أستاذها» مع إخوتها كل أسبوع. والعمل بما تسمعه.

فهل تريد أن ترى درساً من هذه الدروس وتعرف مقدار تأثيره في إصلاح وإخوتها؟

إذن فهيا نستمع لما جرى في درس هذا الأسبوع.

## ٧

دخلت إصلاح الحجرة المخصصة للدروس قبل الميعاد بفترة طويلة وأخذت تقرأ في بعض كتب الدين.

وبعد قليل أقبل أخوها حسين وجلس بالقرب منها، واشترك معها في القراءة.

وحسين شاب في الرابعة والعشرين، أتم تعليمه الجامعي والتحق بإحدى الوظائف الحكومية الممتازة. وكان منقاداً لحياة اللهو كوالدته وإخوته، لكنه ما كاد يستمع إلى الدروس الدينية حتى استيقظ عقله وأخذ يصارع هواه، ويجتهد في معرفة أوامر اللّٰه والابتعاد بنفسه عن المعاصي.

ومضت فترة وهما يتذاكران، وفجأة بدأ حسين الحديث مع أخته قائلاً:

- سمعت أن الأسرة ستذهب الليلة إلى إحدى دور السينما فهل ستذهبين معها؟

فتركت الكتاب من يدها وقالت:

- نعم.. وهل ستذهب أنت؟

- كلا، وسأعتذر لوالدتي عن الذهاب الليلة.

obeikandl.com

- ولماذا؟ أأنت على موعد.

- لا.. ولكني أصبحت أستنكر وأشمئز مما أراه في هذه الدور من الصور الخليعة والمناظر المخزية التي تحتوي عليها معظم القصص المعروضة بها.

فصمتت هنيهة ثم قالت:

- الحق معك، غير أني علمت أن رواية اليوم من الروايات الأدبية التي تحث على الفضيلة، وتدعو إلى الخير.

وإلى هنا انقطع الحديث بينهما وتوقفا عن الكلام؛ فقد سمعا دقات حذاء ونعال تقترب من الحجرة. أدركت إصلاح من الدقات أن بين القادمين والدتها، ولا بد أنها آتية لتحول بينها وبين الاستذكار. وإلا فما الداعي لمجيئها؟

لقد صدقت فراسة إصلاح ودخلت الوالدة ومعها سامي وسوزان، وعند دخولها نظرت إليهما في غضب وقالت مخاطبة إصلاح:

- ألم أطلب منك هذا الصباح إلغاء درس اليوم لأننا سنذهب جميعاً إلى «السينما» في المساء فلماذا تخالفينني؟

قالت الفتاة في هدوء:

obeikandi.com

- حقاً يا أماه.. ما كان ينبغي ذلك. ولكني رأيت أن نجمع بين هذا وذاك فما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأخذنا بكل منهما. لهذا أرجو ألا تحرمينا من درس اليوم. وسأجتهد أن نخرج في ميعاد السينما.

وتلاعبت ابتسامات السخرية على شفتي سامي وسوزان، وقال حسين مؤيداً إصلاح:

- قول صائب.. وإني أوافق على ذلك.

وبعد أخذٍ وردّ وافقت الوالدة على كره من سوزان وسامي.

وسامي ولو أنه يكبر أخاه بعام إلا أنه كان كغيره من الشبان الذين يعتمدون على ثراء آبائهم وجاههم، فلم يتم تعليمه ولم يعبأ بوظيفة، واستمر هو وسوزان على نهج والدتهما وطريقها في الحياة.

ومضت مدة وجاء الأستاذ عند الأصيل.

- أتذكره؟

- إنه الشيخ الذي طالما سمعت الكثير من القذف في حقه من سوزان وشعرت بشدة كره زينات هانم له.

- شيخ ورع، وعالم تقي، آتاه الله الحكمة ونور الإيمان وقوة البصيرة، أسمر اللون كبير السن، له لحية

بيضاء وعليه هيبة ووقار، جمع في هيئته بين سيماءي السماحة والشدة، قوي العزيمة في طاعة الله، لا يخشى في الحق لومة لائم، مخلص لله، إذا صمت رطب قلبه بذكر الله وتسبيحه وحمده، وإذا تحدث إليك في الدين أخذ بلبك حديثه، ورغبت في العمل للآخرة وترك ملاذ الدنيا، ترى تأثيره قوياً في معظم من يستمع إليه.

وعندما دخل الحجرة جلس أمام مكتبه المخصص له، وجلس الإخوة على المقاعد الوثيرة المرصوصة تجاه المكتب، ومرت لحظات وبدأ الأستاذ في الدرس وكان تفسيراً لمعنى الآيتين الكريمتين:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٢٤/٣٠].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ

بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ [النور: ٢٤/٣١].

وخلال تفسيره انطلق يكشف لهم عما بيَّنه سبحانه من عقاب المخالفين والمخالفات لأوامره، وما يلحق السافرات المستهزئات بلبس الخمار من العذاب، بأسلوبه الأخاذ، وبما يناسب مرمى الآيتين الكريمتين من الأحاديث والآيات.

وفي النهاية صاحت سوزان متحدية:

- أيها الأستاذ! إن هذا الخمار لا يتماشى مع العصر الحاضر ومدنية القرن العشرين. وما دمنا نعيش في هذا العصر فلا مندوحة لنا من مجاراة أهله.

فصمت الأستاذ قليلاً ثم قال:

- هذا صحيح. لكن قبل أن أرشدك إلى الصواب، أود أن أوجه إليك بعض أسئلة أرى ضرورة الإجابة عنها.

فأومأت موافقة.. وقال متسائلاً:

- هل جاء دين بعد الإسلام؟

- لا.

- وهل جاء نبي بكتاب من عند الله بعد القرآن؟

فلما أجابت بالنفي عاد يقنعها في هدوئه المعتاد قائلاً:

- إن أوامر القرآن وسنن الإسلام يا بنتي! نزلت لكل زمان ومكان، ومما لا شك فيه، أن الله سبحانه، عندما أنزل كتابه، كان في علمه أن الزمان سيتغير، وسيأتي هذا العصر الذي زعم قومه التمدن والتنور، وعبدوا الخلاعة والتبرج وانتشر فيه الفساد، فأوحى إلى نبيه أن يعلم أمته، كيف يعمل من أدرك مثل هذا الزمن.. فقال ﷺ: «من تمسك بسنتي يوم فساد أمتي فله أجر مئة شهيد»؟ والشهداء أجورهم الجنة.

لهذا فليس لمن يعيش في هذا الجيل عذر، وليس ثمة فرق بين من عاش في هذا العصر ومن عاش في عصر قبله؛ إذ الرجال في جميع العصور هم رجال، والنساء هن نساء، والله واحد ولا مبدل لكلماته.

فتألق وجه حسين وقال مستفهماً:

- معنى هذا يا «أستاذي» أن الذين أباحوا خروج المرأة سافرة كانوا مخطئين في تلك الإباحة.

- كل الخطأ يا ولدي، وهم مسؤولون عنه أمام الله وبخاصة إباحة ذلك العري الفاضح، والسفور الخارج عن الحد المطلوب شرعاً، لأن جميع بدن المرأة

عورة يجب سترها عن الأجانب، وقد يجوز لها كشف الوجه واليدين بشرط خلوهما من الزينة والتجميل.. وفرض مقدس خروجها محتشمة.

وكانت إصلاح إلى ما قبل هذه اللحظة حائرة بين المطالبين بحجاب المرأة والمنادين بسفورها. فلما طرق سمعها هذا الحديث بدا التأثر والاقتناع على وجهها، وفي ثقة وعزم تقدمت إلى الأستاذ وعاهدته على ترك التبرج والسفور الخارج عن الحد المشروع.

ونظرت سوزان إلى أختها.. وتلاعبت الأهواء بعقلها واتجهت إلى الأستاذ وقالت ساخرة:

- لكن هذا الاحتشام يعرضنا لسخرية الناس.

فحدجها الأستاذ بنظرة ذات مغزى وقال متسائلاً:

- أي ناس تعنين؟

فأجابت في تهكم:

- أعني أهل التمدن والرقي منا ومن الأمم الراقية التي أباحت ذلك.

فتجاوز الأستاذ عن سخريتها وتهكمها وقال في هدوء:

- يجب يا بنتي ألا تعتقدي أن أمة راقية رقياً حقيقياً تقر المرأة على هذا العري الفاضح؛ والسفور الخارج عن الحد.

فلم تقتنع بما سمعته وقالت متحدية:

- ولماذا؟.. أليست هذه المدنية الحديثة قد أتت إلينا من أرقى البلاد الأوربية؟

فتصدى لها الأستاذ، وفي صراحته المعهودة انفجر قائلاً:

- كلا... بل من أحط أهل هذه البلاد وأجهلهم.

وكان يعني الطبقة التي لا همَّ لها إلا نشر البدع الفاسدة والخلاعة، دون أن يكون للعقل سلطان على هواهم... واستطرد قائلاً:

- لأن رقي الأمم نتيجة لتمام عقل أفرادها واتباع أوامر دينها. وعري المرأة لا يقبله عقل، ولا يأمر به دين.. ولو بحثنا في الأديان السماوية لما وجدنا ديناً يبيح للمرأة أن تخرج على هذه الصورة؛ عارية الجسم، والرأس، بدليل أن من تقلدونهن، لم يزل منهن محافظات على حجابهن عند دخولهن المعابد، ومنهن الراهبات المتحجبات.. ثم ماذا يعنينا من الناس وقد أمر الله النساء المسلمات بالحجاب فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٩].

opelkanah.com

وهذا أمر صريح للمرأة بالاحتشام، وعدم إباحة خروجها عارية.

وصمت لحظة، وكأنما عز عليه أن يتركها في جهلها فعاد إلى الوعظ والإرشاد قائلاً:

- فلو أنك اهتديت لطاعة اللّٰه يا بنية لعرفت أن هذه الدنيا ليست دار عبث وتقليد أعمال منكرة، إنما هي دار اختبار لطاعة اللّٰه، واجتهاد في تنفيذ أوامره التي أنزلت في كتابه الكريم. وقنطرة توصل إلى النعيم المقيم أو العذاب الأليم.

أطيعي اللّٰه يا بنتي طاعة خالصة تجدي أنك مخطئة في قولك هذا، وابتعدي عن الشهوات، وتقليد أتباع الشيطان، تتكشف لك الحقيقة فتحتقري كل من تخالف أوامر اللّٰه، وتقول (إن الخمار لا يتماشى مع العصر الحاضر ومدنية القرن العشرين).

وسمعت هذا سوزان فظنت أنه يقصد تحقيرها وتمتمت ساخرة من قوله. وكان سامي بالقرب منها فهمس في أذنها أن تقصر الحديث فقد قرب ميعاد خروجهم.

* * *

وقبل الغروب حضرت يسرية لتذهب مع الأسرة إلى (السينما).. فلما علمت أن الإخوة مع أستاذهم في

حجرة الدرس. أرادت أن تشترك معهم لترى ذلك الأستاذ الذي سمعت عنه كثيراً دون أن تراه.

وعند دخولها، كان الأستاذ قد بدأ في الاختبار الشفوي الذي خصصه لتوزيع الجوائز على المتفوقين.

فأظهرت إصلاح من الخبرة والعلم ما أدهش يسرية وأعجبها. وظهر على حسين من النبوغ والفطنة؛ ما جعل أستاذه يثني عليه ويفخر به.

وفي نهاية هذا الاختبار، قدم الأستاذ إلى كل من إصلاح وحسين مصحفاً ثميناً مذهب الأطراف مع نسخة من الأحاديث النبوية وقال:

- أقدم إليكما هذين الكتابين مكافأة لكما على تفوقكما.

وبعد أن تلقى منهما عبارات الشكر، أخذ يبين لتلاميذه أهميتهما وفائدتهما فقال وهو يشير إليهما:

- هذان الكتابان يا أولادي هما نور الله في أرضه، ومصدر سعادة الإنسان في دنياه وآخرته.. والصلة بينه وبين ربه، قال ﷺ:

«تركت فيكم أمرين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتابَ الله وسنتي».

واستطرد قائلاً: إنهما يا أبنائي باقيان ما بقي

الزمان، صالحان لكل عصر، خصوصاً هذا العصر الذي ضل فيه كثير من المسلمين للغفلة عنهما، وعدم العمل بكل ما فيهما.

ومضى يبين لتلاميذه فوائد القرآن الكريم فقال:

- وكتاب الله يا أولادي فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم. هو الفصل، ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى الصراط المستقيم.

وانتهى الدرس، وخرج الأستاذ..

ولو كنت حاضراً هذا الدرس لأمكنك الحكم على مقدار تأثيره في نفس كل من الإخوة الأربعة.. فما كان أشبههم بأرض مختلفة التربة تسقى بماء واحد، ما كادت الخصبة منها ترتوي حتى ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٢٢/٥] أما الصخرية، فإنها أجدبت ولم ير للماء فيها أثر، ولم تنتج نفعاً.

أما يسرية، فإنها ما كادت تستمع إلى ما كان خافياً عليها من فوائد الكتاب والسنة؛ حتى بدأت أفكارها وأحاسيسها تتجه نحوهما اتجاهاً ملموساً، وما انتهى

الأستاذ حتى هب عقلها مستيقظاً وراح ينبهها إلى وجوب الانتفاع بهذين الكتابين المقدسين.

وسرعان ما شملتها موجة من الخشوع والإيمان، وداخلها شعور أحست منه ظمأ يدفعها إلى الارتواء من منهلهما العذب.

وفي رغبة صادقة عاهدت إصلاح على دراسة أوامر الدين معها.

وكان قد حان ميعاد الذهاب إلى السينما، فأرسلت زينات هانم في طلب أولادها.

وكانت سوزان عقب الدرس قد استكملت زينتها، فأسرعت إليها قبل إخوتها.

وفي الحديقة وقفت سوزان مع والدتها تتحدث عن إصلاح وتخبرها بكل ما سمعته منها في درس اليوم.

وفي تلك اللحظة أقبلت إصلاح مع يسرية مرتدية أكثر أثوابها احتشاماً وأقلها زينة.. ثوب من الحرير المنقوش، له أكمام طويلة وصدر مغلق أكسبها رونقاً وأناقة، وكان على رأسها منديل كبير مرقش «إيشارب» حجب رأسها وعنقها، كما لبست جورباً طويلاً، ولم تضع على وجهها شيئاً من المساحيق، فظهر محياها الطبيعي الجميل، وكانت على صورة رائعة تجمع بين الحشمة والأناقة والحشمة والمظهر الداعي للاحترام.

لكن هذا المظهر لم يسر والدتها، وفي ضيق واستنكار صاحت في وجه ابنتها قائلة:

- أمتحجبة يا إصلاح؟ يالسخرية الناس!

فقالت إصلاح في عزم وإصرار:

- لست أخشى سخرية أحد.. بعد الذي سمعته في درس اليوم ما دام في ذلك طاعة لله ورسوله.

وكان شوقي قد أقبل بسيارته، فانقطع الحديث وخرج الجميع إلى السينما.

obeikandl.com

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٤/٣٣]. **هذه هي أوامر الله للنساء المسلمات.**

وهذا هو الدستور الذي اعتادت إصلاح السير عليه بعد أن أهدى إليها أستاذها كتاب الله الحكيم وعرفها قدره وشأنه.

فكانت تتلو بعض سوره في حجرتها كل صباح كما كانت تقرأ في كتاب الحديث المهدى إليها منه، وكثيراً ما كانت تتدارسهما مع يسرية كلما حضرت عندها.

ومر شهر.. ومع مسيره الوادع أخذ قلب إصلاح يستنير بنور الدين، ويزداد ميلاً إلى الاستزادة منه.

وفي عصر يوم جميل جاءت يسرية لزيارتها وكانت تلبس ثوباً رمادي اللون، أهم ما يلفت النظر إليه ذلك المظهر المحتشم الذي خلعه عليها هذا الثوب الأنيق ولم تضع على وجهها شيئاً من المساحيق، ومع ذلك كانت تبدو أجمل من قبل بكثير.

obeikandl.com

فاستقبلتها إصلاح ببشاشتها المعهودة.. واتجهت بها إلى شرفة القصر المطلة على الحديقة تجاه النيل.

وعلى الأريكة الوثيرة التي تتوسط الشرفة جلست الفتاتان أمام منضدة صغيرة عليها عدة مجلدات من الكتب الدينية المختلفة جعلت يسرية تتصفح عناوينها في شغف.

ومضت فترة الترحيب بالزيارة.. أعقبتها فترة أدتا فيها صلاة العصر ثم راحتا تتدارسان بعض آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بتدبر وفهم.

وكان من عادة إصلاح أن تسلك في دراسة الدين مسلكه السهل الذي أمر به ﷺ في حديثه الشريف: «الدين يسر فأوغل فيه برفق».

فكانت لا تأخذ منه إلا بقدر ما يطيق عقلها المستنير؛ ويتحمله قلبها التقي الرقيق.

وكانت في ذلك كله لا تتعدى حدود تلك الآية الكريمة: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٢٨/٧٧].

لهذا ما كادت ترى الشمس مائلة بقرصها الذهبي إلى المغيب حتى تركت هي وصديقتها القراءة واسترخت كل منهما على أريكة متواجهتين، ودخل الخادم تتقدمه عربة الشاي الصغيرة فأخذتا تشربان

وتأكلان وتتسامران بأحاديث طريفة عن طيش الماضي وأمل المستقبل في ضحك وابتهاج، وهكذا كانت حياتهما.. دنيا ودين.. فيا لها من سعادة.

* * *

ومرت بجلستهما اللطيفة فترة حان بعدها وقت صلاة المغرب فقامت الفتاتان لتأدية الصلاة، وفيما هما تصليان إذ بسوزان تدخل عليهما ثم تضغط على زر الكهرباء فيسطع نور الثريا وتضيء الشرفة، وتبدو بملابس الخروج السافرة وفي أتم زينة، وحينما رأتهما تصليان جلست على أحد المقاعد وراحت تعبث بما على المنضدة من الكتب في ضحك وسخرية، وانتهت إصلاح من الصلاة وانتهت يسرية واتجهت سوزان إليهما وقالت:

- مساء سعيد يا يسرية.

- مساء سعيد يا أختاه.. أخارجة أنت أم آتية من الخارج؟

- لقد كنت في الخارج، وما إن علمت بوجودك هنا حتى أسرعت إليك قبل أن أخلع ملابسي، لأني أصبحت لا أراك إلا مع إصلاح أو في صومعتها.

وفي نبرة ساخرة استطردت قائلة:

obeikandi.com

- فتعالي حدثيني عن بعض الجنون الذي عرفته منها.. كم ركعة صليتما اليوم؟ ومن منكما الإمام ومن المأموم؟

وجعلت تتهكم عليهما وتسخر بصلاتهما.

فلم تطق يسرية تهكمها وأسرعت قائلة:

- كفى.. كفى استهزاء وسخرية.. أتهزئين بأوامر الله وبالصلاة التي هي فريضة عليك وعلى كل مسلم ومسلمة؟!

فضحكت سوزان وقالت في شبه اعتذار:

- لا تظني ذلك يا يسرية، فأنا لا أهزأ إلا من المصلين فقط.. لأنني أشاهد الكثير منهم، يسرقون ويكذبون ولا يوفون بعهد ويأتون في نواديهم المنكر ومع ذلك يركعون ويسجدون.

فارتسمت الحيرة على وجه يسرية وأسرعت إصلاح قائلة:

- إنك لمخطئة يا سوزي في اعتقادك هذا، فما مثل هؤلاء بمصلين وإن كانوا يركعون ويسجدون، لأن «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له».

فقالت وكأنها تسخر:

- عالمة.. وفيلسوفة.

obeikandl.com

فربتت يسرية بيدها الرقيقة على وجه إصلاح المشرق، وقالت مدافعة:

- بل درة نادرة في هذا العصر ولو كان لي أخت مثلها لما بقيت مثلك إلى الآن، ولاتخذتها نبراسي في الظلام.. عفواً يا سوزي، ما قصدت بذلك إلا إرشادك إلى الصلاة وهدايتك.

فقهقهت سوزان ضاحكة وقالت:

- هدايتي؟ يا لك من ساذجة يا يسرية، أتظنين أن الصلاة هي كل شيء؟..

إنني أضيع معظم أوقاتي في أعمال خيرية كثيرة غير الصلاة ولقد عرف الناس كم أغدق على جمعيات البر والإحسان؟ وكم أساهم في خدمة الإنسانية والنهوض بالبلاد، ولولاي ما نجحت جماعة (المجاهدات في سبيل الوطن).

فقالت يسرية:

- ليس لي أن أحكم على مقدار ما ستنالين من الثواب على تلك الأعمال، فهذا من علم الله وحده، ولكن الذي علمته من الدين هو (أن الله لا يقبل عملاً من تارك الصلاة).

وقد كنت أقرأ اليوم مع إصلاح في أحد كتب الحديث عن هذا الموضوع نفسه، فعلمت أن الصلاة

opeikandi.com

لا بد أن تؤدى في وقتها وقبل أي عمل، ولا عذر لتاركها، من سن البلوغ حتى تخرج الروح من الحلقوم؛ فمن الخير إذن أن نبدأ بالصلاة، ولا نؤخرها عن أوقاتها.

وفي تلك اللحظة أطل القمر بنوره، فقد كانت الليلة من الليالي التي يظهر فيها القمر مبكراً، فلاح في الأفق قرصاً قد كمل تكوينه، وأنار الكون بضوئه الساحر، فأطفأت إصلاح نور الشرفة وانقطع الحديث ووقفت الفتيات الثلاث على حافتها وأخذن ينظرن إلى ماء النيل وقد انعكس ضوء القمر على سطحه وهب النسيم، وأخذ يداعب ثيابهن، وفاح الهواء العليل معطراً برائحة زهور الحديقة، فخلع ذلك الإبداع على إصلاح ويسرية وجداً شعرياً اهتز له قلباهما وملك مشاعرهما، فراحتا تتأملان في صنع الله، وجمال خلقه وبديع صنعه، على حين وقفت سوزان تضحك منهما سخرية ومزاحاً.

وجلجلت في سكون الليل دقات ساعة البهو القريبة من الشرفة فانتفضت يسرية كمن تذكرت أمراً.

وكانت والدتها قد اتفقت معها على أن تحضر لزيارة زينات هانم، فما لبثت أن قالت:

- لقد أبطأت في العودة.. وأظن أن والدتي قد طرأ عليها ما منعها من الحضور الليلة، لهذا يجب

ألا أمكث أكثر من ذلك.

واستدارت كمن تهم بالخروج.

وهنا أتت سوزان بحركة؛ وكأنها تذكرت أمراً وقالت:

- آه! أرجو المعذرة يا يسرية، فقد أنساني الحديث معكما أن أخبرك بأن والدتك هنا.

فبدت الدهشة على يسرية وقالت:

- لماذا لم ترسل في طلبي؟

فنظرت إليها سوزان ضاحكة كمن تحاول إخفاء أمر عنها، وقالت:

- لقد كانت تريد ذلك غير أن أخي حسيناً آثر تركك قليلاً.

- حسين؟ حسين؟.

- نعم! حسين هو الذي طلب هذا الآن.

- عجباً!! ولماذا؟ وهل هناك سر؟

- اعتقدت ذلك.

وعادت إلى الضحك، ثم بدا عليها ما كانت تحاول أن تخفيه وقالت:

- ربما تكونين بعد قليل خطيبته.

ولم تكن يسرية تتوقع ذلك، فتورد وجهها ولم تتكلم.

opeikandi.com

أما إصلاح فلم يكن الموقف مفاجئاً لها فقد كانت تتوقع ذلك وترجوه، وفي الحال استضاء وجهها الجميل ببريق السرور وانطلقت الفرحة من قلبها وقالت:

- أهنئك يا يسرية، أهنئك من كل قلبي بهذه الخطبة السعيدة.

وأهنئ نفسي سروراً برؤية أخي يظفر بمثلك «فخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

ومضت فترة سارة وجاء (رئيس الخدم) يستدعي يسرية وإصلاح إلى حيث كانت الوالدتان وحسين.

وسرعان ما انتشر النبأ وأعلنت الخطبة، وفي الليلة نفسها وجدت زينات هانم أن الفرصة قد سنحت لإعلان نبأ خطبة محسن لإصلاح التي تمت بينها وبينه يوم حفلة النادي، فراحت تصف لهم ذلك الخطيب بأعظم الصفات التي ترفعه في نظر من لا يهمهم إلا التمتع بنعيم الدنيا وملاذها، وتصوره بما يخفق له قلب كل فتاة تسمع بشريك حياتها المستقبلة، وما انتهت زينات هانم حتى كان اسم هذا الشاب قد جذب انتباه عنايات هانم فظنته أخاً لابنتها من والدها أو قريباً لتشابه لقبيهما، وبدافع خفي مالت على زينات هانم مستفهمة عن أسرة ذلك الخطيب، لكن سرعان ما بددت زينات هانم ظنونها، وغيرت أفكارها وأقنعتها بأن ذلك تشابه في الأسماء فقط.

وشمل الجميع الفرح وغمرهم السرور.

أما إصلاح، فإنها ما كادت تسمع من والدتها بصفات خطيبها وأخلاقه حتى أحست بانهيار أمانيها، وبتهدم آمالها، ولم تفرح بثرائه وجماله، بل حزنت وتألمت، وبخاصة عندما علمت أن أمها قد ارتبطت معه، وتم الاتفاق دون أن تستشيرها.

فلما رأى الجميع ما ألم بها، حاولوا إقناعها بأن محسناً هذا خير زوج بالنسبة إلى شبان هذا العصر، وأن كل الشبان يقلعون عن عاداتهم، ويغيرون من طبائعهم بعد الزواج، أما قبله فإنهم يمرحون ويرتعون في ملذاتهم وأهوائهم.

عند ذلك لزمت الصمت، ورأت من الخير إظهار الاستسلام كي تدخل السرور على أخيها وصديقتها في مناسبتهما السعيدة وراحت تشارك الأسرة الاحتفال بتلك الخطبة.

ففي هذه الليلة رأت زينات هانم أن تحتفل بخطبة ابنها احتفالاً عائلياً داخل القصر.

وعندما انتهت الأسرة من العشاء اجتمعت بحجرة الموسيقا، ومعهم شوقي خطيب سوزان وبعض الأصدقاء الذين تصادف وجودهم في تلك الحفلة.

وهناك لعبت أنامل إصلاح الرفيعة على المعزف، وتحركت أوتار العود والكمان من سامي وحسين وغنت

سوزان بعض أغنيات بصوتها الرخيم، ثم راح الجميع يرقصون على نغمات (الحاكي) وامتد السمر بالأسرة إلى ساعة متأخرة من الليل.

ولو كنت حاضراً إصلاح وهي تعزف ألحانها لحناً بعد لحن أو شاهدتها وهي تراقص يسرية لأيقنت أنها تبالغ في إخفاء ما بها لتدخل السرور على الخطيبين.

وعند منتصف الليل انتهت الحفلة، وهجعت الأسرة وقلوب أفرادها فرحة بما ستجلبه أفراح الزواج من مناسبات اللهو والطرب إلا قلباً واحداً لم يهزه الفرح ولم يحمل إلا أملاً خائباً، وهماً ثقيلاً، ذلك هو قلب إصلاح، فقد ظل مشغولاً بصفات ذلك الخطيب وأخلاقه.

ويقيناً لو أن هذا الخطيب صادف إصلاح قبل الآن بعام أو أكثر لاهتز له قلبها ولوجدت فيه رجل أحلامها والأمل المنشود. أما بعد أن أصبحت فتاة تقية متفقهة بما تعلمته من أستاذها، وبما درسته من مكتبة أبيها وما فيها من كتب دين، فإنها نفرت من هذا الشاب المتفرنج، ولم تسر بهذا الزواج، وباتت ساهرة تفكر فيما سوف يصيبها في حياتها الزوجية معه بسبب اختلاف الأهواء والآراء. ثم راح خيالها ينقل إليها عنه صوراً مختلفة، عكرت عليها ليلتها... رأته على هيئة زوج سكير يدخل بيته ثملاً يترنح... ثم رأته يجلس

على مائدة الميسر كما سبق له ذلك مع أخيها سامي وقد خسر ماله وتهدم بيته، وظل خيالها ينتقل من سيئ إلى أسوأ، حتى جمعت من تلك الصور هيئة رجل فاسق مستهتر وشملتها كآبة مظلمة.

وما كان أقسى هذه الأفكار عليها تلك الليلة، لولا أن اللّٰه الرحيم تداركها برحمته. أو أن نفسها المطمئنة انقادت إلى عقلها الراجح الذي أوعز إليها بأن الزواج قدر (وما قدِّر يكون) وبأنه ربما يمكنها إصلاحه فتنال عظيم الثواب في الآخرة، وتسعد معه في الدنيا.

فما أصبح الصباح حتى كانت قد امتثلت مطمئنة إلى قضاء اللّٰه يختبر إيمانها بهذا الزواج الذي لا يرضيها. فلتجتز أول امتحان مكللاً بالنجاح.

وهكذا استحوذت على نفسها قوة الإيمان الحق، تلك القوة التي لا توجد إلا فيمن هيأ لها الدين من جلاء الحكمة، وبُعد الرأي، إلى ذكاء القلب واطمئنان النفس، ما يدل على رجاحة العقل وتمامه.

ومن الغريب أن والدتها وأختها، كانتا تعتقدان أن هذا الإيمان جنون وأن تقواها وتدينها مرض؛ كانتا تخشيان عليها من ذلك، وتتمنيان لو رجعت سيرتها الأولى..

obeikandi.com

ولهذا كان سرور زينات هانم بذلك الشاب العصري يفوق الوصف؛ لا لشيء إلا لأنها رأت فيه الزوج الذي يرد إلى ابنتها التمتع بملاذ الدنيا ويشفيها من جنونها.

والآن دعنا نترك تلك الأسرة قليلاً لنعود إلى محسن، فلعلك في شوق إلى ما كان منه بعد الحفلة التي خطب فيها إصلاح من والدتها.

obeikandi.com

# ٩

بات محسن بعد رجوعه من الحفلة يحلم بالسعادة التي نالها، فقد كان يتمنى أن يوفق في زواجه إلى فتاة من فتيات العصر الحديث، وكان جده يعارضه في هذا الرأي، ويحتم عليه الزواج من فتاة صالحة، تخاف اللّه وتحافظ على شرائع الدين.

وكانت الصالحة في نظر محسن صورة لفتاة رجعية قعيدة البيت، لا تهتم بملابسها وأناقتها، جاهلة بأمور الحياة العصرية، ولا تعرف كيف تعيش في المجتمعات.. لهذا عزم على أن يختار زوجته بنفسه ومن بين رواد أماكن اللهو حتى لا يقع فيما يخشاه، وحتى لا يتحقق فيه دعاء جد العائلة الأكبر الذي كان يذكره به جده دائماً، فكثيراً ما كان يقول له: (إن الجد الأكبر للعائلة، دعا اللّه في بيته الحرام أثناء حجه، أن يكون نصيب ذكور ذريته في الزواج «بذوات الدين» من النساء)، لهذا كان محسن يخشى الزواج ولا يريده.

أما وقد عثر على ضالته المنشودة هذه الليلة، فلم يعد لدعاء الجد قيمة لديه، لا سيما أنه رأى خطيبته

obeikandl.com

بعينه مرة في إحدى الحفلات، وخطبها في حفلة ثانية، ومن وسط النادي الذي ترأسه والدتها.

لم ينم محسن تلك الليلة إلا على فرحه، ولم يستيقظ إلا على أمل واستمر طوال ليلته في أحلامه الجميلة بين نوم ويقظة، يسبح بخياله في جمال خطيبته العصرية، وما سيناله من فخر، وهو يقدمها إلى أصدقائه ومعارفه.

حتى إذا أشرقت الشمس وملأت الكون بنورها، قام من فراشه في نشوة وسعادة، وما انتهى من ارتداء ملابسه، حتى أسرع بالدخول على جده في حجرة نومه، وحياه بتحية الصباح. والجد كبير السن، محافظ على التقاليد، وكان يحب حفيده حب الوالد لابنه الوحيد.

فما رآه حتى نظر إليه نظرة ملؤها العطف، ولاقاه بكلمات الترحيب قبل أن يلقي عليه التحية، وكان مستلقياً على سريره بجلباب نومه الأبيض فدعاه إلى الجلوس بجانبه وأخذ يسأله عن أحواله في شوق واهتمام.

وكان محسن يهاب جده، فجلس بجواره صامتاً.

وفي صوت هادئ.. وحياء مصطنع شرع يحدثه في شأن عزمه على الزواج، مظهراً في ذلك طاعة لجده الذي كان يتمنى زواجه.

فبدت على وجه الجد علائم الانشراح، ودلائل السرور، فقد ظن أن حفيده قد قبل الزواج من ابنة صديقه المتدينة التي سبق أن كلمه في شأن الزواج منها منذ قريب؛ وكان محسن قد رفض زواجها، لأن صفاتها لا توافقه.

وراح يثني على رجاحة عقله، وبُعد نظره، وطاعته لأوامره. ومرت فترة، والجد سعيد بطاعة حفيده وتحقق دعاء جد العائلة الأكبر فيه.

لكن ما هي إلا فترة أخرى حتى تغير كل ما كان يجول بخاطره وعرف أن المقصود غير الفتاة التي كان يقصدها.

فأطرق صامتاً، وظهر عليه الاستياء والغضب.

وفي حركة لاشعورية جعل يمر بيده على لحيته وهو مطرق في صمت.

وكانت لحظة حرجة، تلك التي اتجه بعدها الجد نحو حفيده وقال في نبرة مؤثرة لا تخلو من حنان:

- استمع إلي يا بني، إنك في هذه السن، لا يمكنك أن توفق بنفسك إلى من تسعدك من الزوجات، وبخاصة في هذا العصر الذي قل فيه من تنطبق عليها صفات (المرأة الصالحة) التي فضلها سيد الخلق على جميع النساء وحث رجال أمته على الزواج منها

وهو أعلم بمصلحتهم فقال عليه الصلاة والسلام:

«تنكح المرأة لأربع: مالها، وجمالها، وحسبها، ودينها، فاظفر بذات الدين ترِبت يداك».

لهذا أخشى عليك يا ولدي، إن أنت تزوجت بنفسك، أن تكون مندفعاً كغيرك من شباب هذا العصر، بهوى نفسك الضعيفة، فتقع فيمن لا أرتضيها لك من فتيات اليوم، اللائي لا يعرفن للدين أمراً، ولا للّه طاعة... ثم أظهر رغبته في تحقيق دعاء جد العائلة الأكبر، بالزواج من ذات الدين.

سمع محسن لقب (ذات الدين) فضاق صدره وأصغى إلى تلك النصائح، فانقبضت نفسه ووجد رأي جده لم يتغير عن ذي قبل، فأظلمت الدنيا في عينيه ومرت به فترة ثقيلة قضاها في حيرة من أمره. لا يدري كيف يخبر جده بمن اختارها زوجة، وكيف يقدم له صفاتها وهو يعلم أنها بعيدة كل البعد عمن يريدها له.. ووقع في تردد شديد بين أن يخبره الآن، وبين أن ينتظر حتى يفكر في كيفية إقناعه بهذا الزواج.

وتذكر صديقه ممدوحاً.

وفجأة نظر في ساعته، وتململ في مجلسه كمن تأخر عن ميعاد عمله ثم اعتذر لجده بعدم تمكنه من تقديم معلوماته إلى ما بعد رجوعه من مكتبه.

خرج محسن موزع الفكر، ضائق النفس، ولم يذهب إلى مكتبه بل قصد تواً إلى صديقه ممدوح وكان في حال من الأسى والهم، فلما رآه ممدوح هب لملاقاته مبهوتاً واستقبله في دهش - حيث لم يمض على فراقهما بعد خروجهما من الحفلة سوى بضع ساعات - وما لبث أن قال في لهفة:

- خيراً يا محسن ماذا أتى بك إلى الديوان في هذه الساعة المبكرة؟

فأجاب في أسف:

- لم أجدك في الفيلا فجئت هنا.

فزادت دهشته وقال في اضطراب:

- ماذا جدَّ يا صديقي في هذه الساعات القلائل؟ هل أصابك مكروه؟

- لا يا ممدوح.

- من الجائز أن تكون قد أرهقت أعصابك من شدة الفرح فإنني أنكر حالك.

- لم يحصل شيء من ذلك. غير أن جدي...

وارتبك كمن لا يعرف من أين يبدأ الحديث، ولما هم بالكلام كان ممدوح قد سبقه مازحاً:

- ماذا جرى لجدك؟ وأين هو؟ إنني في شوق إليه من أمد بعيد.

obeikandi.com

وكانت نبرات صوته تدل على أنه يسخر. فقال محسن:

- دائماً تسخر يا ممدوح حتى في أحرج الأوقات.

- لم أجد بك يا صديقي ما يدعو إلى الحالة التي أراك عليها فهوِّن على نفسك.. وتعال نجلس أولاً ثم أخبرني بعد ذلك بكل ما يشغلك، دون أن تزيد.. فإنك كثيراً ما تبالغ..

واتجه نحو مكتبه وجلس أمامه...

فطفق محسن يقص عليه ما كان بينه وبين جده في مسألة زواجه، وأنه لما يزل متمسكاً بتحقيق أمنية «جد العائلة الأكبر» وكيف العمل وليس هناك وجه شبه بين فتاته، وبين من يريدها جده له.

وكان يتكلم والقلق باد على وجهه، والحيرة تملأ نفسه، وممدوح ينظر إليه بدهش.

وما انتهى من أقواله حتى قال ممدوح هازئاً:

- هيه.. ثم ماذا يا محسن؟ واللّه إنني لفي عجب من أمرك ولا أدري أجدك الذي سيتزوج أم أنت؟

- طبعاً أنا ولكن جدي..

فقاطعه ممدوح قائلاً:

- يا أخي لا عليك من جدك الأكبر والأصغر ما دمت أنت الذي سيتزوج وأنت الذي قد اخترت.

openkanadi.com

فاستطرد محسن قائلاً:

- لكن جدي كان قد وعدني بتنازله عن أملاكه بالقاهرة التي ورثها عن جدتي إذا أنا تزوجت من توافقه.

فقال ممدوح متسائلاً:

- أويهمك الحصول على أملاك جدك؟

- ما كان يهمني ذلك لو لم أكن قد جعلتها من أملاكي وأنا أقدم مؤهلاتي لزينات هانم.

فاكتست ملامح ممدوح بأمارات الجد، على غير عادته.. وأطرق برهة ثم نظر إليه متسائلاً:

- أوَتعمل بمشورتي؟

- لهذا جئت إليك.

- هذا حسن.. وهل تستطيع أن تتقن خداع جدك بالقول؟

- أستطيع لو علمت ما أخدعه به.

- حسن أيضاً، ولم يبق إلا أمر واحد.

- وما هو؟

- هل حدثت جدك بشيء عن والدتها؟

- مطلقاً.

obeikandl.com

- إذن فالأمر سهل والحل ميسور.

فلمعت عينا محسن ببريق الأمل وقال في لهفة:

- ماذا ترى؟

- لا شيء أكثر من أن تقدم خطيبتك إلى جدك على أنها ابنة (شاكر باشا التركي) فقط، ذلك التقي البعيد عن كل شبهة، وقد نسيت أن أخبرك بأن قليلاً من الناس هم الذين يعرفون أنه زوج لزينات هانم، وإياك أن تذكر له اسمها، أو تصف له خطيبتك على حقيقتها. قل له إنها ليست من بنات اليوم المتبرجات.

وكان يتكلم بإخلاص كمن يهمه نجاح خطته، ومحسن مرتاح لكل ما يقول.

وقبل خروج محسن رأى ممدوح أن يخبره بما كان يقلق نفسه قبل حضوره وهو خبر نقله الذي فوجئ به اليوم إلى ميناء السويس ابتداء من الغد.

فوقع هذا الخبر على نفس محسن وقعاً أليماً وتكدر لفراق صديقه. ثم كان وداع حار بينهما، خرج محسن على أثره إلى مكتبه، وظل هناك يفكر فيما سيخادع به جده حتى انتهى ميعاد عمله ورجع إلى منزله.

قال الجد في بشر وقد شاع السرور على وجهه:

- ماذا تقول يا محسن؟ ابنة الحاج (شاكر باشا التركي) وهذه صفاتها، وأخلاقها؟

فلبس محسن ثوب الخداع وقال:

- نعم يا جدي. وهذا ما دفعني إلى الزواج منها.

- إنه رجل تقي يا بني، وله تاريخ مجيد، أفضى به إلي أحد رفقائي أثناء تأدية فريضة الحج؛ فنعم النسب يا ولدي.

ولم يكن يبدو على محسن أنه كاذب أو مخادع، فلم يرتب الجد في أقواله، ووافق على زواجه، ووعد بتحويل أملاكه إليه وكانت خالته معه ففرحت ودعت له بالتوفيق.

obeikandi.com

## ١٠

حثت الأيام خطاها ومضى أكثر من شهر على تلك الحوادث كانت إصلاح خلاله قائمة على العهد الذي قطعته على نفسها، فكانت لا تحضر من حفلات والدتها سوى بعض ما كان يقام منها في المنزل، أما الحفلات الخارجية الماجنة، فكانت لا تُرى فيها، ولا تذهب إليها، وكانت تقضي معظم أوقات هذه الحفلات في جمعيتها نهاراً، وفي مشاهدة نوع من الروايات الأدبية (تمثيلية، وسينمائية) بصحبة أخيها حسين وخطيبته ليلاً، وقد تركت مسألة زواجها بمحسن لمشيئة اللّه، ولم تعد تفكر في ذلك.

أما محسن فقد كان طوال هذه المدة - يمني النفس بالآمال السعيدة والأماني الحلوة التي كان يصورها له خياله عن فتاته العصرية، كان يراها مثله خارجة على التقاليد التي خرج عليها بتعلمه في الخارج؛ فيشكر تلك المصادفات التي ستجمع بين روحين خلقتا من معدن واحد، وكان يتخيلها وهي تتصدر موائد حفلات شرابه ومجالس أنسه؛ فيطير فرحاً بما سيغمره من إعجاب أصدقائه وفخرهم بزوجته الأرستقراطية الحسناء، وكان بين هذا وذاك

يعد الأيام يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، في شوق ولوعة حتى جاء اليوم المحدد بينه وبين زينات هانم في الحفلة لمقابلة الباشا والد خطيبته.

وفي ذلك اليوم ارتدى محسن أفخر ثيابه، ورجل شعره وطيبه بالعطور، وخرج بسيارته يقودها بسرعة إلى قصر خطيبته.

وقبل وصوله كانت زينات هانم قد رتبت كل شيء مع الباشا، كما كانت قد انتهت من إرغام إصلاح على قبول محسن زوجاً لها، وعندما وصل استقبلته زينات هانم بالبشر والترحاب وقدمته إلى عروسه وإلى إخوتها جميعاً.

وكانت إصلاح ترتدي ثوباً أنيقاً في غاية الإبداع، بدت فيه بارعة الحسن، هيفاء القد، على ما فيه من مظهر الحشمة، ورونق الكمال.

فلما رآها محسن اهتز قلبه وخفق فؤاده، وقدم إليها خاتماً من الماس الثمين. بعد أن طبع على يدها قبلة أودعها عاطفته وحبه.

ثم قادته زينات هانم إلى حجرة نوم الباشا وكان مريضاً، منذ عودته أول أمس من ضيعته وأشار عليه طبيب الأسرة بملازمة الفراش.

دخل محسن إلى حجرة مفروشة بأفخر الأثاث، وكان الباشا مستلقياً على سريره، نصف راقد، وقد لف

حول جسمه دثاراً خفيفاً. وبجوار سريره نضد مصحف كبير، وبعض زجاجات الدواء وإناء الزهور.. فلقيه الباشا ببشاشة وترحاب.. ثم اتخذ مجلسه على طرف أريكة كبيرة منجدة بالحرير كانت بالقرب من السرير مواجهاً لإصلاح، وجلست بجانبه زينات هانم وحولهما بقية الإخوة.

وبدأ يتكلم؛ فأظهر اهتماماً بصحة الباشا.. وتأثراً لمرضه.. وتمنياً له بعاجل الشفاء ثم فترت حماسة المجاملة وتحمست الرغبة في التحدث إلى خطيبته فأخذ يجيب عن كل ما كان يوجه إليه من الأسئلة برقة وبلهجة هي خليط من (العربية والفرنسية).

وكان كلما تكلم نظر إلى إصلاح موجهاً إليها الحديث.

وفي هذه الجلسة أعلنت الخطبة الرسمية، وتم الاتفاق.

وفي أثناء ذلك لاحظ محسن أن الوالد يريد أن يؤخر الزفاف إلى ما بعد زفاف الأخت الكبرى سوزان.

فراح محسن يلح، ويكثر من طلب الإسراع فيه.

لهذا لم تطل الخطبة الرسمية أكثر من أسبوعين، تم فيهما إعداد الجهاز الذي بولغ في كثرته وفخامته، وكان الباشا قد أهدى ابنته (فيلا فخمة) بضاحية

مصر الجديدة بمناسبة زفافها، ولكن لم يتم فرشها إلا بعد الزفاف.

* * *

هذه ليلة الزفاف، فهيا لنرى ما جرى فيها.

تهيأ قصر زينات هانم، وازدانت واجهاته بالمصابيح الكهربائية المختلفة الألوان والأحجام، وأضيء من الداخل والخارج بأنوار أحالت الليل إلى نهار، وازدحم الشارع بالسيارات التي أتت بالمدعوين والمدعوات ولبى الدعوة كثير من سيدات الطبقة الراقية ورجالها. والكل بملابس السهرة الأنيقة.

وكان اهتمام زينات هانم بهذه الحفلة عظيماً. فأصرت على أن يحيي الحفلة أشهر المغنين والمغنيات والراقصات.

ولما كان الطرب سيستمر حتى ساعة متأخرة من الليل فقد كان هناك مقصف فاخر، حوى ما لذ وطاب من المآكل والمشارب.

وفوق هذا كنت ترى (الكوشة) البديعة المخصصة لجلوس العروسين وقد زينت بالأنوار الكهربائية وأحيطت بسلال الورود الفاخرة.. ثم أقبلت العروس الحسناء بقدها الممشوق في ثوب العرس الذي أبت إلا أن يكون جامعاً للأناقة والحشمة، تخطر بين حشد من لداتها

حتى تصل إلى تلك الكوشة الرائعة وتجلس على أحد مقعديها بعد أن تناثرت النقود على المدعوين.

والحق أنها كانت ليلة زفاف رائعة جمعت أفخم ما يعمل في الحفلات الشرقية والغربية.

ومع هذا كله فإن إصلاح لم تكن راضية عن كثير مما عمل في تلك الليلة.. ولو سمعت حديث نفسها لألفيتها تقول:

(ما أحوج الفقير إلى ما أنفق هذه الليلة في القصف والطرب).

* * *

كان كل هذا الجمال يتلألأ في الطابق الأعلى الذي ضاق بالمدعوين على كثرة غرفه، وسعة ردهاته وشرفاته، على حين كان (شاكر باشا) وقد تحامل على مرضه ليحضر عقد القران يجلس في الطابق الأول مع نفر قليل من الفضلاء الذين لا يندمجون فيما يعمل في هذه الحفلات.

وتم العقد، فصعد محسن إلى الطابق الأعلى وكان يرتدي (حلة العرس الأنيقة) فتحولت الأنظار إليه في لهفة وشوق شديدين لأن معظم الموجودين كانوا لا يعرفونه.

وكانت لحظة سعيدة تلك التي اتخذ فيها محسن مجلسه في (الكوشة) بجوار (عروسه) بعد أن قبل

يدها ولف حول معصمها (سواراً) من الماس الثمين وراحا يتقبلان تهاني المدعوين. وبعد هنيهة وزعت علب الملبس الفاخرة والشراب النادر والمرطبات.

وبينما الجميع في هرج وسرور، إذا بهم يصمتون فجأة، وإذا بالأنظار تتجه إلى جهة واحدة ثم تتحول نحو (العروسين)!

فقد صعد شاكر باشا والد العروس معه (الأستاذ الأكبر) جد العريس.

وكان للجد في الواقع هيئة جليلة حولت الأنظار إليه، إذ كانت عليه مهابة الأتقياء العظماء، وعلى رأسه عمامة مرتفعة قليلاً زادته هيبة وجلالاً.

وحينما رآهما (العروسان) وقفا احتراماً لهما وقبلا يديهما وتقبلا تهانيهما.

رأى الجد عروس حفيده، ورأى ما يحيط بها من الرجال والسيدات العاريات؛ فتجهم وجهه، ثم شاهد هذا الحفل الذي جمع بين المنكر والمعصية فتملكه الأسى، ولاحظ تلك الخلاعة الواضحة، والفسق المكشوف، فهبت في نفسه ثورة صامتة، وأيقن أن عروس حفيده من فتيات اليوم المتفرنجات وأنها من النوع الذي كان يتمنى أن يباعد بين حفيده وبينها ما بعدت السموات عن الأرض. وأن تفارقه الحياة قبل أن تنضم إلى أسرته الشريفة هذه (العروس) الخليعة.

obeikandi.com

واعتقد أن حفيده خدعه، وأنه أخطأ في حكمه على شاكر باشا.

وكانت لحظة غريبة عندما تقدم (الجد) إلى الباشا معتذراً بعدم تعوده المكث كثيراً في مثل هذه الحفلات.

وما لبث أن غادر الحفل ساخطاً على حفيده؛ عازماً على مقاطعته بسبب هذا الزواج، وبسبب خداعه إياه حتى استولى على ماله.

وطبعاً لم يلحظ (العروسان) ولا أحد من أفراد الأسرة شيئاً عن غضب الجد، ولم يخطر لهم على بال، إذ كان الكل في شاغل بذاك الفرح.

ولقد أثر سهر تلك الليلة في صحة الباشا فزاد مرضه ونصحه الأطباء بالسفر إلى الإسكندرية دون غيرها من مدن (الاصطياف الأوربية) لعدم تحمل شيخوخته للأسفار البعيدة، وبعيداً عن الحر الذي لا يلائم صحته في القاهرة.

وأقام العروسان في القصر بضعة أيام قبل سفر الأسرة، كانا في أثنائها يفكران في المكان الذي سيمضيان فيه (شهر العسل).

وتمكنت إصلاح وقتئذ من قلب زوجها وزاد حبه لها، فترك لها حرية اختيار ذلك المكان، وبالرغم من عدم ميله إلى الريف فإنه وافقها على قضاء شهر العسل بضيعة والدها الكبيرة دون معارضة منه.

obeikandl.com

كانت هذه الضيعة بالوجه البحري، وكان بها (فيلا) عظيمة مبنية على أحدث طراز، ومفروشة بأفخر الأثاث، وبها طاه وخدم مقيمون دائمون، وكان بها (حديقة واسعة) نائية عن المزارع والحقول، يجد المقيم بها كل راحة ولا ينقصه شيء من الضروريات والكماليات.

ومع ذلك فإن زينات هانم لم يرقها هذا الرأي وحرضت محسناً على أن يحمل زوجته على الاصطياف بإحدى المدن الخارجية أو أي مصيف خلاف الريف.

بيد أن (العريس) كان لا يخالف (لعروسه) رأياً ولا يرفض لها طلباً مهما كان نوعه، وفوق ذلك كان يعتقد يقيناً بأن زوجه لم تقصد من وراء اختيارها هذا المكان إلا أن ينعما بحبهما في عزلة خلوية.

على أنه لو استمع إلى دخيلة نفسها، لعرف أنها لم تفضل هذا المكان إلا ليبتعدا عن المصايف التي تدفع بهما إلى المعاصي، ولتعوده ترك أماكن اللهو الفاسد.

وقبيل سفر الأسرة بيوم واحد، انفرد محسن بعروسه في شرفة حجرتهما الخاصة، وكان يوماً مشرقاً جميلاً هب نسيمه وصفت سماؤه، وهناك حول مائدة صغيرة عليها ما لذ وطاب من مأكولات الصباح جلسا يأكلان ويتحدثان عن رحلتهما القادمة، وكان محسن

بتلك الخلوة أسعد إنسان، كل ما حوله يرقص، والطيور تغرد صادحة تبارك هذه السعادة.

وفي تلك الجلسة تناول حديثهما تدبير شؤونهما الخاصة في حياتهما الزوجية.

وخلال حديثهما أحصت إصلاح ما جمعته من أموال بمناسبة زفافها، وما كان مدخراً لديها قبل الزفاف، وأضافت إليه مهرها الذي رأى والدها أن يكون لها خاصة، فوجدت ذلك بضعة آلاف من الجنيهات، صمم محسن على إيداعها أحد المصارف باسمها.

ولم تغفل إصلاح في تلك الجلسة الممتعة عن حث زوجها على زيارة أسرته قبل سفرهما، إذ كان قد مضى أكثر من أسبوع دون أن يعرفا عن جده وخالته شيئاً.

* * *

وقبل أن تغرب شمس هذا اليوم خرج محسن قاصداً منزل أسرته، ولكنه لم يجد خالته ولا مربيته عسرانة، وفتح له الباب أحد الخدم وكان جده ملازماً فراشه منذ ليلة الزفاف.

وفي أثناء دخوله سمع أنفاس جده وجذب أنينه انتباهه فأسرع الخطا إلى حيث يرقد جده.

وفي لهفة مال عليه ليقبل يده.. ولكن الجد أنكره، وبدا على وجهه نوع من الكآبة ولم يتفوه بكلمة.

obeikandi.com

وأحس محسن مرارة الخجل لهذا اللقاء غير المنتظر، فوقف حائراً أمام السرير، وساد بينهما صمت، قطعه محسن قائلاً:

- ما بال (جدي) ملازماً الفراش؟

-....

- أمريض أنت يا (جدي)؟.. ومتى كان ذلك؟

-.....

ولما لم يسمع منه جواباً كاد يغص بريقه.. واعترته دهشة قاسية لما رآه من صمته المحرج وتملكته رغبة شديدة في أن يعرف دخيلة نفس جده وسبب ذلك الإعراض فاستطرد قائلاً، وقد تسمرت قدماه:

- لقد جئت اليوم يا جدي لأسلم عليك، فقد عزمت على السفر أنا وزوجي إلى....

وطرق سمع الجد كلمة (زوجه) فخرج عن صمته وتحرك لسانه مقاطعاً:

- لا أريد منك كلاماً، ولا أحب أن أرى لك وجهاً بعد الآن. وحسبي ما رأيته بعيني ليلة زفافك، وما خدعتني به وبمن ضممتها إلى أسرتنا الشريفة.

وكان في حال من الغضب والتأثر دفعته إلى أن يقول في انفعال وهو يشير بيده:

- اخرج فلست بجدك؛ ولا أنت حفيدي، وكفاني ما أصابني في صحتي بسبب خداعك إياي.

وفهم محسن سبب غضب جده ومرضه، فلم يأبه بما أصابه وتراقصت خيالات السعادة أمام عينيه، شهر العسل.. زوجته الحبيبة.. سفره مساء الغد.. فلم ينتظر حتى تهدأ نفس جده، بل خرج تواً، غير عابئ بغضبه ولا بمرضه.

وسرعان ما رجع إلى القصر وهو لا يفكر إلا في حياته الجديدة وزوجته المحبوبة، وما يهمه أن تهجره أسرته الرجعية وحسبه زوجته العصرية، وما أخذه من جده من الأملاك.

وهناك أخبر زوجه بأن جده وخالته بخير دون أن يزيد.

وفي مساء اليوم الثاني كان القصر قد خلا إلا من بعض الخدم.. حيث سافرت الأسرة إلى مصيفها وسافر العروسان إلى الريف.

وهكذا ودعت إصلاح حياتها الأولى.. حياة الأسرة لتستقبل حياتها الثانية.. حياة الزوجية الجديدة.

obeikandl.com

# ١١

انتقلت إصلاح من بيتها الأول الذي نشأت فيه إلى عش الزوجية حيث تكوين أسرة جديدة.. ومسؤولية لم تكن واجبة عليها من قبل.. فلما تم نصف دينها بسبب هذا الزواج.. ولم يبق أمامها سوى النصف الذي تتمه تقوى اللّه.. بدأت أفكارها وأحاسيسها تتجه اتجاهاً جديداً.. وبدافع من هذا الاتجاه الجديد.. راحت تفكر فيما كلفته المرأة من الأعمال في حياتها بعد الزواج. فوجدت نفسها أمام واجبات ثلاثة: (ربها وزوجها والناس).

ولو سألتها لماذا أضافت مسؤولية القيام بواجبات زوجها إلى ما كانت تقوم به من قبل نحو اللّه والناس. لقالت:

- لأن الرسول ﷺ يقول:

«إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت».

وهكذا تجدها في جميع أطوار حياتها، تراعي حدود ما أمر اللّه ورسوله..

obeikandl.com

وقد يخيل إليك أن هذه الزوجة التي عاهدت نفسها على أن تقوم بواجبها نحو زوجها لا بد أن تكون سعيدة بهذا (الزوج الغني الجميل) أو أن تكون قد تجاوزت عما فيه من الصفات التي كانت لا ترضيها، بعد أن رأت منه الكثير من الحب نحوها، والتفاني في مرضاتها.

والحق أن فتاة غيرها لا تتمنى في زوجها أكثر من هذه الصفات لكي تعيش في سعادة وهدوء بال.

لكن إصلاح مع كل هذا لم تكن سعيدة في بدء حياتها الزوجية، ولم تكن هادئة البال، بل كانت مبلبلة الخاطر مرهقة الفكر حيرى.

ترى ماذا كان يشغل هذا العقل الرشيد؟ وماذا كان ينقصها من سعادة؟

إن السعادة التي كانت تنقصها قلما تفكر فيها أية فتاة أخرى أو تجعلها سبباً لهدم هناءتها.

بيد أن إصلاح كانت ترى أن السعادة الحقيقية بين الزوجين ليست هي التي يكون الحب فيها مؤسساً على الافتتان بالجمال، أو المال والجاه. ولا يمكن أن تكون بين قلب سليم وقلب مريض سقيم، وإنما هي التي يؤسس الحب فيها على الاحترام المتبادل ويربط بين روحين طاهرين، متحابين في الله، مطيعين لأمره.

هكذا استحوذت عليها هذه العقيدة واستقرت في نفسها، فقضت الأيام الثلاثة الأولى في الريف، وهي تشعر بتلك السعادة التي كان يشعر بها محسن؛ وذلك لأنها كانت تريد أن يكون حبهما في اللّه، وأن ترى زوجها يؤدي الصلاة، فلا يشغله حبه عن طاعة ربه، ولا تمتعه بنعيم الحياة عن أداء فرائض اللّه؛ إذ كانت توقن بأن (تارك الصلاة ملعون، وجاره إن رضي به ملعون) وكانت بهذا تخشى على نفسها غضب اللّه ولعنته.

* * *

وجاء اليوم الرابع.. فخلت إصلاح بنفسها وراحت تفكر في حياتها الماضية والحاضرة، قائلة لنفسها:

- كنت أريد (زوجاً صالحاً) ليكون لي عوناً على خوض غمار تلك الحياة الفانية بسلام! لكني لم أوفق... هكذا الدنيا.. من سعد فيها بنفسه شقي فيها بغيره.

وعادت إلى ذكرى الليلة التي أرغمتها والدتها على قبول محسن زوجاً؛ فتابعت:

- لقد أرادت والدتي أن تسعدني فأشقتني... عفا اللّه عنها. ما كانت تقصد إلا مصلحتي.

واستمرت في هواجسها وآلامها حتى طرق ذهنها

الحديث الشريف: «لأن يهدي اللّه بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم».

وسرعان ما عزمت على الأخذ بهذا الحديث والعمل على هدي زوجها في بدء حياتهما الزوجية.

غير أنها عادت فأصغت إلى عقلها الذي أوعز إليها أن مثل هذا الزوج الذي اعتاد حياة اللهو والمجون في الخارج، ونشأ على ترك الدين وحب أعدائه، من المحال أن ينتصح بنصحها وأن ينصاع لإرشادها إذا هاجمته بالدعوة إلى تأدية فرائض الدين واتباع أوامره. وأن الأصوب هو أن تنتظر حتى يألف ترك المعاصي شيئاً فشيئاً تأخذه بعد ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة. عندما صممت على هذا الجهاد في سبيل اللّه شعرت بقبس من نور السعادة يتألق في قرار قلبها، وتبدل ما كانت تحسه من قلق ووساوس وعادت إليها الطمأنينة وهدوء البال.

وفي مدة إقامتها في الريف راحت تعمل بما عاهدت نفسها عليه نحو (اللّه، وزوجها، والناس).

فاهتمت بشؤون فلاحي الضيعة وما جاورها من القرى، واستجابت إلى مطالبهم ورغباتهم، وفاض حنانها وبرها هناك، فأمدت فقراءهم بالمال والكساء.

وكان قد حان ميعاد إخراج زكاة ما لديها من المال

المدخر قبل زفافها، فلم تغفل عن إخراج القدر المفروض عليها.

ولو كنت من المقيمين في تلك الضيعة وشاهدتها وهي تشرف على إخراج زكاة (مواشيها وزروعها) لرغبت أن تكون كهذه النفس السخية سماحة وكرماً.

على أن الذي يبعث على التقدير والإعجاب، هو أن قيام هذه الفتاة بتلك الأعمال الجليلة فوق ما كانت تقوم به من صلاة وعبادة، ما كان ليشغلها عما تطلبه حياة الأسرة السعيدة، وجعل (عش الزوجية) مبعثاً للهناءة والسرور.

فكنت تراها تقضي معظم أوقات فراغها في اللعب مع زوجها بكل ما كانا يجيدانه من ألعاب الكرة المختلفة في (حديقة الفيلا) الواسعة. وكانا أحياناً يلعبان (الشطرنج) وبعض أدوات (اللهو المباح) داخل المنزل.

وكثيراً ما كانا يقضيان شطراً من النهار في صيد السمك والبط وغيرها من الطيور هناك. حتى إذا ما انبلج الصباح أسرع كل منهما إلى اعتلاء صهوة جواده ثم ينطلقان بهما بين المزارع النائية والحدائق الواسعة يتسابقان في سرور. وكانت إصلاح تبدي من ضروب الفروسية وسرعة القفز، ما يجعلها تفوز على زوجها ويزيد إعجابه بها.

وقد تعجب لتلك الأعمال العصرية وضروب التسلية التي كانت تمارسها مع زوجها وهي المتدينة التي آثرت رضاء الله والعمل بأوامره.

ولكنك إذا علمت أنها كانت تعلم يقيناً أن الله لم يحرم على عباده التمتع فيما خلق من جمال وإبداع، وتثق أنه تعالى ما حرم إلا ما صنع الشيطان من الملاهي المحرمة، والملذات الآثمة، لزال عجبك؛ وأيقنت أن أعمالها كلها لم تكن إلا عن فهم لأوامر الدين، ودراية تامة بتعاليمه الصحيحة، وأن هذه المتع التي تتمتع بها لم تكن في الواقع سوى اتباع لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢/٧].

غير أنها كانت تراعي أن تكون هذه الأعمال بعيدة عن أعين الرجال، فكانت تتخذ الأماكن النائية لهذا الغرض.

* * *

وتلاحقت الأيام، وانتهى شهر العسل.

وكان محسن خلاله يرى زوجته تقوم بهذه الأعمال العصرية والألعاب المسلية، فيطير فرحاً بها، وكانت هذه المسليات ملهاة عظيمة له، أزالت ما في نفسه من مقت الريف، وأصبح يشعر وكأنه في أجمل مصايف

العالم. وطاب عيشه وسعدت حياته في الريف، فمد (شهر العسل) إلى شهرين قضاهما في تلك الضيعة الجميلة، منفرداً بزوجه المحبوبة دون أن يشعر بمرورهما.

وهكذا مرت الأيام السعيدة سراعاً، حتى إذا لم يبق من عطلة محسن الصيفية سوى بضعة أيام، عزما على السفر.

وفي ليلة السفر بات (العروسان) يستعرضان حياة الريف السعيدة ويذكران أيامه الجميلة.

وفي الصباح استيقظ العروسان مبكرين، وبعد أن تناولا طعام الإفطار ارتدت إصلاح ثوباً أنيقاً وحجبت رأسها بخمار أبيض ثم وضعت على كتفها رداء كحلي اللون يشبه المعطف الفضفاض (كاب)، بدت فيه أنيقة محتشمة.

وفرغت من ارتداء ملابسها، وكان محسن قد استعد للسفر فأتى إليها مسروراً وصاح في رفق قائلاً:

- هيا يا حبيبتي فقد جاءت السيارة.

وفي تلك اللحظة.. استرعى نظره ذلك الزي المحتشم الذي كانت ترتديه، فوقف مكانه مبهوتاً، ونظر إليها مدهوشاً، لأنه لم يرها بذلك المظهر من قبل، فقد كان مجيئها إلى تلك الضيعة بالسيارة في

المساء. وكانت ملابسها التي ترتديها حينذاك في غاية البساطة.

ترى ماذا كان يدور بخلده وقت ذاك؟

إنه لم يتصور (أن زوجه العصرية) ترتدي هذا الزي بغية الحجاب وهو يعلم أنها وأسرتها عنوان السفور ورمزه.

على أنه راح يفكر، ويفكر، وسرعان ما خطر له خاطر اطمأن إليه، ونفى به الشبهة عن زوجه إذ أيقن بأنها إنما ترتدي هذا الزي بحكم رئاستها لجمعية المسلمات المجاهدات، تلك الجمعية التي كان يعتقد بأن زوجته لم تنضم إليها إلا لتنال شرف الرياسة والظهور في المجتمع.

وعلى هذا الاعتقاد ركبا سيارتهما، وكان الخدم قد رتبوا الحقائب بها، ثم قادها بنفسه وألقيا تحية الوداع على ذلك الريف الجميل.

وقبل أن يشرع محسن في قيادة السيارة سلم ناظر الضيعة إلى محسن رسالة باسمه وكانت من زينات هانم، وفيها تدعوه وزوجه لقضاء بضعة أيام عندها (برمل الإسكندرية).

o p e i k a n d i . c o m

رمل الإسكندرية.. (ضاحية جميلة) هي ضاحية اللهو والمتعة، ضاحية الأحلام والاستجمام. يؤمها المترفون، وذوو المال، وطلاب الصحة وغيرهم من جميع أنحاء القطر. تغص فنادقها بالنزلاء، وتمتلئ شواطئها وتزدحم منازلها على كثرة أحيائها بالوافدين في فصل الصيف.

ومن الأحياء التي اشتهرت في تلك الضاحية بتردد مترفي القوم وقت ذاك (حي استانلي) الذي استأجرت زينات هانم في شاطئه إحدى (الكبائن الممتازة) بالطبقة العليا للاستراحة ولتقابل فيها الصديقات والأصدقاء، بعيداً عن زوجها المريض.

وكان بين الذين يترددون عليها في هذه (الكابينة) شخص حاز إعجابها ويعتبر أقرب المقربين إليها، هو «صفوت بك» الذي تم تعارفها عليه في إحدى حفلاتها الخيرية إثر تبرعه بمبلغ كبير... وأخذت صلتها به تزداد كلما زادت تبرعاته في حفلاتها المختلفة حتى أصبح من أخصائها المقربين.

وكان يفد إليها عادة كل أسبوع في الشاطئ فيقضي

معها يوماً أو بعض يوم، بين السباحة والنزهة، وكانت شديدة الحرص على انتظاره.

وفي يومنا هذا، جلست زينات هانم تنتظره في (شرفة الكابينة) وكانت مستلقية على أحد مقاعدها الطويلة بلباس البحر الحريري، تعرض جسمها لأشعة الشمس وتقرأ إحدى جرائد الصباح.

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى سمعت وقع أقدام تقترب منها، ظنتها أول الأمر أقدام ذلك الصديق... وفجأة وجدت نفسها أمام مفاجأة سارة بمقدم «اثنين عزيزين» فرحت لحضورهما وهللت عند رؤيتهما... فهل تعرف من هما؟

إنهما ابنتها إصلاح وزوجها محسن، جاءا تلبية للدعوة التي وصلتهما اليوم.

وما اقتربا منها حتى انكبا عليها، وراحا يقبلانها في شوق وتقبلهما في حنان. ثم أجلستهما بجانبها وبدأت الحديث قائلة:

- متى وصلت رسالتي إليكما.

فأجابا:

- اليوم ونحن نتأهب للسفر إلى القاهرة.

فحدجتهما بنظرة ذات مغزى وقالت:

- إلى القاهرة؟ يا لها من صراحة جريئة، إذن لولا رسالتي ما جئتما اليوم.

فقالت إصلاح معتذرة:

- إننا لا نكذبك يا أماه، ومعذرة عن تقصيرنا.

وسرها الاعتذار فابتسمت وقالت:

- على كل حال يسرني أن أرى دلائل الصحة تبدو عليكما.

فأسرع محسن قائلاً:

- حيا الله الريف، وحيا جمال الطبيعة، فلست أنكر فضل هذه الرحلة ولا أنسى أثرها ما حييت.

وغلبها مقت الريف، فحولت الحديث إلى مواضيع أخرى.

ومرت بثلاثتهم فترة طويلة، استفسرت إصلاح أثناءها عن والدها المريض وإخوتها.

ولم تلبث زينات هانم أن انفردت بالحديث مع محسن حول باريس وما رآه في شواطئ (فرنسة) مدة تعلمه هناك.

وعندئذ اقتربت إصلاح بمقعدها من (حافة الشرفة) وراحت تمد الطرف نحو البحر الذي طالما ضم موجه جسمها الرشيق، وداعب نسيمه شعرها الذهبي الجميل.

وكان البحر في ذلك اليوم هادئاً والشاطئ يعج بالمصطافات والمصطافين. وتجردت أجسام المستحمين إلا من ذلك اللباس العاري (المايوه). وأخذ البحر يداعب الحسان بموجه الخفيف.

وظلت إصلاح تنظر إلى البحر وقد سبح خيالها مع أمواجه وانطلق بها في قارب من ذكريات الضلال القديم، حتى ما كادت تحس من دونها شيئاً.

إنها تعجب كيف كانت تسمح لها نفسها بالاستحمام فيه مع الرجال والنساء عارية الجسم مجردة من الملابس.

وكيف كانت لا تستحي من الظهور بذاك اللباس المبتذل الذي لا يستر من جسدها العاري شيئاً.

ثم تسائل نفسها:

أين كان يذهب حيائي عندما أكون عارية على (البلاج) أمام الرجال؟.. ولماذا يعاودني إذا كنت في البيت مثلاً أو أمام الرجال أنفسهم في مكان غير الشاطئ؟

هكذا استمرت في عجب وأسف كأنما كانت تكفر عن الماضي بالندم والاستنكار.

وأخرجها من شرودها يد رقيقة حجبت عينيها وصوت ناعم مألوف يردد:

obeikandi.com

- يا لها من مفاجأة سارة يا إصلاح!

وكانت سوزان بلباس البحر الحريري ذي اللون الوردي الجذاب.

فتعانقت الأختان في شوق. وتبودلت القبلات في حنان، ثم تحولت سوزان إلى محسن وقد قام لتحيتها وقالت:

- صباح جميل ويوم سعيد.

وتصافحا في حرارة وتحادثت معهما في سرور بهذا اللقاء.

ولم يمض كثير واستأذنت سوزان من محسن وأخذت أختها لتذهب إلى مظلتهم القريبة من الماء.

وعندما غادرتا (الكابينة) هبطتا الدرج المؤدي إلى أرض الشاطئ، وهناك اتجهت الأختان نحو المظلة، وقالت سوزان في أثناء سيرها:

- لقد تقابلت أمس مصادفة مع إكرام في هذا الشاطئ.

فصاحت إصلاح في بشر:

- إكرام؟ يالشوقي إليها. أين تقيم؟

- إنها تبعد عنا قليلاً، وعلى كل سأرسل من يخبرها بنبأ حضورك، فقد أخبرتني بأنها في شوق إليك من يوم أن تعرفت عليك في (حفلة الأوبرج).

وكأن ذكرى الصديقة التي صادقتها على الحب في الله ذكرتها بصديقتها يسرية خطيبة أخيها، فلم تلبث أن سألتها عنها قائلة:

- لقد سمعت أن يسرية جاءت لتمضي بقية الصيف هنا، فأين تقيم؟

وكانتا قد وصلتا إلى المظلة؛ فأجابتها وهي تعد المقاعد لجلوسهما:

- إنها تقطن الآن مع والدتها منزلاً بحي (سيدي بشر) وهما تأتيان كثيراً لعيادة الوالد المريض.

وتحت المظلة جلست كل من الأختين على مقعد متجاورتين ووجهاهما إلى البحر.

وعند جلوسهما لحظت إصلاح آثاراً تدل على وجود أشخاص مع أختها فقالت متسائلة:

- لمن هذه الأشياء؟

فأجابتها في بساطة:

- إنها ملابس لبعض صديقاتي وإخوتهن، وهم الآن في الماء، وقد كنت في زورقهم وخرجت حينما رأيتك في (شرفة الكابينة).

فران على إصلاح صمت صحبه استنكار لما سمعته وجلست ساهمة.

obeikandi.com

وتمددت سوزان على المقعد الطويل الذي جلست عليه، ووضعت ساقاً فوق الأخرى، وعقدت يدها خلف رأسها، وحولت إلى البحر عينيها، وفي سرور وإعجاب راحت تقول لأختها متسائلة:

- ما رأيك في منظر البحر اليوم؟

فأنعمت إصلاح النظر فيه ملياً ثم قالت في إعجاب:

- إنه هادئ جميل.

- حقاً.. إنه مغر جذاب، وقد كان بالأمس هائجاً.. فهلا تفكرين في الاستحمام كما كنت في الماضي تفعلين؟

فأسبلت إصلاح جفنيها كمن تستعيد ذكرى ماضية ثم رفعتهما وقالت:

- أرجو ألا تذكريني في الماضي، عفا الله عنه وعافاني منه.

فقالت سوزان في ضيق:

- لنترك الاستحمام الآن.. ما رأيك في نزهة في القارب الصغير مع الرفقاء؟

- آسفة، ولا أستطيع ذلك أيضاً.

- عجباً! إنك لا تزالين على حالتك التي كانت قبل الزواج، وما كان ينبغي لك ذلك وأنت مع زوج عصري مثل محسن.

obeikandl.com

واستطردت قائلة:

- لشد ما أسفت عندما رأيت أختي التي كانت (فتاة البلاج) في الأعوام السابقة تدخله اليوم مرتدية هذا (الكاب الطويل) وذاك (الخمار) الذي لا يناسب الدخول فيه!

ولا أكتمك فقد خجلت عندما رأيت أصدقائي وصديقاتي يسخرون منك ونحن في البحر قبل أن يعرفوا علاقتي بك.

فصمتت إصلاح في أسف وتمتمت في نفسها:

- يسخرون مني؟ لشد ما عكست الأوضاع في هذه الأيام، لقد ألف الناس المنكر فأقروه، ورأوا المعروف منكراً فسخروا منه.

ونظرت إلى أختها وقالت:

- ما هذا الذي تقولين؟ وماذا في ذلك من عيب؟

ألم تسمعي من أستاذنا القول الحكيم:

«ما من امرأة تخلع خمارها في غير بيت زوجها إلا كشفت ما بينه وبين ربها».

لكنني أراك دائماً تبتعدين بنفسك عن طريق الخير وتوعزين إلى غيرك بالخوض في ظلمات الضلال.. ألا يكفيك ما أنت عليه الآن حتى أراك تحفلين بهذا

البلاج، وتحرمين الدخول فيه بالملابس التي تتناسب مع أوامر الله وتسخرين منها.

فقالت سوزان في إصرار وكأنها لم تسمع من كلام أختها إلا طرفه الأخير:

- بلا شك.. فإن لكل مكان زياً يناسبه.. وما دمنا داخل الشاطئ فيجب أن نتبع تقاليده ونرتدي ملابسه المناسبة له.

- حتى ولو كانت هذه الملابس تخالف أوامر ديننا وتعاليمه؟ أليس الله الذي يراني خارج الشاطئ يراني أيضاً داخله؟

- هذا شيء أصبح لا يفكر فيه أحد.

- من أجل ذلك أراك باقية على ارتداء هذا اللباس الفاضح في جرأة ومباهاة رغم الذي كنت تسمعينه في بعض دروس الدين عن لباس المرأة وما يجب ستره من جسمها، وما يجب ظهوره.

- لقد سبق أن قلت لك ولأستاذك أننا في عصر يحتم علينا مجاراة التقاليد العصرية والأخذ بأقوال العصريين. وهكذا تجدينني لا أحرم نفسي من متع الحياة كما تحرمين؟

فأشفقت إصلاح لما رأته على أختها من التمسك بأهداب الضلال. وذاب قلبها أسى وحسرة وأطرقت

لحظة صامتة، سمعت خلالها هاتفاً يذكرها بالحديث الشريف:

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

فرأت أن ترشد أختها بلسان الحق، لعلها تعود بها إلى الصواب أو تتركها دون سخرية وانتقاد.. وعندئذ اقتربت منها قائلة:

- اسمعي يا سوزان، لا تظني أنني أحرم نفسي من متع الحياة كما تقولين. لكني أنقذها من العذاب الأليم.

فهيا نتفاهم بصراحة تحت ضوء العقل والحق من أجل هذا الذي تسخرين منه أنت وصديقاتك، ومن أجل الذي تلبسن، وأنا على استعداد للنزول على رأيك إذا كنت مخطئة وأنت محقة.

فلما أجابت بالموافقة قالت إصلاح:

- أنت تقولين أن الناس قالت هذا، والعصر يحتم ذاك.. وأنا أقول إن الرسول قال حديثاً، حرم فيه على المرأة دخول الحمام الخارج عن بيتها، ورخص به للرجال بالميازر، وليس بذلك اللباس الذي نراه عليهم. وقال في حديث آخر:

«أيما امرأة تنزع ثيابها في غير بيتها خرق الله عنها ستراً».

obeikandi.com

وإذن فالحمام مباح للرجال فقط بشرط التستر وغض البصر. ومحرم على النساء لأن أمرهن مبني على المبالغة في التستر.

فأيهما تتبعين؟ وعن أيهما تأخذين؟

فقالت هروباً من الاعتراف بالحق:

- لكن الناس قد اعتادوا أن يتماشوا مع ما أجمع عليه الرأي وأنا مع الأغلبية.

فقالت إصلاح مخالفة:

- لا.. لا.. هذه نظرية لا يؤخذ بها إلا في الأعمال الصادرة عن عقل فقط، أما وللإنسان خلاف العقل؛ هوى يفسده، وشيطان يضله، فكثيراً ما يجتمع الناس على ضلال لاتباعهم هوى نفوسهم، فيقعون في معصية الله ويحسبون أنهم على حق.

فهل أنت والأغلبية الآن على حق؟ أم الله الذي خلقهم وخلق الحق وأمر به - والباطل ونهى عنه - ومن أولى بالاتباع؟ الحق أم الباطل؟ المخلوق أم الخالق؟

وهنا وجدت سوزان نفسها مضطرة إلى الاعتراف بالحق فقالت:

- الخالق ليس في ذلك شك. ولكن..

obeikandl.com

فقاطعتها إصلاح قائلة:

- يكفي هذا الاعتراف.. ولعلي أجد من إقناعك تفضيلاً لما أنا عليه الآن. وتتركين لي حرية الدخول في شواطئ (بلادنا الإسلامية) مرتدية ما أشاء من الملابس التي تناسب ديننا وتعاليمه دون خوف من لوم أحد.

وفي هذه اللحظة رأت سوزان زورق الرفقاء، وقد ظهر على بعد، فلعبت الأهواء بلبها.. وأطاحت بعقلها.. فلم تجب على أقوال أختها.. وأشارت إليهم.. وأشاروا إليها.

وأدركت إصلاح أنه لا فائدة من أقوالها لأختها فاكتفت بما في الحديث من استنكار بالقلب.. وقامت معتذرة بالذهاب مع زوجها لرؤية والدها المريض بالمنزل.

وألقت سوزان نفسها في أحضان الموج الضاحك. ووصلت إلى الرفقاء سابحة.

openkandi.com

## ١٣

أتت يسرية مع والدتها للاستفسار عن صحة الباشا المريض.

وكانت إصلاح وقتئذ تتناول الشاي في (جوسق) حديقة المنزل المواجهة للبحر.

وكانت تجلس على أحد المقاعد.. حول مائدة الشاي، وبجوارها سوزان.

وسمعت يسرية بوجود إصلاح في الحديقة فأسرعت إليها وقبلتها في لهفة، وتبودلت القبلات في شوق.

وعلى المقعد المواجه لها، جلست بالقرب منها وراحت تقول في بشر وسرور:

- مفاجأة سارة يا إصلاح.. متى جئت؟

- جئت في الصباح، وأرسلت الخادم إليك، لكنه لم يجدك.

- معذرة فقد كنت في زيارة صديقتي سنية، ومن الغريب أننا كنا نتحدث عنك اليوم.

- الأستاذة سنية.. يا لها من فتاة رشيدة! كيف حالها؟

- على أحسن حال، وهي لم تزل تشتغل بالمحاماة إلى الآن، ولها مكتب في القاهرة وقد سألتني عنك كثيراً، وأثنت عليك ثناء عاطراً أمام زميلة لي بكلية الآداب كانت في زيارتها اليوم.

وهنا قطعت سوزان عليهما الحديث قائلة ليسرية:

- لقد بلغني أنك رفضت الوظيفة الممتازة التي عرضت عليك بعد أن تخرجت في الكلية، فهل هذا صحيح؟

فاتجهت إليها يسرية وقالت:

- نعم صحيح، حيث أتفرغ للحياة الزوجية وشؤون البيت.

فعلت الدهشة وجه سوزان لما سمعته منها.. غير أنها عادت وتذكرت شدة استنكار أخيها حسين لاختلاط الفتيات والشبان في الجامعة والوظائف. وقالت:

- لرغبة أخي.. أليس كذلك.

- بلى.. ولما فهمته أخيراً من ظلم المرأة المسلمة بسبب مشاركتها للرجل في وظائفه الخاصة به.

فران على سوزان صمت أخذت خلاله تذكر كل ما كانت عليه يسرية أيام اشتراكها معها في جمعية «المجاهدات في سبيل الوطن» وقالت:

obeikandl.com

- ماذا تقولين يا يسرية؟ إنني ما كنت أنتظر منك سماع هذه الأفكار الرجعية، وقد كنت وأنت في «جمعيتنا» أول مطالبة بوجوب مساواة الجنسين في الأعمال ووجوب منح المرأة حق الانتخاب، والحقوق السياسية و....

فقاطعتها يسرية قائلة:

- كنت مخطئة حينما كنت أفعل ذلك. أما الآن فأرى أنه لا بد للرجال من تحمل هذه الأعباء الخارجية وحدهم؛ قياماً بواجبهم. وحماية للمرأة من ذلك الظلم الذي ستجره على بناتها وحفيداتها من بعدها أحقاباً طويلة.

فزاد دهش سوزان واشتدت رغبتها في معرفة الدافع لها على ذلك فقالت متسائلة:

- ومن أين جئت بهذه الأفكار المخطئة؟

ولم تنتظر الجواب ونظرت إلى إصلاح كمن اهتدت إلى ضالتها وقالت:

- آه... لقد عرفت المصدر، لا بد أنها إصلاح هي التي أوحت إليك بهذه الأفكار الرجعية! لكن لماذا؟ وقد كانت أسبق منك إلى المطالبة بهذه المساواة.

فتجاوزت إصلاح عن هذا التهكم ونطقت عيناها بما يؤكد ظنون أختها..

obeikandi.com

وبدا على سوزان اهتمام كبير بهذا الموضوع؛ وفي نبرة تحوي معاني التهكم والاستفهام قالت لأختها متسائلة:

- ترى ما الذي حدا بك إلى هذا الذي أوعزت به إلى يسرية؟ وهل لك أن تعرفينا أسباب هذا الاعتقاد.

فاقتربت إصلاح بمقعدها نحوها وقالت:

- لكي أروي لك الأسباب.. أرى أن تصغي إلي قليلاً دون سخرية أو مقاطعة أو تهكم.

فلما وجدت منها موافقة وإصغاء من يسرية قالت:

- لا أنكر أنني كنت أول المطالبات بوجوب مساواة الجنسين في جميع الأعمال التي يمارسها الرجل وحده، وذلك لأنني كنت أعتقد بأن المطالبة بهذه الأمور هي حق من حقوق المرأة لتحقيق ما قرره الإسلام من المساواة بين الجنسين.

ولكن عندما بدأت أدرس (الشريعة الإسلامية) دراسة حقة فهمت أن المساواة بين الجنسين التي جاء بها الإسلام لم يقصد منها المساواة بينهما في كل الأمور إطلاقاً؛ وإنما ساوى بينهما في بعض الأمور واختص كلًّا منهما بما يليق بطبيعته من الأعمال، فمن الأمور التي تقتضي المساواة: المعاملة، حيث قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٨].

بعد أن كانت المرأة قبل الإسلام منبوذة من الرجل مهملة.

وكذلك المساواة في التعليم حيث قال ﷺ: «العلم فريضة على كل مسلم».

وأيضاً المساواة في الدين، حيث فرض عليهما فرائض الصلاة والصوم والزكاة والحج.

أما الأعمال.. فنظراً لاتساع مرافق الحياة الدنيا وكثرة مطالبها، وانقسامها إلى بيئتين: داخلية (البيت) وخارجية، فقد اختص كلاً منهما بما يليق بطبيعته فيها.

ولما كانت طبيعة المرأة الأمومة، وكانت بحكم خلقتها أضعف من الرجل جسماً وعقلاً وأعصاباً، وبطبيعة أنوثتها رقيقة لا تتحمل أعباء الحياة الخارجية الشاقة وجسامة مسؤوليتها الخطيرة، كانت أعمال (البيت) بجانب واجباتها كزوجة وأم. وما تتبع الأمومة من تربية أطفال، وتعليم، وتمريض، وغيرها على كثرة مشقاتها، وعظم مسؤولياتها أنسب الاثنين لصيانة أنوثتها، وأليق لفطرتها، وكافية لمشاركة الرجل في النهوض بأمتها.

وكانت أعمال الدولة الخارجية، أنسب للرجل بطبيعة تكوينه بجانب واجباته نحو أبنائه ونحو المرأة من إنفاق، وإصلاح، وحماية، وغيرها..

وختمت حديثها بقولها:

هكذا جرت سنة العدل الإلهي.. وبهذا حكمت الشريعة الإسلامية، ويدلنا على ذلك أنه سبحانه وتعالى لم يرسل من النساء رسولة ولا نبية.

كما أن رسولنا الذي أنصفت شريعته النساء، لم يكلف المرأة مشاركة الرجل في القيام بأعباء الحكم وشؤون الدولة في عهده، ولا أوصى لها بذلك من بعد.

وعلى هذا أيقنت أن ما كنت أعتبره حقوقاً سياسية للمرأة، إن هو إلا عمل من الأعمال الخارجية الخاصة بالرجل، وليس على المرأة أن تقحم نفسها فيه، لما فيه لها من ظلم. ولما يجره عليها من خروج عن حدود ما أمر الله ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾.

واتجهت إلى أختها وقالت:

- أرأيت كم كنت محقة فيما أوعزت به إلى يسرية؟

وتراقصت دلائل النصر على وجه يسرية وقالت وهي تتناول فنجان الشاي:

- لهف نفسي على المرأة المسكينة، لقد ظلمت نفسها بأداء عملين، عملها الذي خلقت من أجله كأنثى، وعمل الرجل الذي شاركته فيه.

واتجهت إلى إصلاح وقالت:

obeikandi.com

- إصلاح.. ترى على من تقع تبعة ذلك الظلم؟ أعلى المرأة أم على الرجل؟

فأطرقت إصلاح لحظة ثم رفعت رأسها وأجابت قائلة:

- إنني أعتقد أن ظلم المرأة لنفسها جاء من جهلها بتعاليم الدين وعدم معرفتها بما لها من حقوق وما عليها من واجبات، إذ ترى في ذلك إنصافها ومساواتها بالرجال:

أما الرجال (آباء وأزواجاً، أو إخوة وأبناء) فإني أرى أنهم هم المسؤولون أمام الله عن نسائهم لعدم قيامهم بما كلفهم الله به في الآية الكريمة:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾.

إذ تركوهن يسعين على الرزق الذي كلفهم الله السعي عليه دونهن، ومنحوهن حرية الاختلاط المفسد بالرجال، دون أن يراعوا حق القوامة عليهن.

وألقت ببصرها من خلال أسوار الحديقة إلى الشارع وكان (طريق الكورنيش) يعج بالغادين والرائحين، من النساء والرجال.. هذا يسير مع تلك، وذاك يقدم زوجه إلى صديقه، وهناك ضحك يترامى إلى السمع من أفواه جماعة من الشبان والفتيات، فاستطردت مشيرة بأصبعها:

- انظري إلى هذا الرجل السائر بجانب هذه المرأة، إنه يبدو محتجباً لا يكاد يرى منه سوى وجهه ويديه.. أما هي فما يكاد يختفي من جسمها إلا القليل.. ثم انظري نحو ذاك الذي يقدم زوجته إلى صديقه ومعارفه وهي بتلك الملابس الخليعة. أليس في ذلك دليل قاطع على ما يقع على الرجل من تبعة ومسؤولية؟

ومع ذلك فالمرأة مسؤولة عن نفسها.

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [النحل: ١٦/١١١]..

وفجأة ظهر حسين وسامي بملابس البيت (البيجاما)، واتجه حسين نحو خطيبته يسرية مرحباً وجلس بجوارها، وجلس سامي بجانبه، وكانا قد سمعا طرفاً من حديث أختهما الأخير، فما لبث حسين أن اتجه إلى إصلاح مستأنفاً الحديث قائلاً:

أكنت تتكلمين على المرأة؟ ومن المسؤول عما وصلت إليه من التدهور الخلقي؟

فقالت يسرية وقد سرها اشتراك خطيبها معهن في الحديث:

- وماذا ترى أنت في ذلك؟

فاعتدل في جلسته ومرت بخواطره صور تهاون والده مع والدته فأجاب قائلاً:

- إنني أشارك إصلاح فيما قالته من تحمل الرجل مسؤولية ذلك كله، ولست ألوم المرأة في خروجها، وتبرجها، إلا إذا كنت ألوم الطائر إذا خرج من نافذة مفتوحة، أو الأجنبي إذا احتل بلداً ضعيفاً. فلو لم يسمح لهن الرجال بالخروج على غير ما شرع اللّٰه ما انتكسن هذا الانتكاس.

ونظر جهة البحر وكان لم يزل يعج بالمستحمين والمستحمات وتابع مشيراً:

- ولو وجدن من أولياء أمورهن من يقوِّم أخلاقهن، ويغار عليهن ويحافظ على شرفه وشرفهن، ما عرضن أجسامهن هذا العرض الرخيص على الشواطئ، وما سرن في الطرقات كاسيات عاريات، وما اختلطن بالرجال في الحفلات والمجتمعات.

وكان سامي قد بدأ يتناول الشاي والكعك وقد ظهر على وجهه نوع من التبرم بأقوال أخيه.. أخذ يعبر عنه بحركات مضحكة.

ولحظت ذلك يسرية فاتجهت إليه تطلب رأيه في إصرار... فلم يكد يرى منها هذا الإصرار حتى اعتدل في جلسته، وفي حركة مضحكة ازدرد ما في فمه عجلان مسرعاً وراح يقول:

- إنني أصدق أخي في كل ما قاله... غير أني أرى في هذه الأقوال ما يحرمنا من رؤية الجنس الناعم وسحره الفتان ويبعدنا عن سماع أحاديثهن العذبة.. وهذا ما لا أعتاده ولا يتحمله شخصي الضعيف أبداً، أبداً.

وكان يعبر عن أقواله بحركات مضحكة تحوي معاني الاستهتار وعدم المبالاة.

فضحكت الفتيات من حركاته، ونظر حسين إليه في استخفاف.

وجلجل في المذياع صوت المؤذن بصلاة المغرب فقام حسين وصلى إماماً وصلت خلفه خطيبته وأخته إصلاح، وشُغل سامي وسوزان بما أمامهما من الحلوى والفطائر.

وانتهت الصلاة، وأقبلت عنايات هانم لرؤية إصلاح، ومكثت معهم فترة ثم كان وداع حار بين الجميع.

obeikandi.com

## ١٤

وترامى إلى سمع إكرام وجود صديقتها إصلاح بالشاطئ في اليوم نفسه الذي حضرت فيه.

وسرعان ما ذهبت إليها في الكابينة، غير أنها لم تجد أحداً هناك. فقد كانت زينات هانم تسبح وقتئذ في البحر مع صفوت بك.

وفي عصر اليوم التالي قرع الجرس في منزل الأسرة، وحينما أقبل الخادم النوبي قالت الزائرة:

- لعل إصلاح هانم موجودة الآن؟

- موجودة يا سيدتي.

- أبلغها أن إكرام جاءت لزيارتها.

وما هي إلا هنيهة وجيزة حتى كانت إكرام تنتظر صديقتها في حجرة الاستقبال.

وجاءت إصلاح وعلى وجهها فرحة.. وفي شفتيها ابتسامة. وأسرعت إليها مرحبة، وفاضت عواطفهما، وانطلقت ألسنتهما تعبر عن شعورهما. وتفرع بهما الحديث في مواضيع مختلفة وراحتا تعيدان ذكريات عزيزة عليهما.

obeikandl.com

وبينما هما في الحديث أقبلت سوزان ومعها صديقة لها. وكانت كل منهما ترتدي ثوباً قصيراً لا يكاد يغطي أعلى الركبة وفي أتم زينة.

وعند دخولهما نهضت إكرام لتحيتهما. وأثناء جلوسهما أخذت سوزان في الاعتذار قائلة:

- معذرة إذ لم أسارع إليك.. فقد كنت..

فقاطعتها إكرام متممة في مزاح:

- لقد كنت مشغولة بأمور الجمعية وما بها من مشكلات. أليس كذلك؟

واتجهت إلى إصلاح وقالت:

- تصوري، ما تقابلت مع سوزان على الشاطئ مرة، إلا واعتذرت عن زيارتها لي بمشاكل جمعيتها.

فأشارت سوزان إلى صديقتها محتجة بها وقالت:

- ها هي ذي إحدى زميلاتي في الجمعية، اسأليها إن كنت لا تصدقينني.

فأسرعت الصديقة قائلة:

- الحق أننا في هذه الأيام نعالج مشكلة من أمهات المشكلات التي تهتم بها جمعيتنا، ولهذا تجدينني أنا وسوزان اليوم مجتمعتين هنا... وغداً عند صديقة، وبعده عند أخرى وهكذا حتى نعثر على مفتاح لتلك المشكلة الهامة.

فران على إكرام صمت ثم قالت:

obeikandi.com

- إذا كان الأمر كذلك فأنا على استعداد للعفو عن سوزان بشرط أن أعرف ما هي تلك المشكلة التي منعتها عن زيارتي.

فوافقت سوزان وقالت:

- إنها مشكلة تدور حول جلاء الأجانب عن أراضينا. وقد كنا نقرر الآن نشر الدعوة إلى مقاطعة البضائع الأجنبية... كخطوة هامة في سبيل استقلال بلادنا.

فصاحت إكرام متسائلة:

- مقاطعة البضائع الأجنبية؟

- أجل... وإني لأرجو رأيك في هذه المشكلة.

فبدا على إكرام عدم الموافقة وقالت:

- لست أعتقد أن هذه المقاطعة تأتي بالفائدة المرجوة ط...

فقاطعتها سوزان قائلة في دهشة:

- ماذا تقولين؟

- أقول إنني لا أرى فائدة من تلك المقاطعة، ما دام هناك أمر آخر أكثر رواجاً وأشد خطراً.

- لم أفهم! ماذا تقصدين؟

- أقصد أن مقاطعة التجارة المادية وحدها لا تكفي لتحقيق استقلال البلاد. أما التجارة التي يجب أن

يكسد سوقها، وأن يقاطعها كل وطني حريص على استقلال بلاده فهي (البدع الأجنبية والتقاليد الغربية المخالفة لأوامر ديننا وقوميتنا) التي تصدر إلينا مع كل فجر جديد.

فنظرت إليها سوزان دهشة وصاحت متسائلة:

- وما علاقة هذا باستقلال البلاد؟ إنهم لا يصدرونها إلا للفخر والمباهاة لا لشيء آخر.

فأجابتها في وثوق:

- لا تظني هذا.. فهناك أكثر من ذلك.

- عجباً.. وماذا عسى أن يكون؟

- إنني أعتقد أن وراء نشر تلك البدع فخاً منصوباً لاستعبادنا والقضاء على ديننا وقوميتنا. وما دمنا قد وصلنا إلى درجة عظيمة من الثقافة والتنور، فلا ينبغي لنا أن نغفل عن قطع دابر المستعمرين بمقاطعة بدعهم وتقاليدهم.

وكانت صديقة سوزان تستمع إلى حديثهما باهتمام، وكأنما تفتّح أمامها عالم مغلق.. فما انتهت إكرام من حديثها حتى صاحت في إكبار:

- يا لك من فتاة ذكية يا إكرام.. وإنه ليبدو لي الآن أننا قد اهتدينا إلى نوع من السلاح الذي يجب ألا نغفل عنه.

obeikandl.com

فنظرت سوزان إلى صديقتها نظرة ذات معنى، وقالت متحدية:

- ولكني لا أعتقد أن هذا الرأي من السهولة بحيث يمكن الأخذ به في هذا العصر.

فأسفت إكرام لهذا الاعتقاد وقالت:

- لماذا؟ أذلك لأن كثيراً ممن قذف بهم هذا التيار في لجه يخشون ألا يشار إليهم بالمدنية الكاذبة، فيسيرون وراء تلك التقاليد المضلة دون مراعاة لحدود دينهم وتقاليد بلادهم؟

على أنني لفي عجب من أن كثيراً من فتيات هذا العصر، يعتقدن أن من مظاهر المدنية، التفاخر بأنهن لا يعبأن بالدين؛ ولا يسرن على تعاليمه، ويتباهين بلبس الملابس القصيرة العارية في خروجهن جرياً وراء التقاليد الغربية ويسخرون ممن تخالف ذلك وتتبع أوامر الدين.

فأفلتت من سوزان ضحكة ساخرة فقد تذكرت ملابس أختها وهي على الشاطئ أمس وقالت:

- أذلك لكونك ترتدين الملابس الطويلة والخمار مثل إصلاح؟ ألا ترين أن هذا الشذوذ يعرضنا لسخرية الأجانب واستهزائهم.

فأجابت إكرام قائلة في حماس:

- لا يا أختاه.. فلست أرى ما ترين.. إنني أرى من

العار أن يدخل الزائر الأجنبي «بلادنا العربية» وبخاصة «مصر» قلب العروبة وحاضرة البلاد الإسلامية، فلا يمكنه أن يميز بين نسائها المسلمات وبين الأجنبيات، فيما يلبسن ويعملن، وهذه بلادهن وأوطانهن.

فبدا على الصديقة روح الاقتناع والموافقة، وقالت موجهة الحديث إلى سوزان:

- الحق أن هذا الرأي صائب.. يجب ألا نهمله، وبما أن الواجب يحتم علينا التضحية بالرغبات فمن الحتم أن نتخذ للخروج أزياء مناسبة لتقاليدنا وديننا؛ كي نتميز بها عن الأجانب وتكون رمزاً لقوميتنا وعنواناً لاستقلالنا.

وضحكت سوزان ضحكة تحمل كل معنى البغض والسخرية بهذه الأقوال. وران على إصلاح أسف شديد دفعها إلى التدخل في موضوعهن موجهة لأختها الحديث وقالت:

- إلى متى يا سوزان تسخرين من أوامر الدين وما تتطلبه تعاليمه؟

أرأيت إن عادت (موضة) ارتداء (الملابس الطويلة) من البلاد الأجنبية، ألا ترتدينها حينئذ وتصير لديك أجمل من هذه الملابس القصيرة؟ أما وقد جاء بها الدين من قبل فهي أضحوكة في نظرك، فهلا تخبرينني عن سبب اهتمامك بإخراج الأجانب وإجلائهم؟

فأجابتها في حماس:

- السبب واضح والأمر معلوم؛ وما ذلك إلا لكي نعيش أحراراً في بلادنا، غير عبيد ولا مستعمرين للأجانب.

فبدت الدهشة على إصلاح من تناقض أقوال أختها وقالت متسائلة:

- كيف تقولين ذلك، وأنت من لحظة كنت تنتقدين إكرام في اتباعها أوامر دينها وفي اتخاذها الزي القومي الذي يناسب أوامره خوفاً من سخرية الأجانب وانتقادهم، وأراك دائماً تفضلين محاكاتهم في ملابسهم الخليعة، وأعمالهم الشاذة! ألم تكن هذه عبودية لهم؟ وأليس هذا الانقياد يحقرنا في نظرهم. ويجعلهم ينظرون إلينا نظرة القوي إلى الضعيف، والسيد إلى المسود، والمتبوع إلى التابع؟

واتجهت إلى الباقيات واستطردت بصوت يعبر عن إخلاص وأسف:

- وإنني لواثقة كل الوثوق من أن ترك أوامر الدين والانقياد وراء البدع الفاسدة؛ لمن أهم الأسباب التي تسهل السبل لاحتلال البلاد.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١/١١٧].

وما انتهت من حديثها حتى صاحت الصديقة موافقة:

- قول حق، ومنطق حكيم.. وإنني لأعجب الآن كيف كنا نفكر في مقاطعة تلك التقاليد، أهم من مقاطعة البضائع نفسها، إذ إن معظم تجارة الأجانب مرتبط رواجها باتباع تقاليدهم وبدعهم.

وإلى هنا لم تطق سوزان صبراً على سماع مثل هذه الأقوال وخشيت على صديقتها من تأثير إصلاح عليها فأرادت أن تقلل من أهمية أعمال أختها وأقوالها فاتجهت إليها وقالت:

- إن من يسمعك يا إصلاح ليخيل إليه أنك بعيدة كل البعد عن محاكاة الأجانب وتقاليدهم مع أن الواقع غير ذلك؛ ولو وجهت إليك الآن بعض أسئلة أمام صديقتينا، لظهر لهما صدق ما أقول.

فبدت الدهشة على وجهي الصديقتين، ونظرتا إلى إصلاح التي أجابتها في هدوء:

- إنني على استعداد لكل ما تسألين!

وعندئذ قالت سوزان في تهكم:

- إذا كنت حقاً تحافظين على التقاليد الإسلامية دون سواها، فلم تظهرين بمظهر الغنى والثراء في ملبسك وأعمالك؟ ولا تظهرين بمظهر الزهد والتقشف.

وخيم الصمت، واستعادت قسمات إصلاح معاني الأسف لهذا الاعتقاد الذي يسيء إلى سمعة الإسلام، وقالت:

- لا يا أختاه.. إنه ليس من تعاليم ديننا الظهور بهذا المظهر الذي تتصورين!

ويجب أن تعتقدي أن ديننا بريء من هذه الصور البشعة التي يصورها أعداؤه والجاهلون بتعاليمه من قذارة ومظهر الفقر والبخل.. ويدلك على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام:

«إن الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده».

فلو أنك فهمت حقيقة هذا الدين، واهتممت بدراسة كتاب الله وسنة رسوله، لما وجهت إلي مثل هذا السؤال الشائن.

فصفقت الفتاتان علامة النصر ونظرتا إلى سوزان في تحد.

ولكنها أصرت على متابعة سؤالها بغيره.. فقالت متحدية:

- ما قولك في نظام المائدة الغربية، الذي تتبعينه؟ ولماذا تأكلين بالشوكة ولا تأكلين بيدك كما كان يأكل الرسول والصحابة الأولون؟ ألا يعد هذا انقياداً لأعمال الأجانب واتباعاً لتقاليدهم؟

خيم الصمت مرة أخرى، وأرهفت الأسماع وأرادت إصلاح أن تقنع أختها بمنطق البرهان فقالت:

- مهلاً يا سوزي.. إن أدوات الطعام التي نستعملها في هذا العصر، لو وجدت في عصر (رسول الإسلام) لاستعملها وأمر باستعمالها؛ لأنه عليه الصلاة والسلام، ما ترك من الأعمال إلا ما حرم اللّٰه، وما عمل إلا بما أمره به. أما مثل هذه الأشياء مما ليس فيها تحريم ولا تحليل، فليس في العمل بها ما ينافي ديننا، أو يعتبر تقليداً لغيرنا.

ونظرت إليهن، واستمرت تتابع:

ولقد جرت القاعدة الأصولية في الشرع على أن ما أمر به الرسول نأتي منه ما استطعنا، وما نهانا عنه يجب أن نجتنبه، وما سكت عنه فهو مباح ما لم يكن في العمل به ما يضر بمصلحة العباد أو ينافي تعاليم الدين.

واتجهت إلى سوزان وتابعت:

ولما كان في استعمال أدوات المائدة كثير من الفوائد الناتجة عن النظافة التي يأمر بها هذا الدين، كان لا بد لنا من استعمالها، طاعة لديننا وليس تقليداً لغيرنا.. فلماذا نسيء فهم أحكام الدين ونحط من كرامتنا؟

وختمت حديثها بقولها:

ولقد قلت لك ما قلت لكي أطلعك على ناحية هامة من نواحي ذلك الدين الذي لو عرفنا قدره، وسرنا على تعاليمه، لسدنا العالم، ولنعمنا بسعادة الدارين.

وصمتت سوزان في شبه خجل، ولحظت الفتاتان ذلك فلم تريدا إحراجها، واكتفتا بتوجيه الشكر إلى إصلاح.

وأقبل الخادم في تلك اللحظة بالحلوى والمرطبات، فأقبلت الفتاتان على الأكل وقد أمسكت كل منهما شوكة في اعتزاز وإكبار.

وأرخى الليل ستاره فاستأذنت الفتاتان في الانصراف.

ومما يذكر في تلك الليلة عن إصلاح أنها لاقت من سوزان ووالدتها كثيراً من النقد والسخرية بسبب ما هي عليه من التمسك بأهداب الدين.

ولكن من حسن الحظ أن محسناً لم يشعر بشيء من هذه السخرية وأنهما سافرا وهو لم يزل يعتقد في زوجته «فتاة العصر والمدنية الحديثة».

obeikandl.com

# ١٥

(لقد وصل العروسان).

هذا ما قاله بواب «فيلا» العروسين الكبيرة إلى الخدم عندما أقبلت سيارة محسن وزوجته من مصيف الأسرة..

وفي فرحة صادقة أسرع بحمل الحقائب وتسليمها إلى خدم المنزل وأغلبهن من النساء.

وكانت هذه أول مرة يدخلان فيها عشهما الجميل. فجعلا ينظران إلى تصميمه في إعجاب، وفي سرور تقدم محسن وأخذ بيد زوجه ومشى بجانبها في حديقة الفيلا الواسعة، وفي خطا وئيدة، اجتازا ممر الحديقة المرصوف وصعدا الدرج الرخامي الخارجي، وبمجرد دخولهما أخذا يطوفان بحجرات الطابق الأول وأبهائه وكانت كلها مفروشة بأغلى أنواع السجاد والأثاث الثمين..

ولم يطل بهما الطواف، وارتقى الزوجان في نشوة سلماً خشبياً مفروشاً ببساط أحمر - كان يتوسط الفيلا على الداخل - وينتهي إلى بهو الطابق الثاني.

وقبل أن يدخلا حجراته، وقفا معجبين أمام (معزف) من النوع الحديث.. كان يتوسط الردهة الكبرى.

وفي رشاقة ورقة جلست إصلاح على مقعده وراحت تحرك أناملها الرشيقة بمقطوعة موسيقية رائعة أطربت زوجها بنغمها الساحر، وكان ختامها قبلة حب وإعجاب.

وفي تلك الفترة السعيدة كانت الطاهية قد انتهت من إعداد الطعام وتهيأت المائدة.. فنزلا إلى حجرة الطعام، بعد أن استبدلا ملابس السفر.. وكانا قد شعرا بتعب السفر.. فصعدا إلى حجرة النوم ليستريحا.

ولا بد أنهما سيصعدان بعد استيقاظهما لرؤية (حديقة السطح) الفخمة أو على الأقل سيتناولان فيها الشاي عصر اليوم.

وفعلاً قضى الزوجان بقية هذا اليوم متنقلين بين حديقة السطح الجميلة، وحديقة المنزل يلعبان ويتضاحكان كفراشتين بين الأزهار.

وفي المساء، استبدلت إصلاح بالروب دي شامبر الذي كانت ترتديه في الحديقة ثوب النوم الحريري العاري الذي يشف عن جسم لدن فاتن؛ وأمست في زينتها الكاملة.

هكذا قضى العروسان أول أيامهما في فيلاهما الجديدة.

obeikandi.com

ومشت حياة الزوجين بعد ذلك سعيدة متشابهة ما يقرب من ثلاثة أشهر لا يشوبها شائبة، ولا يعكر صفوها معكر لولا ما كان يعتري إصلاح من ضيق، كلما رأت زوجها بعيداً عن الاهتمام بأوامر الله، تاركاً الصلاة.. وكانت كلما همت بتنفيذ ما عاهدت نفسها عليه من نصحه وإرشاده عادت وفكرت في التريث وتحين الفرص.

وفي تلك الأشهر، كان محسن دائماً مع زوجه؛ لا يتركها إلا في أوقات عمله التي كانت تقضيها في الإشراف على بيتها وفي قراءة كتب الدين.. فإذا ما انتهى من عمله، بادر بالعودة إلى جنته. فيجد حوريته تنتظره في أبهى حللها المنزلية يفوح منها عبير العطر الزكي، وفي أكمل زينة، فيطبع على وجنتيها قبلة اعتادها عند خروجه من المنزل وعند عودته إليه. ثم يقضيان بقية اليوم معاً، لا يخرج من دونها، ولا يُرى إلا معها.

فكانا في بعض الأحيان يتنزهان بالسيارة في الخلوات البعيدة، وكثيراً ما كانا يخرجان ليلاً إلى الحدائق القريبة من منزلهما، فيتمشيان واليدان متماسكتان كعاشقين، يتحادثان ويتعاهدان على دوام الوفاء والمحبة الزوجية... أما مشاهدة دور السينما والتمثيل فكانا يذهبان إليها كلما عرضت من الروايات ما يوافق هوى إصلاح ويرضي ذوقها.

## ١٦

انقضى الصيف بمتعه ومباهجه، وخلت الشواطئ من بهجتها ومرحها بعد أن أخذ المصيفون يعودون تباعاً إلى بلادهم.

ولما لم تتحسن صحة شاكر باشا طوال أشهر الصيف عزمت أسرته على العودة إلى القاهرة.

غير أنه حدث والأسرة تستعد للسفر أن فوجئت بموت عنايات هانم والدة يسرية.

فكان لهذا الحدث الفاجع، وقع أليم في نفوس الجميع، وبخاصة حسين فقد أصبح شغله الشاغل، أن يستكمل على عجل مراسيم الزواج حتى لا تترك خطيبته منفردة بأشجانها ووحدتها.

ومن أجل هذا تأخرت عودة الأسرة بضعة أسابيع.. تم فيها زفاف (الخطيبين) دون حفل أو دعوة أحد.

وفي أمسية من أمسيات أواخر أكتوبر عادت الأسرة من مصيفها إلى قصرها بالزمالك.

ولكن تشاء المقادير أن يأتي مع عودتها شقاء محسن وإصلاح، وأن يخرج القدر عن صمته ليطلع

(الزوج) على ما قد يكون سبباً في انهيار سعادته الزوجية..

فما سبب ذلك؟

- لقد حدث غداة حضور الأسرة من مصيفها أن ذهبت إصلاح وزوجها للسلام والاطمئنان على صحة الوالد، وتصادف أن كان هناك شوقي «خطيب سوزان»، فلم تشأ إصلاح أن تخلع خمارها عن رأسها أو معطفها الذي كانت ترتديه، رغم إلحاح أختها في ذلك.

وبعد الغداء اجتمعت إصلاح بوالدتها وأختها في حجرة سوزان وأخذن في الحديث. وجلس محسن مع سامي وشوقي في شرفة تلك الحجرة وراحوا يلعبون (الكونكان) بالقرب منهن.

ومن الغريب أن الحظ كان حليف محسن في ذلك اليوم فاستولى عليه سرور الكسب، وبلغ به الفرح مبلغاً لم يشعر به من قبل.

ولكن القدر الذي تركه ينعم باللذات، ويجاهر بكراهة الدين والمتدينات، أراد أن يكون بدء القصاص منه في اللحظة نفسها التي شعر فيها باستكمال سعادته.. وذلك عندما ترامى إلى سمعه وهو منهمك في اللعب بعض ألفاظ تنبئ عن السخرية والتهكم كانت

opelkandi.com

موجهة إلى زوجته من سوزان ووالدتها لتحجبها بالخمار، أمام خطيب أختها.

وما أشد الدهشة التي استولت عليه، والهم الذي استحوذ على نفسه عندما سمع من بين دفاع زوجه، بعض الآيات القرآنية، والأحاديث الدينية. ويا لها من لحظة تلك التي حاول فيها السيطرة على أعصابه فقد أطبق الهم بجناحيه على نفسه فلم يستطع منع رغبته الملحة في ترك اللعب؛ على أن همه لم يكن هذا الخمار فقد اعتاد رؤيته، معتقداً بأن هذا رمز رياستها للجمعية ولكنه أيقن في تلك اللحظة بأن زوجته من صنف المتحفظات اللاتي كان يكره زواجهن.. وحدثته نفسه بأنها لم تخرج بهذا الخمار إلا من أجل هذا التحفظ وليس من أجل نظام الجمعية وحب الظهور كما كان يعتقد.. وأرهف السمع مرة ثانية.

ولكنه لم يستطع أن يسمع بعد ذلك من أحاديثهن المختلفة سوى عزم زوجته على الذهاب إلى منزل أخيها محسن لتعزية زوجه يسرية في والدتها.

وكان قد شعر برغبة في الخروج.. فانتهز هذه الفرصة وفي الحال ترك اللعب.. وخرج مع زوجته قاصداً منزل أخيها حسين.

وهناك جلس شارد اللب واجماً، وقد ظنت زوجته أنه يشارك يسرية في مصابها.

ولكنها لو كشفت عن دخيلة نفسه في تلك الجلسة؛ لرأت أن مصابه فيما سمعه اليوم، أشد من مصاب يسرية في والدتها.

وهكذا تغير محسن وتبدل دون أن يشعر به أحد.

وانتهت الزيارة وعادا إلى منزلهما. ولكن محسناً لم يعد بتلك النظرة التي كان ينظر بها إلى زوجه من قبل، أو بتلك السعادة التي كانت تلازمه قبل ذهابه إلى أسرتها، وإنما رجع مبلبل الخاطر مشغول الفكر.. وبات حائراً يفكر فيما سمع، ثم أصبح قلقاً.. ومن ذلك اليوم شعر برغبة قوية في مراقبة أعمال زوجه، وملاحظة ما كان غافلاً عنه، دون أن يشعرها بشيء مما في نفسه.

وتمضي أيام قليلة وإذا بمحسن وقد رفعت الغشاوة عن عينيه يرى في زوجه غير ما كان يحب أن يراه، ويسمع منها غير ما كان يعتقده فيها. ثم يتأكد لديه أن تلك الفتاة خريجة (الميردي دييه) التي رآها في (الأوبرج) وخطبها من وسط «نادي العصريات» وبين حفلات اللهو، إن هي إلا واحدة ممن كان يخشى الوقوع في زواجهن.

* * *

لقد كان محسن يرغب الزواج من المرأة غير المتدينة، كي ينعم معها بملاهي الحياة ولذاتها،

ولتتماشى مع ميوله، وتستقبل أصدقاءه كما تستقبله زوجاتهم. وتشرب معه الخمر، ولا تمنعه من لعب الميسر، وترتاد معه أماكن اللهو التي نشأ على حبها.

أما وقد تكشفت له الآن حقيقتها، فإنه لم يعد ذلك الزوج السعيد الموفق في الحصول على الزوجة التي كان ينشدها.

وجلس محسن يوماً وحده بمكتبه، وأسند رأسه بين راحتيه. وانصرف إلى خواطره يستعرض الصور التي كانت عليها زوجه في الحفلة يوم أن خطبها!!.. فجعل الشيطان يصور له كل ما كانت عليه من مظهر الحياء والحشمة.. عيوباً رجعية. ويوسوس إليه بالباطل، ويغريه بالضلال.

فإذا ما انتهى من تصوراته راح ينحي باللائمة على نفسه:

- يالغفلتي تلك الليلة.. لقد كانت في أناقتها محتشمة، وفي وسط اللهو بعيدة عنه، وفي حديثها متحفظة؛ لم تكن وهي توزع الورد كغيرها ممن يقدمن الزهور ويتقبلن الغزل.. إنها لم تبتسم لي.. حتى ولم تنظر إلي.. ليتني لم أصدق ممدوحاً حينما قال لي إن ذلك تيه وكبر. لو كنت رأيتها وقت ذاك بالعين التي أراها بها الآن، لسهل انتزاع حبها من قلبي إذ لا حياة لقلبي مع من لا تتفق ميولها وأهواؤها معه.

ومرت أمام عينيه أطياف حياته مع تلك الزوجة... فأنساه الشيطان جميع أعمالها العصرية، وثقافتها العالية، وكل ما كان يراه فيها جميلاً.. ولم يذكره إلا بما أصبح يراه فيها من عيوب، وما كان يسمعه أحياناً من أحاديث دينية.

إنه ليذكر أنها قالت له يوم أن رفض الذهاب إلى جده:

- «لن يدخل الجنة قاطع رحم».

وفي الخمر يوم أن تاقت نفسه إلى شربها:

- «من شرب الخمر سقاه الله من حميم جهنم».

وأعجب من ذلك، أنه فهم الغرض الحقيقي من ارتدائها الملابس المحتشمة واختيارها لنوع مخصوص من أماكن اللهو والاصطياف، والآن فقط فهم سبب ممانعتها في مقابلة أصدقائه كلما دعاها إلى ذلك.

ونظر حوله بعد هذا التأمل الطويل، وكان كل ما حوله ساكناً يشمله الهدوء، إلا ذهنه الحائر، وقلبه الشجي.

... إذن.. لقد تحقق دعاء جد العائلة الأكبر... فيالحظي العاثر..

وتمثلت له صورة (ذات الدين) في شخص زوجه. فزادت أشجانه وحار في أمره، وساءل نفسه:

obeikandi.com

- كيف يمكن العيش مع زوجة أفكارها تخالف أفكاري، وميولها لا تتحد مع رغباتي؟ وما الحل الذي يديم لي السعادة معها ما دام قلبي يخفق بحبها، ولا يستطيع فراقها؟

وتمنى في تلك اللحظة أن لو كان ممدوح بجانبه.. يستجديه الرأي ويمده بالعون.. لكن أين ممدوح؟ لقد انقطعت صلته به منذ نقل إلى السويس.

وأطلق لنفسه العنان، وراح يكدح ذهنه ويستجدي عقله وإذا بالشيطان يهبط عليه مرة ثانية، يوحي إليه بالمنكر، ويرشده إلى الضلال.

وسرعان ما استجاب له، وكانت النتيجة أن عزم على حمل زوجته على ترك ما هي متمسكة به من أوامر الدين.

وكان قد حان ميعاد انصرافه من مكتبه فاستقل سيارته قاصداً منزله، وقد أحس أن هذا العزم قد جعل كلاً من الزوجين عازماً على تحويل الآخر عما هو عليه من الأعمال والأهواء.

فيا ترى لمن النصر؟

obeikandi.com

## ١٧

ومضى يومان بعد عزم محسن على مقاومة (رغبات زوجه الدينية) وأرسلت زينات هانم تدعوهما إلى حفلة خيرية كانت تقيمها في جمعيتها كل عام.

وكان محسن وقت وصول تلك الدعوة، يستعد للخروج إلى مكتبه وكانت زوجه تجلس بالقرب منه، تقرأ له في إحدى صحف الصباح.

وأقبلت إحدى الخادمات وبيدها بطاقتا الدعوة، فأسرع محسن وأخذهما من يدها.. واعتقد في الحال أن الفرصة واتته وآن له أن يحمل زوجه على تنفيذ ما عزم عليه.

وسرعان ما التفت إليها وقال وهو يشير بالبطاقتين:

- لعل الوالدة قد سبقت إليك بهذا الخبر السار.

وكانت إصلاح مشغولة بالقراءة فقالت مستفهمة:

- ماذا؟ وأي خبر؟

فقال وكأنه يجهل أمر تمسكها بأوامر الدين:

- حفلة خيرية مساء الليلة من حفلات الوالدة الرائعة. ويسرني أن أنعم بمرافقة زوجتي الحسناء في هذه الحفلة.

obeikandl.com

فرنت إليه باسمة في صمت ثم أسبلت جفنيها كمن تستعيد ذكرى ماضية.

وما لبثت أن قالت معتذرة في هدوء:

- لقد سبق لي رؤية كثير من هذه الحفلات حتى ملتني ومللتها ولم أعد أشعر بأية لذة فيها.

وكان محسن يتوقع منها هذا الرفض، ولكنه أراد أن يتمادى في تجاهله حتى يرى ما يكون من أمرها فقال ملاطفاً:

- مهما يكن بك من ملل فلا بد من ذهابك معي الليلة.

وجلس بجانبها وراح يتابع متسائلاً:

- ألا ترين أن والدتك هي التي ترأس تلك الحفلة، وأنك أولى مني بالوجود فيها؟

فتبسمت في استخفاف ثم قالت متسائلة:

- أتعتقد أن والدتي هي التي ترأس هذه الحفلة؟

فتطلع إليها في عجب من هذا السؤال وقال:

- وهل هناك شك؟

- يؤسفني أن يخدعك هذا المظهر.

- أي مظهر؟

- الواقع أن والدتي لم تكن سوى آلة تحركها يد أجنبية تدير تلك الجمعية ولو لم تشعر هي بذلك.

فقال مشدوهاً:

- لم أفهم شيئاً! فماذا تعنين؟

- أعني أن كل خطوة تخطوها تلك الجمعية، أو كل بدعة تظهر في حفلة من حفلاتها - لم تكن سوى ثمرة غرس فئة من الأجنبيات المندسات فيها بقصد النهوض بها وهن في الواقع لا ينشدن سوى هدم ديننا، والقضاء على تقاليده، دون أن يخطر ذلك ببال أحد، وما سيقام فيها الليلة ما هو إلا تحقيق لبعض آمالهن وأغراضهن.

فشعر محسن بضيق مصدرُه اهتمام زوجه بالتقاليد الدينية، ولكنه تحامل على نفسه ولبس ثوب الخداع والمكر كي يحملها على الذهاب معه فقال:

- لقد زاد شغفي لرؤية ما سيقام في تلك الحفلة بعد قولك هذا، فلعلك تذهبين من أجلي فقط.

فتطلعت إليه وقالت وقد تذكرت وعداً سابقاً منه:

- أما قلت لي منذ جئت إلى (فيلانا) إنه لا يطيب لك رؤية شيء من الملاهي والحفلات إلا إذا كانت تعرض ما يرضي ذوقي وما يوافق اختياري؟

فقال وقد تذكر عهده الذي قطعه على نفسه في مكتبه:

- ولكنني منذ الآن أصبحت أرى ضرورة اتباعك لي فيما أريده من متع، وما أبغي من ملاذ.. ألست زوجك الوفي، ومن حقي ذلك؟

وساد بينهما صمت.. أخذت خلاله تذكر بعض الأحاديث الدينية التي كلفت المرأة بطاعة زوجها؛ فتحركت في نفسها عوامل الموافقة على ما أراد، وهمت بإجابة طلبه ولكنها عادت وتوقفت فقد تذكرت ما في هذه الطاعة من معصية الله ومخالفة أوامره، فصمتت حائرة... ماذا تفعل؟ وأيهما تطيع؟

واستمرت هذه حالها حتى طرق ذهنها الحديث الشريف:

«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

عند ذلك سكنت نفسها وعاودها الهدوء واقتنعت بوجوب رفض الذهاب معه.

وسرعان ما بدا لها أن تتفاهم معه في صراحة حسماً للموقف.. فطوت الصحيفة التي في يدها وخرجت عن صمتها وانطلقت قائلة:

- إن من أسباب السعادة الزوجية، أن يكون بين الزوجين حب ووفاء.. ولكن من سوء الطالع أن يكون مع هذا الحب شيء من فوارق الطبع واختلاف الميول، وبخاصة إذا كان هذا الاختلاف في

طاعة اللّه من أحدهما ومعصيته من الآخر.

واستطردت مصممة العزم في قوة وصراحة:

- والآن يا عزيزي، قد آن لي أن أصارحك بأن هذه الطاعة الخالصة للّه هي التي تمنعني من الذهاب معك إلى هذه الحفلة، أو إلى أي مكان يحملني على ترك تعاليم الدين.

ولا تسل عن مقدار ما انتاب محسناً من الهم عقب هذا التصريح، ولا تحاول أن تسمع منه الآن كلمة بعد تلك الصدمة العنيفة.

وما عساه يقول وقد خاب أمله فيما كان يرجوه من زوجه؛ ورأى أمامه (ذات الدين) وجهاً لوجه.

إنه لم يتكلم بكلمة.. حتى ولم ينظر إليها.. ولكنه قام غاضباً مهموماً. ولأول مرة خرج إلى مكتبه مطرق الرأس واجماً، دون أن يطبع على وجنتيها قبلته المعتادة.

وهناك أخذ يفكر فيما سمعه من زوجه، وماذا يفعله تجاه هذا الاختلاف واستعان بنفسه وجعل منها سائلاً ومسؤولاً وراح يسألها ويجيبها:

- أأترك زوجي؟ وهي الصفاء والوفاء، وهي أمي وأبي وكل ما لي في الوجود؟

- إنني لا أستطيع ذلك.

- أأستطيع أن أتفق معها في آرائها؟
- بالطبع لا يمكن ذلك لأني لا أطيق البعد عن لذات الحياة المليئة بالمتع وأماكن اللهو.
- لماذا لا أذهب من دونها إلى تلك الأماكن؟
- لأنني رجل عصري ولا أحب هذا النوع.
- إذن ماذا أفعل أمام هذا الاختلاف الذي بيننا؟
- لا حل لذلك سوى الاستمرار في الاحتيال عليها بشتى الوسائل حتى تذهب معي الليلة ثم يسهل بعد ذلك ما أريد.

وعاد محسن إلى منزله، ودخل على زوجه، وكانت في زينتها المعهودة وابتسامتها المشرقة فقبلها كعادته، وتناول معها طعام الغداء، وكان من عادته النوم بعده، فأرجأ عزمه إلى ما بعد استيقاظه من النوم.

وجاء المساء، واستعد محسن للذهاب إلى الحفلة، وكانت زوجته وقتئذ في حجرة الاستقبال «بالطابق الأول» مع بعض زائراتها.

فجلس ينتظرها في البهو المؤدي إلى السلم حتى انصرفن. وعندما رآها صاعدة ابتسم لها وأقبل عليها ملاطفاً.

وعلى الأريكة المجاورة للمعزف، جلس بجانبها كمن يريد أن يتحدث في أمر هام.

وما استقر بهما المجلس حتى أمسك يدها بين يديه ملاطفاً، وبدأ الحديث قائلاً في هوادة ورفق:

- لقد فكرت يا عزيزتي فيما قلت في الصباح حول اختلاف آراء الزوجين، وما يترتب على ذلك الاختلاف من شقاء الحياة الزوجية.

فخفق قلبها وخيل إليها أنها في ساعة حاسمة، وتابع محسن قائلاً:

- وبما أن هذا الاختلاف بين زوجين متماثلين في التعليم والرقي ومن عصر واحد فإني أرى أنه من السهل إيجاد حل لدوام الحب والسعادة بيننا.

وخشيت إصلاح أن يكون لزوجها قصد يخفيه فقالت متسائلة:

- وماذا ترى في ذلك؟

فحدجها بنظرة ذات مغزى وقال باسماً:

- إنني أرى وجوب تركك لهذه العادات الرجعية والتقاليد القديمة.

وتوقف فقد سمعها تتمتم: عادات رجعية، وتقاليد قديمة، يا لها من ألفاظ خرقاء، تخرج من أفواه من لم يعرفوا قدر هذا الإسلام وعظمته. ونظرت إليه وقالت قبل أن يتكلم:

- إنك يا محسن لمخطئ في اعتقادك بأني متمسكة بالعادات الرجعية والتقاليد القديمة؛ إذ إن (الشريعة

الإسلامية) آخر الشرائع. وتبعاً لذلك تكون تقاليدها أحدث التقاليد؛ ومن هنا ترى خطأ نسبة هذه التهم الباطلة إلى المحافظين على أوامر هذا الدين القويم.

وكان محسن قد شعر بما في أقوالها من حق، ولكن شيطانه كان أقوى من شعوره، وقال وقد اتخذ منهاجاً آخر في الإغراء:

- قول حق، وإنني لأعتذر عن تلك الألفاظ الجارحة، وأعود إلى الذي يديم علينا الحب والسعادة الزوجية.. وقال:

- إصلاح! أصغي إلي يا عزيزتي! إنني أرى ضرورة اتباعك لما يتماشى مع المدنية الحديثة، والعصر الحاضر، ولا سيما أنك في هذه السن الصغيرة. فدعي ذلك يا حبيبتي للعجائز، أو لمن هو دونك في التمدين والرقي، وتعالي نتحد معاً، ونتعاهد على أن نمتع نفسينا في هذه الحياة المليئة بالمتع والملذات.. نرتشف من كؤوسها، ونمرح في ملذاتها، وننتقل بين مراقصها وملاهيها.

وهنا نطق فمها دون أن تشعر: نفعل كل هذا؟

- نعم يا حبيبتي وأكثر من ذلك، وإنني لعلى استعداد أن أبتاع لك باخرة على سطح الماء، نقيم فيها

obeikandi.com

الحفلات، وندعو إليها الأصدقاء والصديقات، ولن أضن عليك يا زوجتي المحبوبة، بما يناسب جمالك من الجواهر والملابس التي تجعلني أفاخر بك جميع هؤلاء في الحفلات والمجتمعات، ثم لا تنسي أننا سنقضي الصيف المقبل بين ملاهي باريس (بعيداً عن ذلك الريف البغيض). فلا تحرمي هذا الشباب من تلك الملاذ الدنيوية والسعادة الزوجية.

وأراد أن يزيد في الإغراء، فربت في خفة على وجهها الجميل وقطف قبلة منه وقال ضاحكاً:

- وإنني لأعاهدك على أن نتبع أوامر الدين عندما نكبر ونصير عجوزين. فماذا تقولين؟

وكانت إصلاح تستمع إليه وهي ساهمة، تأسف لتمسكه بمفاسد المدنية، واستسلامه لإغواء الهوى. وشد ما آلمها أن ترى ذلك الزوج المكلف بإرشادها إلى اتباع أوامر الدين، يزين لها عمل المحرمات بشتى أنواع الإغراء. وأرادت أن تتكلم فلم تجد ما تقول.. واستنجدت بعقلها فرأت أن الفرصة قد واتتها.. وآن لها أن ترشد عقله إلى ما كانت قد عزمت عليه من قبل.. فبدأت حديثها قائلة:

- تسألني ماذا أقول يا محسن؟ وماذا عساي أن أقول بعد كل هذه المغريات المخالفة لشريعة الإسلام وأوامره؟

إن السن يا عزيزي والرقي، لا دخل لهما في طاعة الله. والكل عنده سواء، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، ولو كان اختلافنا لغير الله لاتبعتك فيما تريده وتهواه.. ولقد آن لي أن ألفت نظرك إلى أمر طالما كان يشغلني السكوت عنه.

فزادت دقات قلبه ونظر إليها متسائلاً!! فتابعت في هدوء وإخلاص:

- ذلك هو، أنني وأنت يا زوجي من دين واحد. والذي فرض علي طاعته قد فرضها وأوجبها عليك أيضاً، فلم لا نتحد معاً على طاعته. ويكون حبنا في الله أدوم وأقوى؟

وصمتت.. وخيم الوجوم على وجه زوجها وأحس كأن سهماً أصمى قلبه لما في أقوالها من انهيار أمانيه. وأطرق صامتاً في غضب وتبرم.

ولحظت ذلك إصلاح فاستطردت في أسى قائلة:

- ما كنت أحسب أن هذا القول سيضايقك، وأنت الذي من حقه إرشادي، وعليه إصلاحي. ولكني أردت أن نتعاون على طاعة الله، وأن يتمم كل منا دين الآخر؛ ولقد ذقت حلاوة الإيمان وامتلأ قلبي بنوره بعد أن تجرعت مرارة الضلال، فما وجدت خيراً من نعيم الطاعة وأمل الثواب.

obeikandi.com

ولو كنت آمل في ملاذ الدنيا، لرقص قلبي لما سمعت، وتاقت نفسي لما عرضته علي الآن.. لكن شيئاً من ذلك لم يبلغ نفسي، ولم يهز قلبي. وما قيمة هذا المتاع الزائل، بجانب جزاء الطاعات، مما لا عين رأت؛ ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟!

وإلى هنا رأت وجومه يزداد وغضبه يكاد يتفجر فأرادت أن تدعوه بالحكمة والموعظة الحسنة، لعله يعود إلى الصواب فتابعت:

- ومع ذلك فأنا لا أكرهك على شيء لا تريده أو لا تندفع إليه من تلقاء نفسك، ولكني أرجو ألا تكرهني على أمر لا يريده اللّه. وأن تكون لي الزوج المعين على عبور تلك الحياة الفانية بسلام.

وساد الصمت من جديد وأشعل محسن سيجارته، وأطرق في صمت.. وأخذت عوامل نفسه تعبث بعقله وتدفعه إلى السخرية والتهكم فأطفأ سيجارته، وهب واقفاً، ونظر إليها وقال:

- هذه الأقوال إن دلت على شيء، فإنما تدل على روح متزمتة لا تليق «بزوج عصري» قد ارتشف من مناهل المدنية الغربية ونهل من ينابيعها قدراً جعله يخشى الزواج بمن تخالف ميوله، وروحه العصرية.

وتذكر دعاء جده الأكبر، فاضطرب وقال فيما يشبه الندم:

- على أني لا أنكر أنني قد اخترتك بنفسي من فتيات هذا العصر. وتزوجتك من والدتك باختياري. لكن يظهر أن اختيار الإنسان لا يمنع ما هو مكتوب له؛ ومقدر عليه.

وخرجت من صدره آهة عميقة، أعقبها إلقاء جسمه على الأريكة في إطراق.

رأت إصلاح هذا الانفعال فترقرقت عيناها بالدمع، وسمعت هذه الأقوال فعز عليها أن ترى ذلك الزوج الذي كانت ترفض زواجه، يلقي على مسامعها ما تشم منه أنه خدع في مظهرها عند زواجه. ولكنها تحاملت على نفسها، وتطلعت إليه بعينيها الجميلتين وقالت في شبه رضاء بالقدر:

- لن ألومك الآن على ما تقوله، ولا على ما سمعته منك وإن كنت لائمة أحداً، فلا ألوم إلا والدتي؛ لا على أنها جمعت بين طرفي نقيض «فكل شيء بإرادة الله» بل على أنها لم تطلعك على حقيقة أمري.

وتمتمت في نبرات خافتة:

- سامحها الله فقد كانت ترى فيك الزوج الذي يرد إلي نعيم الحياة.

وكانت تتكلم بصوت كأنه لحن حزين، توحي نبراته بالألم، وتدعو إلى الرثاء والعطف.

عند ذلك غلبه حبه وزال عنه بعض ما به، فاقترب منها مدفوعاً بعاملي الحب والأمل وقال ملاطفاً في اعتذار:

- إصلاح.. أنت ضرورة لحياتي.. وما قلت كل هذا إلا لأطلعك على بعض خفايا نفسي، ولدوام الحب بيننا. ولكن إصرارك هذا، وعدم ذهابك معي الليلة، سيهدم سعادتنا، ويحملني على أن أتخذ ما لا تحمد عقباه.

وكان الليل قد أرخى ستاره، وميعاد الحفلة يقترب. فعاد إلى الإلحاح عليها، وتمسكت بالرفض.

وعندئذ ثارت نفسه، فأرغى وأزبد، وهدد وأوعد، ثم قام يذرع البهو جيئة وذهاباً، مبهور الأنفاس منكس الرأس.

وما لبث أن وسوس إليه الشيطان بخاطر ارتاح له وعزم على تنفيذه، ولأول مرة خرج من المنزل لغير عمله دون زوجته وذهب إلى الحفلة غاضباً.

obeikandi.com

## ١٨

كانت حفلة زينات هانم هذه الليلة، كغيرها من الحفلات التي كانت تقيمها باسم الخير كل عام. وكانت في بهجتها لا تقل عن حفلة الأوبرج الماضية، وحفلة النادي السابقة.

وهذه الحفلة وإن كانت تماثل سابقاتها في كل ما كان بها من لهو ومتع، إلا أنها كانت تخالفها في (نوع) يبدو جديداً ويلوح غريباً؛ إذ كانت تمتاز باستعراض الجمال والأناقة، وبعرض أحدث الأزياء الخليعة التي أبدع في حياكتها أشهر خائطات باريس والبلاد الغربية.

فما وافت الساعة العاشرة مساء حتى رفع الستار عن موكب الاستعراض العجيب.

فدوى التصفيق، وتطلعت الأنظار؛ واتجهت كلها جهة المسرح، وساد الصمت بين الجميع.

ومن غريب أمر محسن في تلك اللحظة، أنه ما كاد يرى (ربات الجمال) يتهادين في إغراء أمام المدعوين عارضات ملابسهن العارية المختلفة، حتى عادت إلى نفسه أقوال زوجته عن أغراض الأجانب من وراء نشر

obeikandi.com

بدعهم الفاسدة، وداخله شعور تصديقها فيما قالته خلال شجارهما السابق.. لكنه سرعان ما تناسى كل ما سمعه من أقوالها الصادقة وإرشادها الحكيم ولم يعد يفكر إلا فيما أغضبه من آرائها، وما أمامه من لهو ومتع.

وانتهى العرض وبدأت المساومة.

وكان كل من يشتري ثوباً له أن يراقص لابسته، ويقضي السهرة معها، فاختلفت الآراء، وارتفعت الأثمان. وجعل كل يساوم بما يحلو له ويزيد عليه حتى وصل ثوب إحدى الفائزات إلى ثلاث مئة جنيه، دفعها أحد المعجبين بلابسته.

على أنك لو تركت هذا العرض الآن، واتجهت بنظرك جهة المنضدة النائية في الحديقة لرأيت محسناً وقد استجاب لوسوسة شيطانه؛ مشغولاً بامرأة من النساء الموجودات يساومها الرجس والعلاقة الآثمة.

وما لبثا أن تآلفا وقضيا السهرة معاً، ثم كان بينهما ميعاد للمقابلة بعد ذلك.

وقبل أن يفترقا أهدت إليه زهرة صغيرة من نوع «البانسية» بنفسجية اللون، دقيقة الصنع، من الخزف الثمين؛ عربون التعارف، وتذكاراً منها إليه.

فمن هي تلك المرأة التي قذف بها القدر في طريق ذلك الزوج الخائن؟

إنها سهام..!

لم تكن سهام سوى امرأة لعوب، مات عنها زوجها فاتخذت سكناً أنيقاً في عمارة فخمة وسط القاهرة، وكانت تعيش بمفردها مع بعض الخدم الذين جعلتهم عدتها وساعدها.

وهذه المرأة، وإن كانت على جانب كبير من الجمال والجاذبية، إلا أنها كانت امرأة، لا قلب لها ولا ضمير، كانت تصادق هذا، وتأخذ مال ذاك والويل لمن يخدعها منهم، أو يتركها قبل أن تتركه.

رأت محسناً في الحفل، ورأت فيه مميزات لم تصادفها في غيره ممن أحبتهم وتركتهم عندما وجدت صيداً آخر، وابتدأت العلاقة بينهما وسط الحفلة التي دعته إليها والدة زوجته.

وكثير من الأمهات يعتقدن أن سعادة بناتهن الزوجية لا تتم إلا بذهاب الزوجين إلى أماكن اللهو، والحفلات الساهرة، ولذلك كان يهم زينات هانم أن ترى ابنتها وزوجها في كل ملهى وحفل، وكان سرورها بوجود محسن بقدر أسفها من حرمان ابنتها منها.

* * *

obeikandl.com

لم يعد محسن إلى منزله تلك الليلة إلا بعد انتصاف الليل بكثير، وكان ثملاً يترنح من كثرة ما شرب من الخمر، وكانت هذه أول ليلة يعود فيها بمفرده.

فلما دخل حجرة النوم استيقظت زوجه وكانت هادئة رزينة، تضيء فتنتها، وتغري الناظرين، فاهتز قلبه لمرآها وأقبل عليها لثماً وتقبيلاً ووسوس إليه الشيطان بخداعها، فلم يشر إلى ما كان منها قبل خروجه. ولم تشم منه رائحة عتاب ولا غضب، ومع ذلك كان يبدو أمامها في سكره كأنه شبح مخيف طلع عليها بغتة، وأحست قشعريرة الخوف والرهبة تسري في بدنها، ورائحة الخمر تزهق أنفاسها، ورأت أن تتكلم ولكنها عادت وعللت نفسها بأن الذي تراه طارئاً من أثر انغماسه في موبقات الحفل ومنكراته. ولن يلبث إلا أن يعود إلى ما كان قد عاهدها عليه من عدم شرب الخمر، ونامت مستسلمة.

بيد أن محسناً تبدل بعد تلك الليلة تبدلاً ملحوظاً، وأصبح كثير الخروج بمفرده، وطالت سهراته خارج المنزل وكثر شربه للخمر، وتغيرت معاملته لزوجته الحبيبة وراح يختلق لها الأعذار الكاذبة، ولا يطيع لها أمراً.

ومضى أسبوع بعد تلك الحفلة المشؤومة ومحسن

كما هو، وزوجه ترى ذلك ولا تتكلم؛ لعله يرجع من نفسه؛ أو يثوب إلى رشده.

وفي نهاية الأسبوع رأت زينات هانم أن تزور ابنتها في منزلها، فما جاء المساء حتى كانت هي وسوزان تجلسان مع إصلاح في الردهة الكبرى التي تتوسط حجرات الطابق الأعلى.

وكان محسن خارج المنزل وقت حضورهما، فسألتها والدتها عنه.

ولا تسل عن مقدار القلق والوجوم الذي استولى على زينات هانم حينما عرفت أنه في الخارج من دون زوجه.

على أن هذا الوجوم لم يكن لعدم خروج ابنتها معه؛ فقد كانت تعتقد بأنها هي التي ترغب في ذلك؛ ولكنها كانت قد تذكرت في تلك اللحظة والد محسن والأوقات التي كان يقضيها معها تاركاً زوجه وحيدة، وخشيت أن يكون الابن مثل أبيه.

لكن أنى لإصلاح أن تعرف ذلك القصد وهي لا تعلم شيئاً عما في نفس والدتها.

وتحكم العقل، فأخفت عن والدتها انحراف زوجها وفساد أخلاقه، وأشفقت من أن تكون سبباً في تعكير صفوها، فلم تذكر لها شيئاً عن سوء معاملته لها.

وشد ما كانت تخشاه أن ترغمها والدتها على مجاراته.

وفي الحال تعمدت خلق جو من المرح والسرور أمامها كي تبعد ما رأته على وجه والدتها من وجوم وراحت تبرر خروجه بما كان له أكبر الأثر في تهدئة والدتها وإزالة ما بها من شكوك.

أما سوزان فلم يكن يبدو على وجهها أثر لتصديقها، ويظهر أنها كانت هي الأخرى تخشى تعكير صفو والدتها، فتصنعت الاقتناع وغيرت الحديث عن محسن وشمل مجلسهن الصفاء.

وبينما كن في الحديث والضحك إذا بجرس الهاتف ينبعث من حجرة النوم المجاورة، وإذا بإحدى الخدم تستدعي زينات هانم للمكالمة.

وانفردت سوزان بأختها، وتعمدت إعادة السؤال عن محسن وعن سبب خروجه من دونها كعادته، ولما لم تظفر منها بما يقنعها راحت تنحي باللائمة عليها وتعيب تصرفاتها، وما لبثت أن قالت:

- اسمعي يا إصلاح، ألم أحذرك بعد زواجك ونحن على شاطئ استانلي من الاستمرار في ذلك الشذوذ الذي أصبحت عليه؟ وقلت لك إن أكثر رجال هذا العصر لا يقدرون أمثالك؟ وزوجك واحد منهم.

openkanan.com

فنظرت إليها إصلاح في شيء من عدم الاكتراث وقالت:

- ولكني سعيدة بهذا الذي أصبحت عليه، وحسبي تقدير ربي الذي أعمل من أجله.

فقالت سوزان في شبه نصيحة:

- سعيدة! يا لك من ساذجة، إنك بهذه السعادة ستخسرين زوجك ولن تلومي إلا نفسك، فكم من زوجة يخونها زوجها في الخارج بسبب تركها إياه ينعم وحده بالمسرات والملاهي. وكم من مثلك أهملهن أزواجهن مع ما كان في قلوبهم لهن من حب، ومع ما هن عليه من جمال وذلك لأنهن كن متمسكات بالأعمال والآراء المخالفة لميولهم العصرية.

فأثرت هذه الكلمات في نفس إصلاح وتراقصت في مخيلتها الظنون وتلاعبت الأوهام وقالت في كبت:

- إن الله يا أختاه هو الكفيل بهؤلاء وهؤلاء.

وقطع حديثهما رجوع والدتهما تستأذن في سرعة العودة، بسبب انتظار بعض أكابر المهتمين بشؤون جمعيتها في القصر.

وخرجت سوزان ووالدتها.. ودخلت إصلاح حجرتها وألقت بجسمها على الأريكة الكبيرة «الديفان»

obeikandi.com

الموضوعة بالقرب من سريرها، وراحت تعيد ما سمعته من أقوال أختها في شأن زوجها، وتردد نصحها لها بالخروج معه ثم تسائل نفسها في حيرة:

- لم هذه النصائح؟ أتكون صادرة عن أسباب؟ لا بد أن تكون قد رأت منه في الحفل الماضي ما دعاها إلى ذاك النصح والتلميح.

ووسوس الشيطان.. فتملكتها الهواجس وأحاطتها الأوهام؛ وتمادت في تصوراتها، فتمثلت لها صورة عكرت عليها ليلتها.

صورة رأت فيها زوجها وكأنه يعاشر امرأة غيرها، وحدثها قلبها بأنه يفضلها عليها، وأنها هي السبب فيما وصل إليه من السهر في الخارج.

وهنا بكت عينا تلك الزهرة الندية، وتساقطت عبراتها على وجنتيها وأخذ بكاؤها يزداد كلما زاد تفكيرها في الماضي السعيد، والشقاء المقبل.

**فيا لها من ليلة ليلاء!!**

openkandil.com

## ١٩

الليل سكون، والنجوم ساطعة، وكم في الليل من عجائب ومصائب وأفراح وأتراح، وكم فيه من عيون ساهدة وعيون حالمة.

وهذه إصلاح بين السهاد، لم تزل في مكانها قلقة تستعيد ما سمعته من نصائح أختها، ويزيد الشيطان في آلامها. ثم تنهمر الدموع من مقلتيها وهي تستعرض الأشهر القليلة التي مضت على زواجها وما كانت تنعم به من حب زوجها ووفائه، وكيف تنام العين، ويجف الدمع.. وهذه الأفكار تؤرقها.. وظلام المستقبل يشقيها.. ولو أنها المؤمنة التقية التي ترضى بكل شيء، إلا أنها لم تكن حتى منتصف هذه الليلة تشعر بشيء يرضيها.

وأخيراً مالت في فتور إلى ظهر (الديفان) وانصرفت إلى خواطرها تفكر فيما أحدثته الأقدار في حياتها العجيبة، منذ كانت طالبة في مدرسة (الميردي دييه) وهي تحس نفسها تتفتح للحياة. وترى الدنيا كأنها حلم جميل، فأخذت صور الماضي تتتابع أمام عينيها سراعاً.

لقد كانت حتى السنة النهائية منها تخبط في ظلمات الضلال بعيدة عن نور الهداية، وكم ذاقت الحب والغيرة، واندمجت مع أمها وإخوتها وسط الملاهي واللذات، وتمتعت بكل ما يمكن أن يتمتع به كل محب للحياة ولذاتها.. فماذا وجدت بعد ذلك كله؟

إنها لم تجد في الحب إلا ألماً وانشغالاً، وفي اللهو إلا خداعاً وفي اللذات إلا سراباً وحلماً، ولم تحس طعم السعادة وهدوء الضمير إلا بعد أن انقشع ذلك الحلم، واستيقظ عقلها وهداها إلى طريق الخير، وتغلب على هواها.

تذكر هذا فتشعر بالهدوء ويغلبها الإيمان، إذ ترى عظم الفرق بين ما كانت فيه وما آلت إليه.

إنها لتفضل الآن الحرمان من هذه المتع الزائلة، في سبيل ما تأمله من النعيم الدائم في الآخرة، وتستعذب شقاء الحياة الزوجية، عن مر العذاب الذي تسببه المعاصي لو انقادت لأهواء زوجها ونفذت رغباته.

وما تكاد تذكر زوجها حتى يعاودها الشيطان، يوسوس في صدرها عنه، ويصور لها أعماله في أبشع صورة، فتحس بشعور غامض يسري في جسدها، وغيظ يستحوذ على مشاعرها، فتنفجر عيناها بالدمع ويعتريها الهم والجزع.

obeikandi.com

- ألا لعنة الله على إبليس وجنوده «إنه لا يعرف اليأس مع أبناء آدم أجمعين».

لقد عرف هذا العدو الماكر أن معصية الله كما تأتي من اتباع الشهوات والأهواء تكون كذلك من السخط وعدم الصبر على الضراء. لذا حام حولها تلك الليلة وأخذ يوسوس إليها بعد خروج أمها وأختها، حتى جعلها تسخط على حظها الذي أوقعها في هذا الزواج الذي كانت لا توده، وتبكي سوء حظها، وخيبة آمالها.

لكن رحمة الله اقتضت أن يكون سلطان ذلك اللعين قوياً في حزبه ضعيفاً أمام قوة إيمان المؤمنين ويقظة عقولهم.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ١٥/٤٢].

فلم يمض كثير على هذا السخط، وذاك البكاء، حتى استيقظ عقلها، وسمعت صوته يرشدها، كما سبق أن أرشدها أول تدينها إلى الانتباه لأعمال والدها الدينية ووجوب العمل بها.

- ترى ماذا قال هذه المرة؟

لقد سمعته الليلة يعرفها بأن الله لا يترك عباده المؤمنين دون ابتلاء بأنواع المصائب، ودون اختبار لقوة إيمانهم وتوكلهم، وينبهها إلى أغراض الشيطان وكيده، ويذكرها بقوله تعالى:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢-٣].

ثم دعاها لأن تكون تلك المؤمنة الصابرة الناجحة في اختبار ربها، وفي الحال لبت النداء وكفت عن البكاء، ثم دبت في قلبها حرارة إيمان قوي محت ما كان يقلقها من الظنون والأفكار، وفي توبة واستغفار قامت تنفض عن نفسها ظنونها وأدت صلاة العشاء، ثم تناولت عشاءها وذهبت إلى سريرها راضية بما يأتي به القدر.

ولقد حدث قبل أن يداعب الكرى أجفانها أن عاودتها ذكرى العهد الذي قد قطعته على نفسها في بدء حياتها الزوجية، بأن تكون لربها وزوجها والناس.

وحينئذ خطر ببالها أن تزيد في أعمال البر بالناس ونفعهم.

وسرعان ما عزمت على أن تفتح منزلها كل أسبوع للسيدات كي يستمعن إلى إرشادات دينية من أستاذها الكبير.

وهكذا رسمت لنفسها تلك الليلة نوعاً من الحياة يشغلها عن التفكير في مساوئ زوجها؛ ويزيدها تقرباً إلى الله.

وفي هذه الليلة.. عاد زوجها بأعذاره الكاذبة وخداعه، وقد انتصف الليل أو كاد.

ومرت الأيام، وتتابعت الشهور، ومضى أكثر الشتاء، ومحسن كما هو: سهر، وخداع، وأكاذيب.

أما زوجته فكانت طوال تلك الأشهر تبدو سعيدة أمام أسرتها وجميع الناس، ولا يعلم سوى اللّه وحده ما هي فيه من شقاء، وما تتحمله من صبر وألم.

وكانت كلما همت بالشكوى إلى والديها، أو برفع أمره إلى من بيدهم ردعه، كما تفعل غيرها في مثل هذه الظروف، عدلت وأبعدت ذلك. إذ كانت لا ترى أمامها سوى اللّه في السراء والضراء، وكانت لا تريد أن تشرك بربها أحداً في ردعه وعقابه. وأكثر ما كانت تخشاه زيادة المرض على والدها لو علم بسوء معيشتها.

بيد أن هذا التوكل ما كان ليمنعها من الوقوف بمفردها أمام زوجها، أو ليجعلها تصمت تجاه أعماله المنكرة، بل كانت لا تفتر عن تقويم ما اعوج منه، ولا تغفل عن محاولة إصلاحه بشتى الوسائل.

فحيناً كانت ترده بالنصح والإرشاد، وحيناً باللوم والعتاب؛ وأحياناً بتنبيهه إلى عاقبة الاندفاع في المعاصي.

obeikandl.com

لكنها ما كانت تجد من وراء ذلك فائدة إصلاحه أو إرجاعه عن غيه.. بل كثيراً ما كان ينقلب الموقف بينهما، فيعيب عليها تمسكها بما يعتقده عيباً في هذا العصر.

وهكذا أصبحت إصلاح ترى من زوجها مثل ما كانت تراه من أمها وأختها ومعارفهن.

فماذا تعمل أمام هذه القوة الشيطانية؟ وماذا تستطيع؟

لا شيء إلا العزم على التمسك بأهداب الصبر، والاعتماد على اللّٰه وحده.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾.

obeikandi.com

# ٢٠

مضت عدة شهور على علاقة محسن بسهام كثرت فيها هدايا المجوهرات والملابس الفاخرة، وتعددت رحلات البذخ، وحفلات اللهو، حتى بدد محسن جميع ما كان يحصل عليه من إيراد أملاكه، ورهن ما ورثه عن أمه، وما كان قد أخذه من جده.. كل ذلك في سبيل أطماع (خليلته) التي لا ينقطع لها مطلب، ولا يكفيها الكثير.

واستمر في تلبية طلباتها والإنفاق على رغباتها إلى أن شعر يوماً بعاقبة ذاك الإسراف، وما هو مقبل عليه من الإفلاس.

وذلك يوم أن جاء إليه إعلان بالحجز التحفظي على أملاكه المرتهنة، إذا لم يسدد ديونه في مدى معين.

ولا شك أن زوجه لم تكن تعلم شيئاً عن أمر هذه الديون، أو تخطر لها على بال، فقد كان لها مرتبه الشهري، وعليها تدبير المنزل، في حين كان لمحسن خمس ذلك المرتب لنفقاته الشهرية. أما ريع أملاكه فتجمع من المستأجرين في نهاية كل عام.

obeikandl.com

هكذا اتفقا في بدء حياتهما الزوجية.

وهكذا استمر محسن لا ينقص شيئاً من راتب المنزل، حتى بعد الاختلاف الذي وقع بينه وبين زوجه؛ مخافة أن ينكشف أمره.

وكان من عادة محسن مع سهام ألا يؤخر لها طلباً مهما عظم ثمنه، وبلغت قيمته.. وظل هذا حاله، حتى جاء اليوم الذي اضطر فيه إلى ذلك.

كان هذا في ليلة من لياليهما السعيدة. وكان يقضي السهرة في منزلها (إذ أصبح لا يجد ما يكفي لسهراته معها في الخارج).

وفي تلك الليلة أبدت سهام رغبتها في معطف من الفرو كانت قد رأته في إحدى محال الأزياء الكبرى يقدر ثمنه بأكثر من مئتي جنيه.

لم يكن هذا الطلب منها عن احتياج لهذا المعطف فلديها غيره، ولكنها كانت قد شعرت بإمساكه عن البذخ في الأيام الأخيرة وبإقلاله من الهدايا، ورحلات اللهو.

ولعلها ظنته قد مل عشرتها، أو أراد التخلص منها، فطالبت بذلك لتعرف حقيقة أمره..

وطبعاً كان هذا الطلب هيناً ميسوراً لو لم يكن قد وصل إلى ذلك الإفلاس الذي وقع فيه.

obeikandi.com

أما الآن فمن أين له إجابة هذا الطلب؟

وتكالبت عليه الهموم، فاكفهر وجهه، واضطرب قلبه، وحار في أمره، وشد ما آلمه أن يرفض لها طلباً.

ومضت لحظة مريرة حاول فيها إخفاء ما في نفسه، ثم وعدها بتنفيذ هذا الطلب قريباً.

ولحظت سهام كل ما بدا على وجهه من حيرة، وما حاول إخفاءه من اضطراب، فظنت هذا عن تبرم بمطلبها، وخالت ذلك الوعد مراوغة منه وتملصاً.

وعندئذ زادت شكوكها فيه، وامّحت ثقتها به. لكنها أفلحت في إخفاء ما في نفسها، وأظهرت تصديقه. وانتظرت تنفيذ وعده.

ومضى يوم بعد تلك الليلة قضاه محسن بين موائد الميسر لعله يكسب دون جدوى. وأقبل يوم - وهو كما هو - لا يملك ثمن المعطف، ولا يطاوعه قلبه على عدم الذهاب إليها.. ثم كان يوم أسود من الليل، ذلك الذي ذهب فيه إليها معتذراً بعدم إمكانه شراء المعطف شارحاً لها ما وقع فيه من الحجز والإفلاس.

ويا لها من لحظة رهيبة تلك التي مرت بسهام وهي تستمع إلى أقواله التي خالتها تخفي وراءها كذباً وتضليلاً.

وبدأ الشك يستحوذ على مشاعرها وانقبضت نفسها،

واضطرب فؤادها وتخيلت ما تخيلت من أوهام المرأة (العاتية).

ثم دبت في نفسها عوامل الظنون، فخيل إليها أنه يكذب عليها، وأنه قد مل عشرتها، ويزعم ذلك للتخلص منها.

لكن من هو محسن هذا الذي يمكنه أن يتخلص من سهام بهذه السهولة؟ أو يخدعها ويغرر بها، وهي التي طالما كشفت كثيراً من أكاذيب الرجال وخيانتهم، ولم يفلت من انتقامها كاذب أو مخادع؟!

وهنا يخطر ببالها خاطر لم تستطع دفعه، ولم تقو على عدم تنفيذه؛ إذ ترى نفسها مدفوعة إلى عمل تجربة قاسية، تكشف بها عن مقدار كذبه وخداعه.. والويل له إذا كان يبطن غير ما يظهر.

وسرعان ما تخفي ما استولى عليها من شعور الغدر، وتلبس ثوب الخداع، وتتصنع الرثاء لحاله، والشفقة عليه، فإذا ما أفلحت في ذلك راحت في دلال تهون عليه أمر الحجز، وتدعوه إلى عدم التفكير فيه وتعلله بالآمال في عدم دوام هذا الحال.

فما يكاد يسمع ذلك منها حتى يثوب إلى نفسه، ويهدأ قلبه ويداخله شعور بأن (خليلته) تقصد من وراء هذه الأقوال رفع الحجز عنه بما لها من نفوذ عند

أولي الشأن في «مصرف الرهونات» من معارفها وأصدقائها.

وعلى هذا الزعم الباطل يقضي السهرة بمنزلها وهو أكثر ما يكون إعجاباً بها وتقديراً لعواطفها، دون أن يفطن إلى أنها تضمر له أمراً، وتعد له فخاً. وقبل أن تنتهي سهرته معها كانت قد استطاعت بدهائها أن تتفق معه على نزهة خارج المنزل، على أن يوافيها غداً عند الأصيل، في مكان معين (بحديقة الأندلس).

ثم يودعها وهو ممتلئ أملاً وسروراً، وهي ساهمة شاردة، قد امتلأ قلبها بسوء الظن وأوحى إليها بالانتقام.

ولو أنه عاد بعد خروجه، لرأى تلك المرأة التي ظن أنها سترفع الحجز عنه، تدبر له مع فتاة جميلة من أتباعها فخاً أعدته له..

«لكنه لم يعد».

وقبل أن تغادر الفتاة المكان.. كانت سهام قد كلفتها الذهاب غداً بدلاً عنها، إلى ذلك المكان المعين بحديقة الأندلس، لتوافيها بما سيكون من أمر محسن معها، بعد أن زودتها بجميع ما تريد.

* * *

openkandil.com

أصبح صباح اليوم الموعود، وأمسى ليله، وها هي ذي سهام في منزلها ترقب وتنتظر عودة الفتاة بفارغ الصبر.

فما وافت التاسعة مساء، حتى أقبلت صنيعتها، وكانت كاملة زينة الوجه والشعر ترتدي ثوباً أنيقاً، وعلى كتفها نوع من الفرو الثمين بدت فيه كحسناء «أرستقراطية»، تغري الناظر، وتخدع المفتون.

وما رأت سيدتها حتى صاحت في تملق:

- سيدتي.. لقد وقع ما كنت تظنين، وحق عقاب ذلك الخائن المخادع.

فخفق قلب سهام، وهي وإن كانت تتوقع الغدر من محسن فقد كانت ترى في حصوله جرحاً لكرامتها، وإذلالاً لكبريائها، ثم أخفت ما بها وتساءلت:

- أجاء في الميعاد المحدد؟

- لقد كان في الحديقة قبل الميعاد، وكان يبدو عليه أنه على موعد من كثرة ما كان ينظر إلى ساعة يده، ولكنه ما كاد يراني أجلس في المكان نفسه، حتى راح يوجه إلي لفتات الإعجاب، ويختلس النظرات. وما كدت أدعوه للجلوس حتى لبى في سرور ظاهر من حركاته ومن عبارات الشكر الرقيقة.. ولم يمض كثير على جلوسه بجانبي حتى

كان قد نسي من كان ينتظرها، وشغل بمسامرتي، ومرت بنا فترة طويلة عبر فيها عن إعجابه بي، ودعاني في أثنائها إلى قضاء سهرة في أحد المساهر.. دون أن يفكر في سيدتي أو يظهر عليه شيء من ذلك.

فعز على سهام أن تسمع هذه الفتاة تبالغ فيما تقول.

وفهمت الفتاة ما يخالج نفس سيدتها، فراحت تثبت صدق أقوالها بما أوتيت من براهين وأدلة.

وزيادة في الإقناع فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها «زهرة خزفية» ثمينة بنفسجية اللون، على أنها هدية منه ورمز لحبه.

رأت سهام الزهرة في يد الفتاة فاضطربت واستحوذ عليها شعور الحنق والرغبة في الانتقام. فقد كانت تلك (زهرة البانسية) التي أهدتها إليه أول يوم تلاقيا فيه في الحفلة الخيرية..

واستبد بها الغيظ فهتفت في نفسها في حقد:

- آه.. لم أكن مخدوعة، إنه يدعو الفتاة إلى سهرة في الخارج وقد كان يدعي الإفلاس لي، والفقر أمامي، وها هو ذا يهديها زهرتي! لا شك أنه كان يدعي الفقر ليتخلص مني، الويل له من سهام.. الويل له مني.

والتفتت إلى الفتاة وقالت متسائلة:

- والآن.. علام اتفقتما؟
- كأمر مولاتي؛ سيكون منزلي الخاص مسرحاً لتمثيل دور الانتقام، فبعد أن لمست خيانته لسيدتي، وتكشف لي أنه يظهر لها غير ما يبطن، رفضت السهرة التي كان يرجوها الليلة في الخارج، ودعوته غداً لقضاء السهرة في منزلي.. فلا تخشي يا سيدتي شيئاً فلم أزل خادمتك المخلصة الأمينة؛ ودعي هذا الأمر لي، فأنا أعرف ماذا تريدين، وأنا الكفيلة غداً بالانتقام من ذلك الكاذب المخادع.

رسمت مع سيدتها خطة الانتقام وأحكمتا التدبير...

* * *

هذه شمس الغد قد أشرقت.

وتصادف أن أشرقت مع أول الشهر، فكان سرور محسن لا يعادله سرور... وكيف لا يضحي مسروراً وقد دخل اليوم جيبه مبلغ لا يستهان به، مبلغ لا يقل عن عشرين جنيهاً. وهو مقدار الجزء المخصص له وحده كل شهر من راتبه، وسوف يظهر اليوم بمظهر الثراء والبذخ أمام (خليلته الجديدة)، فيا له من طالع سعد، وفال حسن! لقد انزاح عنه غراب الشؤم، تلك التي سببت إفلاسه، وأقبل الطائر الميمون بالخير والرخاء، وها هي ذي (فتاة الحديقة) مطلع يمن وتيسير.

وخرج من تأملاته، ودخل في الموازنة بينها وبين سهام، فصاح في نفسه:

- لا... إنه ليس ثمة وجه شبه، بين تلك الأنانية التي أفلستني بكثرة مطالبها، وبين هذه الحسناء التي رفضت السهر في الخارج، ودعتني إلى منزلها، حتى لا أتكلف شيئاً، ورب مصادفة خير من ميعاد.

وما كاد ينتهي من تلك الخواطر، حتى راح يتهيأ للذهاب إلى موعد (خليلته الجديدة)؛ فارتدى حلة أنيقة، وطوى معطفه ووضعه على يده اليسرى، وأمسك بيده اليمنى قفازين من الجلد الفاخر، وغادر المنزل مترجلاً؛ إذ كان يخشى صعوبة الوصول بالسيارة إلى منزل (تلك الخليلة) الذي يقع في منعطف ضيق.. «وعين الحب عمياء».

وعلى ظلام هذا العمى، أخذ يتحسس طريقه ويتخبط في مشيه حتى وقع في الفخ المعد له بمنزل فتاة الأندلس.

والآن دعنا نترك محسناً في فخه.. وننتظر حتى تعود الفتاة إلى سيدتها حسب الخطة المرسومة بينهما.

* * *

لا تقلق... فنحن الآن عند منتصف الليلة نفسها. وقد أطفئت كل الأنوار في منزل سهام، إلا في حجرة واحدة كانت فيها سهام وخادمتها تسرد على مسامعها ما كان من شأنها مع محسن هذه الليلة وما جرى على يديها..

قالت الفتاة في فرح وتملق:

- لقد انتهى كل شيء، ونجحت خطة سيدتي وأفلح تدبيرها.

- ومحسن ذلك الكاذب المخادع؟ أين هو الآن؟

- إنه سجين الليلة.

- يا لك من شيطانة! وهل أتممت بقية الخطة؟

- لقد نفذت جميع إرشاداتك بكل دقة، فبعد أن جاء محسن إلى منزلي؛ وأرسلت الخادم إليك.. لم يطل بنا السمر حتى داهمتنا الشرطة... ولسوء حظه كان يحوطني بين ذراعيه، بقصد حمايتي... إثر صرخة فزع وبكاء، اصطنعتهما عندما شعرت بهجوم الشرطة. ولما كان في حالة ذهول من أثر تلك المفاجأة، فإنه لم يشعر بسواري الذهبي الذي دسسته في جيبه، ولم يتمكن من تبرئة نفسه أمام الجنود الذين رأوا بأنفسهم ما أثبت شهادة الخدم، وأقنعهم بصدق ما نسبته إليه من تهم.. ثم توجهنا إلى المخفر.

وكانت سهام تصغي إليها في اهتمام، وقد علا وجهها سرور الإعجاب بجرأة الفتاة، وما لبثت أن قالت في تشفٍّ وحقد:

- يا لك من داهية ماكرة... ويا له من غر أحمق...

obeikandi.com

ثم ماذا بعد ذلك؟ ألم يظهر عليك أي اضطراب هناك؟

- كلا... بل كنت أملأ مركز البريئة الصادقة... في حين كان محسن في موقف المجرم المرتبك... وبالأخص عندما أخرج المحقق من جيب سترته السوار الذهبي، وسلمه إلي... وهذا ما ساعدني على أن أطالب بمحاكمته أمام المحكمة.

وأخيراً أفرج عني وبات هو في السجن.

وفي همس أخبرتها بأن محسناً قد ترك في بيتها (معطفه وقفازه)، وانفجرت ضاحكة في سخرية واستهزاء بمحسن، وخمدت جذوة الحقد في نفس سهام، فأحست شعور النصر وتملكها غرور المرأة الغادرة وسلطانها، وراحت تضحك هي وفتاتها في تشف وشماتة وكان قد مضى أكثر الليل فاستلقت على سريرها وقالت في حنق:

- لقد ذهب مع الشيطان إلى حيث... فلم أعد أهتم بشأنه بعد أن انتقمت من خداعه إياي... أما أنت فتلك المخلفات لك وحدك.. وسأزيد أجرك.. وسوف يتضاعف لك الأجر بعد محاكمته.

فبلغ الفرح بالفتاة أقصاه، وهممت لسيدتها بدعاء طويل.

# ٢١

حينما تنفس صباح اليوم التالي لتلك الليلة التي بات محسن فيها داخل السجن، استيقظت إصلاح من نومها بعد الفجر.

فلما لم تجد زوجها قد أتى من الخارج ظنت أن الوقت مبكر؛ إذ لم يسبق لزوجها أن بات خارج منزله.

وفيما هي تحاول استئناف النوم، إذا بها تهب جالسة في فراشها؛ فقد رأت تباشير الصباح تنساب في الحجرة.. وطلائع النهار تلوح في السماء، فأيقنت بمبيت محسن خارج منزله.. ودب في نفسها الهم، وتزاحمت عليها الأوهام والظنون، وظلت حائرة لا تدري سبباً لهذا المبيت في الخارج ولا تستطيع تعليله، ويزيد ضيق صدرها وترهقها الوحدة، فتصمم على الاتصال بأسرتها لتخبرهم بهذا النبأ الغريب.

وأمسكت سماعة الهاتف، وقبل أن تدير القرص غلبها الاعتماد على الله فأعادتها مكانها، مخافة أن تقضي على والدها الذي ساءت صحته، وزاد مرضه. ومرت لحظة تتناوبها الظنون ثم عادت إلى سريرها

obeikandi.com

مطرقة، تستعيد بالذكرى الحال التي كان عليها زوجها أمس قبل خروجه، لعلها تهتدي إلى سبب هذا المبيت.

إنها لتذكر ملامح وجهه حينما كانت نازلة إلى حجرة الاستقبال ومعها يسرية ليستقبلا السيدات اللائي جئن لسماع درس الدين الأسبوعي، إنه لم يكن يبدو على قسمات وجهه شيء غير عادي.

-مع أن وجهه كان عبوساً مقطباً، وهو يسلمني راتب المنزل الشهري، فليس في ذلك جديد هذه الأيام، وإن كان قد أخذ في جيبه جميع مبلغه الخاص به طوال الشهر، فكثيراً ما يفعل ذلك.

وأخيراً رفعت رأسها، وقد هدأت نفسها هدوء العاجز المستسلم للقضاء. وأسرعت لتسابق بصلاتها طلوع الشمس.

وكان من عادتها الاستحمام كل صباح قبل الإفطار، ثم تعود إلى سريرها لتقرأ ما اعتادت أن تقرأه كل يوم من القرآن.

وقبل أن تنتهي من القراءة، أقبلت دادة حليمة، كبيرة الخدم، وقد كانت مربيتها منذ طفولتها ولازمتها بعد زواجها. فكانت لها بمثابة أم حنون وحيتها قائلة:

- طاب صباح سيدتي.

- طاب صباحك يا أماه.

وجلست لتؤنسها وتزيل وحشتها.

وكانت قد حضرت درس أمس الديني، وفهمت من «الأستاذ» معنى الآية الكريمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات: ١٢/٤٩].

فلم تشر إليها عن زوجها بما يزيد في آلامها من الريبة والظنون، ولم تتكلم بما يعد غيبة ونميمة في حقه، بل صرفت عنها كثيراً من الأفكار، ولم تتركها حتى تناولت طعام الإفطار.

وفي تلك الفترة كان الهرج قد بدأ بين باقي الخادمات حول مبيت سيدهن خارج البيت.

واجتمعت «فاطمة الطاهية بناعسة ومبروكة وأم علي» والتففن بعضهن حول بعض، وفي أيديهن المكانس وأدوات التنظيف. وراحت كل منهن تتكلم بما توحيه إليه نفسها؛ فمن قائلة: لا شك أنه تزوج. ومن مشفقة: لهف نفسي على سيدتي الصابرة. ومن متشفية: لا بد له من يوم فالله لا يترك ظالماً ولا مظلوماً. ومن موافقة ومن مخالفة.

وأخيراً، واللجاج بينهن قد بلغ منتهاه، أقبلت خادمة خمرية اللون ممتلئة الجسم، من خدم زينات هانم

تستأذن في مقابلة سيدتها إصلاح.. فصمتن عند رؤيتها، وانفرط عقدهن.

دخلت الخادمة الحجرة التي بها إصلاح في حال يرثى لها: وجهها أصفر، وشفاهها باهتة وعيناها محمرتان.

وانحنت على إصلاح تقبل يدها وقدمها، وصاحت باكية:

- سيدتي ليس لي غيرك في الوجود ينقذني مما أنا فيه.

فنظرت إليها إصلاح في دهشة قائلة:

- ما وراءك يا خضرة؟ اهدئي أولاً، ثم قولي ما تشائين.

- بارك الله فيك يا سيدتي، فأنت ملجأ الضعفاء وناصرة المظلومين.

فزادت دهشتها ونظرت إليها مبهوتة في قلق.. واستطردت الفتاة قائلة:

- اغفري لي يا سيدتي تلك الجرأة فإن مصيبتي كبيرة، وعاري عظيم، وأقسم أنه ليس لي ذنب في ذلك، فهو الذي اغتصبني، واعتدى على شرفي. والآن جئت إليك محتمية بك بعد أن طردتني سيدتي زينات هانم مجردة من كل شيء.

وجعلت تهذي وتتمتم:

- آه يا ربي! الموت ولا الفضيحة. كيف أعيش يا إلهي، وأين أذهب، وليس لي أحد في الوجود، وإلى من ألجأ وقد طردتني سيدتي زينات هانم؟

وأجهشت بالبكاء ثانية.

وكانت إصلاح في حيرة من أمر تلك الفتاة الغامضة... فلما رأت بكاءها، زادت حيرتها وساورها القلق، وفي شفقة ورثاء اقتربت منها مهدئة وقالت:

- لكنك «يا خضرة» لم تخبريني من هو ذلك المجرم الذي اعتدى عليك؟

- آه يا سيدتي... إنه سي... سيد... سيدي سامي بك هو والد الطفل الذي يتحرك في أحشائي.

وصعقت إصلاح لذكر اسم أخيها، ودارت الدنيا في عينيها، وصاحت في استنكار:

أخي؟.. أخي سامي؟ هذا فظيع.. وهل أنت واثقة من ذلك يا خضرة؟.. إياك أن تقولي زوراً وبهتاناً.

- أقسم لك يا سيدتي إن هذه هي الحقيقة، ولكنه أنكر عندما سألته زينات هانم عن ذلك، فطردتني، وحذرتني من أن تراني في أي مكان، فجئت لك والأمر إليك.

obeikandi.com

وتمتمت في بكاء:

- بارك الله فيك يا سيدي حسين بك؛ فوالله يا سيدتي قبل زواجه ما دخل حجرتي يوماً، وما كلمني بريبة قط.

وكانت إصلاح تستمع إليها في تأثر وقد استحوذ عليها شعور الشفقة ونداء الإغاثة، ماذا تفعله لتلك البائسة؟ وأين تؤويها لتستر عارها، وأطرقت عليها مفكرة، وساد الصمت بينهما، وفجأة رفعت رأسها وهبت واقفة كمن اهتدت إلى ضالتها.

وما هي إلا فترة وجيزة حتى كانت قد أمرت السائق بإعداد السيارة وأخذت الخادمة، وتوجهت بها إلى مدينة (السعادة).

أتذكر هذه المدينة؟

لعلك لم تنس تلك الضيعة القريبة من القاهرة، التي كان شاكر باشا قد تبرع بها لجمعية (المسلمات المجاهدات) تلبية لرغبة ابنته إصلاح لتؤسس عليها هذه المدينة... وأظنك في شوق لمعرفة ما كان من أمرها بعد أن قامت سيدات الجمعية الموسرات، بتأسيسها من مالهن وحدهن.

لقد أصبحت تلك المدينة ملجأ المحتاجين وبيت من لا بيت لهم ولا معين.

obeikandl.com

ودخلت خضرة قسم اللاجئات بهذه المدينة على أنها فقيرة مات زوجها وليس لها عائل.

وبقيت إصلاح (في المدينة) فترة تتفقد أحوالها، وقد سرها وفرة الإنتاج بفضل تعليم اللاجئين واللاجئات الحرف المختلفة. كما سرها قلة عدد الجرائم بفضل التهذيب والإصلاح بتعاليم الدين.

وعندما عادت إصلاح إلى منزلها، أخبرتها دادة حليمة بأن محسناً قد اتصل هاتفياً من مكتبه وأنه سيأتي في ميعاده بعد الظهر.

obeikandl.com

## ٢٢

عاد محسن إلى داره مثقلاً بالهموم والأفكار بعد مبيته أمس داخل السجن، وقد أفرج عنه بكفالة مالية حتى يحين ميعاد الجلسة.

وكان شبح السجن لا يزال يتراقص أمام مخيلته، فجعل يتطلع إلى جنته بعينين حالمتين، وعاوده الحنين إلى حوريته الجميلة.

ودخل منزله تحمله ساقاه اللتان أضعفهما الوقوف معظم الليل، وتجره قدماه بخطوات ثقيلة إلى حيث يستشعر الراحة ويلتمس الحنان، وأقبل على زوجته في شوق ولاقاها كما كان يفعل في أيامهما السعيدة، وكان التعب قد بلغ به منتهاه فتهالك على سريرها مرهقاً وقد بدا على وجهه أثر الهم.. ودلائل الأسى، وكان كناهض من مرض أو كمن أرق الليل كله؛ تغلب الصفرة على وجهه، ويظهر شيء من الحمرة في بياض عينيه، فتلقته إصلاح بدهشة يخفيها هدوء ورزانة ولم تتكلم.

ومرت بهما فترة صمت شامل قطعه محسن باعتذاره عن مبيته في الخارج بصوت خافت متقطع

obeikandi.com

الكلمات، وكان قد عزم على إخفاء ما جرى له أمس، فاختلق لها عذراً يدور حول وفاة أحد أصدقائه الأعزاء.

ولما كان في حال من الإعياء والجوع، فإنها لم تعلق على ما سمعته، واكتفت بهذا القدر ريثما يتناول غداءه وتعود إليه حيويته.

ثم أخذتها الشفقة عليه، والرأفة بحالته فأعانته على تبديل ملابسه وقدمت له الغذاء في سريره.

ولا شك أن قيام هذه الزوجة النادرة بهذا العمل المثالي، والظهور بذاك الشعور النبيل بعد الذي كان من أعمال زوجها، لمما يثير عجبك ويدعو إلى دهشك.

ولكنك لو سألتها حينئذ عن السبب في هذا التسامح، ولماذا لا تعامله بما يناسب أعماله؟ أو من جنس أفعاله؟ لأجابتك بأنها تفعل ذلك لأنها تعرف أن عليها واجبات ومسؤوليات لا بد أن تحرص على أدائها، ولو قصر زوجها في واجباته، طاعة لربها الذي قال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥/٥].

ولهذا كانت لا تقصر إلا فيما تراه منافياً لتعاليم الدين ويغضب الله.

وأثناء الأكل أعاد محسن الحديث حول الحادث الذي سبب مبيته في الخارج.

وكان قد بدأ يشعر ببعض النشاط؛ فجعل ينسج لها قصة وهمية مثيرة عن وفاة صديقه الوهمي، وأنه كان ملازماً له طوال الليل، إلى أن دفن في الصباح، لعدم وجود أقارب له، حتى جاء على ذكر المعطف، والقفاز، والنقود التي كانت داخل المعطف، فأخبرها أن خادم هذا الصديق قد سرق كل هذه الأشياء في أثناء انشغاله بالمحتضر وأنه لم يعثر له على أثر.

وكان أسلوب قصته غاية في الحبكة ومثيراً للأحزان، فلم تأخذها الريبة في أقواله، بل تقدمت إليه معزية مواسية، ثم تركته ليستريح بالنوم.

وفي الصباح تراه وقد تخفف من بعض همومه بتصديق زوجته، واستعاد نشاطه بالنوم، يقبل عليها على غير عادته في الأشهر الأخيرة؛ يحادثها في شؤونها الخاصة ويبدي ارتياحه لزيارتها «مدينة السعادة» أمس.

ومن المدهش أنه لم يكتف بذلك، بل راح يسألها في اهتمام عن هذه المدينة وعن أعمالها فيها.

وعلى مائدة الإفطار قال مستفهماً:

- لقد سمعت من قبل أن سيدات الجمعية هن اللائي

قمن بتأسيس تلك «المدينة» من مالهن وحدهن. ولكن الذي يهمني الآن، هو معرفة المصدر الذي تحصلن منه على المال اللازم لمعيشة اللاجئين ما دمتن لا تعملن حفلات خيرية ولا تجمعن تبرعات مالية.

وكانت إصلاح تستمع إليه في دهشة ممزوجة بفرح خلعه اهتمام زوجها بأعمالها الدينية على غير عادته؛ فما صمت حتى أجابت قائلة:

- يسعدني أن أرى منك اليوم هذا الاهتمام، ويسرني أن أخبرك عما تريد. أجل يسرني ذلك إذ إن مشروع هذه المدينة في الواقع يعد جديداً في نظمه، وكفالة اللاجئين تعتبر غريبة في اتجاهها، وذلك لأنها تنتحي ناحية دينية قلما تخطر ببال أحد.

وتوقفت لحظة، فلما رأت اهتمامه قد أخذ عليه مشاعره تابعت:

- فالإسلام، ولو أنه فرض الإحسان وأوجبه على الغني الموسر، إلا أنه لم يأمر الفقير بأن يستجديه، أو يتقاعد عن العمل في انتظار ما تجود به أكف المحسنين، والتحايل على المتبرعين بأنواع الحفلات الماجنة ومختلف المغريات المفسدة، وفي ذلك قال ﷺ:

«لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

هذا هو الإرشاد الحكيم، والهدي النبوي الكريم الذي رأت سيدات الجمعية أن يجعلن منه دستوراً يسرن عليه في محاربة (الفقر) واستئصال رذيلتي (الطمع والتواكل) من نفوس اللاجئين.. أقول رذيلتي الطمع والتواكل دون غيرهما لأن المرء إذا حفت بنفسه الأطماع، واستساغ الكسل، دب في قلبه الحقد والحسد، وجميعها تربة خصبة لنمو بذور كثير من المبادئ الخطرة، والبدع الهدامة التي تنافي تعاليم الدين وخلق الإسلام.. لهذا أنشأن بالمؤسسة الحقول والمراعي بعد أن أسسن المباني التي تضم بين جدرانها الوسائل اللازمة لمختلف الحرف والمهن الصناعية والتجارية والزراعية؛ ووسائل الترفيه.

وكان محسن معجباً من أقوالها، فمضى يرنو إليها في إعجاب وإصغاء على حين استطردت قائلة:

- ولما كان العمل وحده لا يكفي دون توجيه حكيم وإرشاد قويم وهذا لا يتأتى إلا إذا اقترن العمل باتباع (كتاب الله وسنة رسوله) كان اتباعهما هو دستور تلك المؤسسة، وهدفها الأول في الإصلاح.

ولهذا لم يمض العام حتى أثمر المجهود، وكان

الكسب الحلال، ثم كان أن شعر كل فرد بأنه مسؤول عن نفسه، غير معتمد إلا على ربه وعمله.

وختمت حديثها بقولها:

- ولعلك فهمت الآن السبب الذي من أجله لا نحتاج في كفالة اللاجئين إلى إعانات مالية، أو إقامة حفلات باسم الخير.

فارتسمت على وجه محسن دلائل الاقتناع، وأثنى على مجهودها.

وكانا قد فرغا من الطعام فصعدا إلى حجرتهما.

ومن العجيب أنه أمضى بقية هذا اليوم مقبلاً على زوجته كما كان يفعل في أشهرهما الأولى، حتى إنه لم يخرج من المنزل إلا إلى عمله وعاد منه إلى المنزل مباشرة.

ومشت حياة الزوجين بعد ذلك هادئة رتيبة متشابهة، فكان لا يتردد إلا بين مكتبه ومنزله، لا يخرج بعده إلا مع زوجته لعيادة والدها الذي أصبح في أيامه الأخيرة، أو إلى بعض دور السينما التي تروقها.

وتغلب العقل - فأهمل أمر سهام - وعاد إلى الاهتمام بزوجته المحبوبة.

واستمر على هذا الحال قرابة أسبوعين شعرت

ooeikandl.com

إصلاح خلالهما بالسعادة الزوجية تعاودها من جديد، واستعاد محسن فيها صحته وزايله الضعف والشحوب.

وفي نهاية هذين الأسبوعين جلس الزوجان بعد العشاء في شرفة الفيلا النائية عن الجيران وكان الجو معتدلاً - ونسيم الليل يهب رقيقاً معطراً - فامتد بهما السمر، وغمرتهما نشوة من السرور، وشعرا بسعادة تشرحها الجلسة الهادئة، ويعبر عنها الثغر الباسم.

والحق أنها كانت جلسة ممتعة رأت إصلاح فيها من اهتمام زوجها بها وإظهار حبه لها، ما أعاد إليها ذكريات الأشهر السعيدة، وجعلها ترسل إليه من عينيها الساحرتين نظرة تفيض بالحب والأمل كأنها تقول: أرجو أن تدوم علينا هذه السعادة. لكنها أحست هاتفاً يهتف في نفسها: هيهات أن تدوم! فاضطربت وأخفت اضطرابها.

وفي تلك الجلسة الجميلة أفضى محسن إلى زوجته بعزمه إلى إقامة (حفلة شاي) في الأسبوع المقبل تكريماً لأحد أصدقائه الممتازين بسبب تعيينه (سفيراً في الخارج)، وأخبرها بأنه سيحضر هذه الحفلة كثير من العظماء وعقيلاتهم، وطلب إليها القيام بإعدادها وتنسيقها بما يعهده فيها من الذوق والمهارة في مثل هذه المناسبات.

وكعادة إصلاح لم تشأ أن تجيبه قبل التثبت من أن هذا الطلب لا ينافي تعاليم الدين.

ولجأت إلى عقلها.. فجعلت من نفسها سائلة ومنه مسؤولاً، وراحت تسأله ويجيبها:

- حفلة خاصة بتكريم صديق زوجي، فماذا في ذلك؟

- لا شيء؛ فتكريم الأصدقاء واجب لزيادة توثيق الصلة ورابطة الأخوة، وبهذا يأمر الدين.

- وماذا في إعداد الموائد الخاصة في تلك الحفلة؟

- لا بأس بهذا أيضاً إذا كان يقصد منها إكرام الضيف، فالرسول يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

- إذن فلا إثم ولا معصية في إطاعة زوجي فيما طلب الآن.

وأجابت بالقبول.

وكان القمر قد بعد بنوره، وأظلمت الشرفة، فقاما ودخلا حجرة النوم.

* * *

وتلاحقت الأيام.. وكلما مر يوم اقترب ميعاد الحفلة، حتى إذا لم يبق على ميعادها سوى يوم،

obeikandl.com

وبعض يوم، كانت إصلاح قد انتهت من معدات الحفلة وقامت بتنسيقها أجمل تنسيق.

وعاد محسن من مكتبه، ولا تسل عن مقدار فرحه وهو يجتاز ردهة الطابق الأول حينما شاهد معدات الحفلة ونظامها البديع.

ويا لها من لحظة سارة تلك التي مرت به وهو يصعد الدرج مسرعاً.. إنه لمعجب بكل ما أعدته من تنسيق وإبداع.

وما أوفقها من فرصة يغتنمها؛ إنه سوف يقدم زوجه الحبيبة إلى أصدقائه كما يقدمون له زوجاتهم.

واطمأنت نفسه ورقص قلبه.

وفي خفة الطائر طارت به قدماه إلى الطابق العلوي دون أن يحدث صوتاً؛ لكي يفاجئ زوجته المحبوبة بقبلات الشكر وعبارات الإعجاب، وهنا توقف مبهوتاً.. فقد رأى أمامه إعداداً مماثلاً تماماً للإعداد الذي بالطابق الأول.. ما هذا الذي أراه؟ وما تقصد بهذا الإعداد الرائع والحفل البديع الذي رسمته؟.. أن يكون بالطابق الأول للرجال بإشرافي!! على أن يكون مثله في الطابق الثاني للسيدات بإشرافها!! ياالهول المفاجأة! وأين معدات الخمر!! إنه لا أثر لها على الموائد، حفل بلا خمر ولا اختلاط؟ كيف يكون ذلك؟ إنه لا يتصور

الآن نظرات أصدقائه العصريين وعقيلاتهم، إنها نظرات تشع بالسخرية والتبرم من ذلك الجو الرجعي البغيض.. هذا مستحيل، ولا يمكن أن يكون.

ودخل على إصلاح مكتئباً ساخطاً، وأقبل عليها يلومها ويحملها على ضرورة ظهورها أمام أصدقائه ومخالطتهم في هذه الحفلة.

واشتدت المناقشة وعادا إلى سابق اختلافهما؛ إذ راحت إصلاح تحثه على وجوب الابتعاد عن محارم اللّه، وراح هو يسخر منها ويرغمها على ما يريده ويهواه.

وأخيراً، وبعد مجادلات لا فائدة منها، تذكرت إصلاح الحديث الشريف الذي تلوذ به كلما عجزت عن إصلاح الغير:

«ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر. حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه، فعليك نفسك».

فصمتت واكتفت بإصرارها على عدم ظهورها أمام أصدقائه في هذه الحفلة.. وخيم الصمت.

ونزل غاضباً دون أن يتناول غداءه.

وقبل أن تطأ قدماه عتبة الباب توقف فجأة.. فقد تذكر تكاليف هذه الحفلة وما تحتاج من نقود.

فمرت بخاطره أملاكه المرتهنة وديونه، ثم نقوده التي سرقت منه في تلك الليلة المشؤومة، وأطرق حائراً.

ثم بدت الحيرة أكثر وضوحاً، لقد كان قيام زوجه بإعداد الحفلة معناه أنها ستقوم بجميع تكاليفها من مرتب المنزل، ولو لم يتكلما في ذلك، أما الآن، فمن أين له نقود إقامتها؟ واستمر حائراً، يقلب الأمر على جميع الوجوه، فلا يجد له حلاً، فيا لها من لحظة مريرة، ماذا يعمل؟ وكيف يتصرف؟ لقد ضاقت به الدنيا، وسدت عليه السبل، واستبد به اليأس.

وأخيراً وقد تخلى عنه الأمل.. وقع بصره على إصبع يده اليسرى فرأى خاتمه (الماسي) الثمين، فجعل يحملق فيه لحظة، ثم هب واقفاً، لا حل إلا في رهنه، وغادر المنزل.

وعزم على إقامة الحفلة بفندق (شبرد).

وكانت مخالفة زوجته له قد أعادت إليه الحنين إلى سهام، فأرسل إليها اعتذاراً عن تقصيره وبه بطاقة دعوة.

ودخلت إصلاح حجرة المائدة بعد خروج زوجها بمفردها وجلست أمام المائدة. وبدلاً من أن تأكل أخذت تستعرض ما كان بينها وبين زوجها من خلاف.

openkandil.com

وكانت تصرفات زوجها قد أخمدت شهيتها للطعام، فلم تنظر إلى ما أمامها من ألوانه المختلفة.

وكان إلغاء الحفلة قد قضى على أحاسيسها الدينية فأسلمت نفسها لأفكار لم تكن من قبل تفكر فيها.

وما هي إلا لحظات حتى أخذ ينقلب غضبها من زوجها إلى لوم نفسها من أجله، وتفكيرها في أعماله وأقواله يتحول إلى ندم على ما فرط منها نحوه.

ترى أي شعور ذلك الذي سبب لها هذا التغيير؟

لقد هبط عليها الشيطان في تلك اللحظة محاولاً إيقاعها في المعاصي بأسلوب جديد ومن طريق غريب، ذلك هو طريق العاطفة، «وإذا تحكمت العاطفة وقع المحظور»، فراح يصور لها مخالفتها رغبات زوجها جحوداً منها لمعاملته الطيبة، ورفضها لمطالبه غلظة وجفاء، فلو أنها وافقته على عمل هذه الحفلة، كما يريد، ما فكر في إقامتها في الخارج، ولو اتبعت ما يرضيه ما تركها لحظة، وأنها بهذه الأعمال سوف تفقده وتفقد حبه؛ وأنه لن يعدم أن يجد أخرى توافقه فيما يريد، فلماذا لا توافقه فترضيه وتسعد معه!

وهكذا استمر الشيطان يوسوس لها حتى أوقعها في حيرة شديدة ظلت بسببها فترة حائرة بين أسفها على إغضاب زوجها، وحرصها على إرضاء ربها، واستمر هذا

حالها حتى هب عقلها (وعقل المؤمن لا تدوم غفلته) وفي الحال دعاها للسير في الطريق الذي يرضي اللّه دون سواه بعد أن أوحى إليها بذكرى الحديث الشريف:

«من التمس رضاء اللّه بسخط الناس كفاه اللّه مؤنة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط اللّه وكله اللّه إلى الناس».

فما لبثت أن استجابت لعقلها واختارت رضاء ربها، وليفعل زوجها ما يشاء.

وفي الحال فترت حماسة اللوم وتنفست الصعداء، وبخاصة عندما تذكرت أن يوم الحفلة سيوافق أول أيام رمضان. وأقبلت على الطعام بعد أن أمرت الخدم برفع معدات الحفلة لإلغائها.

obeikandl.com

## ٢٣

ظل محسن أثناء (حفلة الشاي) التي أقامها (بفندق شبرد) قلقاً لتأخر حضور سهام مشغولاً بأمرها.

ولما انتهت الحفلة عند الفجر ولم تحضر سهام، ولم تعتذر، أيقن من إصابتها بمكروه، وخيل إليه أن هذا المكروه هو الذي أقعدها عن الوفاء بوعدها في حديقة الأندلس ومنعها من الحضور إلى هذه الحفلة. وعندئذ شعر بفيض من اللهفة إلى رؤيتها، وصمم على زيارتها بالمنزل بعد عودته من مكتبه!

وبعد الظهر.. خرج محسن قاصداً منزل سهام، وكان من عادته ألا يأخذ سيارته في مثل هذه الزيارات، فركب سيارة أجرة، وهناك صعد بالمصعد إلى شقتها في الطابق السابع وأخرج من جيبه مفتاحاً اعتاد أن يفتح به الباب كلما كان يحضر إليها.. وفي شوق ولهفة دخل تواً إلى حجرتها كعادته، وكان بابها مغلقاً.. فأدار المقبض.. وانفتح الباب.. وقبل أن يجتاز عتبتها.. وقف ببابها مصعوقاً.. ثم تراجع مبهوتاً.. وكانت صدمة لمحسن.. أن رأى أمامه سهام تلك التي ضحى من أجلها بكل شيء: (زوجه، وماله، وشرفه)

تجلس في خلوة مع رجل طويل القامة، أسمر اللون، حليق الشارب، وأمامهما زجاجات الخمر، وكؤوس الشراب. وبمجرد رؤيته ذعرا واضطربا، ثم هبت سهام واقفة، وسرعان ما جمعت قواها، ودفعت به بعيداً عن الحجرة، وهناك صاحت في غضب:

- بأي حق تدخل بيتي وتقتحم حجرتي، دون استئذان أيها الوغد الخائن!!

فكاد يقع على الأرض لولا أن تمالك نفسه، وصاح في حنق:

- اخرسي أيتها الفاجرة، أنت الخائنة، وقد رأيتك بعيني.

فضحكت ضحكة عالية مبتذلة، ونظرت إليه ساخرة وقالت:

- أنا الخائنة أم من تدهمه الشرطة مع فتاة ساقطة في منزل حقير؟

فدارت به الأرض، وغلى دمه في عروقه، لكنه جمع شجاعته واقترب منها والشرر يتطاير من عينيه وقال مهدداً:

- لا تتلفظي بقول وإلا حطمتك بيدي.

فزاد رنين ضحكها المبتذل، وقالت في جرأة:

- إذا لم تخرج حالاً فسأرشد عنك الشرطة هنا..

كما أرشدته وأنت في منزل فتاة الأندلس.. لتعرف قدر سهام التي حاولت خداعها.. اخرج أيها الوغد وإلا فسأنادي صديقي، وخدمي، ليحملوك على الخروج.

وأجهز هذا الاعتراف على ما بقي من أعصاب محسن فكاد يجن.. وأراد أن يتكلم فلم يجد القدرة على تحريك لسانه، واستنجد بقواه فخانته، وسمع وقع أقدام صديقها تقترب فلم يجد بداً من الانصراف.

وما هي إلا برهة حتى كان هائماً على وجهه، يذرع الشارع جيئة وذهاباً وهو لا يعي شيئاً مما أمامه، ولا يدري كم من الوقت مر به وهو على هذا الحال، ومضت فترة ذهول أخذ بعدها يسترد قواه شيئاً فشيئاً. وأحس ذاكرته تعود إليه، وعندها بدأ يفكر في هذه الغادرة، وفيما يفعله بعد أن عرف السبب الذي دفع (بفتاة الأندلس) إلى اتهامه بالباطل.

وكان حتى هذه اللحظة لا يعرف سبباً لتلك التهم التي وجهتها إليه الفتاة، أما وقد أدرك أنه كان ضحية فخ دنيء نصبته تلك المرأة الفاجرة فلا بد من التبليغ عنها انتقاماً لشرفه، ولتبرئة نفسه.

إنه ليفكر في هذا كله، ولكنه لا يلبث أن يعدل عنه، مخافة وقوعه في جريمة أخرى، حيث لا شهود معه ولا دليل.

obeikandl.com

وتعود به الأفكار وهو سائر إلى التفكير في زوجته، فينحي باللائمة عليها.

أليست هي التي ألجأته إلى البحث عن امرأة تتفق مع ميوله، وتماشي رغباته، لا شك أنها هي الآثمة، لو كانت زوجة وفية لضحت برغباتها في سبيل رغباته، ولو كانت مخلصة لما خالفته وسببت نكد عيشه، أتراه غافلاً عن قصدها يوم أن استأذنته في تأدية فريضة الحج هذا العام؟ لو أنها كانت تحبه ما فكرت لحظة في فراقه، لكنها لم تزد عن كونها امرأة (والنساء كلهن نفاق).

وينتبه، فيجد نفسه سائراً إلى الطريق الذي عاد منه.

واستمر هذا حاله حتى ينتهي به المطاف إلى أول حانة صادفها، فتهالك على أحد مقاعدها أمام مائدة صغيرة، وأخذ في احتساء الكأس تلو الكأس لينسى همومه وأفكاره.

ومنذ تلك الليلة هام محسن على وجهه، وانقاد لهواه، فأسرف في الشراب، وارتياد أماكن الميسر، ودفعه سوء ظنه في إخلاص زوجه إلى إهمالها، فأطال سهره في الخارج، وكثر احتجابه عن المنزل، وجره التمادي في الغفلة عن ذكر الله، إلى قضاء شهر رمضان في معاقرة بنت الحان، ومصاحبة إخوان الشيطان.

وهكذا بعد محسن عن طريق الخير، فتلقفه الشيطان وأضله ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦/٤٣].

وكذلك ينتقم الله بأنواع المعاصي من الذين يحيدون عن طاعته، ويتبعون هوى نفوسهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢/٣٣].

والآن هيا نترك محسناً مع شيطانه، ونعد إلى زوجته لنرى ما كان من شأنها بعد هذا الانقلاب الجديد.

* * *

كانت إصلاح تعرف أن لعمل الخير في رمضان أجراً مضاعفاً أكثر من غيره من الشهور، وتعلم أن له حرمات من الحتم مراعاتها وإلا نقص من أجر الصوم وضاع ثوابه، من أجل ذلك كانت تراعي أن تصوم نهاره صوماً منزهاً عما يبطله من المنكرات والمحظورات، وتقوم في ليله تطوعاً واحتساباً. وكان لها في إطعام الفقراء طوال أيامه صورة كريمة، فكنت ترى كل يوم وقت ميعاد الإفطار عدداً من المساكين في ضيافتها يأكلون، وقد اجتمعوا في حجرة بالبدروم حول مائدة كبيرة بإشراف كبيرة الخدم، حتى إذا قرب ذلك الشهر من الانتهاء لم يفتها إخراج زكاته عنها وعمن تعول من خدم المنزل.

ولقد استطاعت طوال هذا الشهر أن تسيطر على نفسها، فلم تدع للهم وإهمال زوجها سلطاناً على عقلها، وكانت قد اتخذت من وحدتها مجالاً لبث روح الإيمان بين خدم المنزل جميعاً، فلم ينته هذا الشهر حتى كان الإيمان رائدهم والتقوى تغمر قلوبهم.

وانتهى شهر رمضان.. وقام محسن بإجازته السنوية ليقضيها في رحلة إلى الخارج.. وكان قد اقترب ميعاد الحج، فاستعاضت إصلاح عن سعادتها الزوجية المسلوبة، بأمانيها في حجها المنتظر، وإعداد معداته ولوازمه.

وكانت السيدات قد واظبن على الحضور إلى منزلها لسماع درس الدين الأسبوعي، فكان لها من ذلك كله عون على تخفيف هجر زوجها لها وإهماله إياها.

* * *

وتتابعت الأيام وقرب ميعاد سفر الحجاج، وفتحت إصلاح منزلها لآخر درس ديني إذ لم يبق على سفرها إلى الحجاز سوى ميعاد قيام الباخرة التي ستقلها هي ومن معها من السيدات (أعضاء جمعيتها).

وفيما كانت تستعد لاستقبال السيدات إذا بجرس الهاتف يصل إلى سمعها، وإذا بها تسمع صوتاً نسائياً مألوفاً لديها، ومحبباً إليها؛ عرفت فيه صوت صديقتها الأستاذة سنية المحامية فلم تتمالك نفسها وقالت:

- سنية؟ يا لها من فرصة سعيدة!؟

وتدفق الشوق، وتبودلت التحيات، وبدأت الأستاذة الحديث قائلة:

- محسن بك موجود؟

- كلا يا سنية، هل من داع؟

- كنت أريد أن أسأله بعض أسئلة خاصة بالقضية.

- القضية؟ أي قضية تعنين؟

- ياللذاكرة يا إصلاح.. القضية التي بات زوجك بسببها ليلة في السجن منذ أكثر من شهرين.

وطبعاً لم تكن إصلاح تعلم شيئاً؛ فصمتت لحظة تفكر (سجن؟ متى؟) وعادت بذاكرتها على ضوء تلك المدة فوجدتها تتفق مع أول ليلة بات فيها زوجها في الخارج بحجة موت صديقه، وقالت دون شعور:

- آه.. تذكرت.

وسمعت الأستاذة قولها فواصلت حديثها قائلة:

- يؤسفني أن أخبرك بأنني منتدبة من قبل المرأة.. كما يؤسفني إخبارك بأن التهم ثابتة عليه، ومن أجل هذا وذاك كنت أرغب في التحدث معه، لعلي أجد ما أستطيع أن أعمله لمصلحته في هذه القضية.

obeikandl.com

فران على إصلاح وهن لم تستطع أن تفهم خلاله شيئاً وأردفت قائلة:

- إنني آسفة يا صديقتي لأني في الواقع لا أعلم بشيء مما تقولين.

- ماذا؟ ألم تقولي تذكرت؟

- أقصد تذكرت ليلة مبيته خارج المنزل فقط.

فأسقط في يد الأستاذة؛ وقد كانت تعتقد أن إصلاح تعلم بظروف هذه القضية، أما وقد تبين لها عكس ما كانت تعتقد، فإنها ندمت على تسرعها، وداخلها شعور بأن محسن يخون زوجته في الخارج، وأنه لهذا يخفي عنها أسراره.

وفي الحال وجدت في نفسها ميلاً إلى الانتقام لصديقتها منه، فقالت معتذرة:

- إصلاح إني آسفة يا عزيزتي لإزعاجك، وقد كنت أظنك تعرفين أسباب تلك القضية، ولكن هذه إرادة الله الذي لا يخفى عليه شيء، وقد أراد أن تعلمي، ولا يسعني تجاه ذلك إلا أن أخبرك بجميع التفاصيل.

وأخبرتها بتفاصيل القضية كما هي مدونة في المحضر، وكما سمعتها من موكلتها.

obeikandl.com

وختمت حديثها بقولها:

- فما استبان لي أن المتهم زوجك حتى سارعت بالتحدث معك لعلي أقف على ما يمكنني أن أعمله نحوه إكراماً لصداقتي لك، أما الآن فإني أحمد اللّٰه أن جعل في يدي القصاص منه. وسأعرف كيف ينال جزاءه.. وأنا تحت أمرك في كل ما تريدين.

ويا لها من لحظة تلك التي سمعت فيها إصلاح نبأ خيانة زوجها.

وما أقسى هذه الأخبار على أي زوجة مهما أوتيت من شجاعة وصبر، وأي شعور يستحوذ عليها أكثر من شعور الانتقام، والرغبة في الإيذاء؟ وها هي ذي الفرصة سانحة لإصلاح، وفي يدها القصاص، وها هي ذي صديقتها تزين لها ذلك؛ وتنتظر موافقتها.

لكن الإسلام دين العدل، دين قول الحق وعدم الظلم، وإصلاح (ذات دين) عظيم، وخلق كريم، وضمير حي، وقد لمست من قصة صديقتها أنه ربما كان فيها شيء من التلفيق ضمن التهم الموجهة إلى زوجها، فحاولت السيطرة على أعصابها.

وتناست كل شيء؛ إهمال زوجها لها، وسوء معاملته لها وخيانته وكذبه، ولم تذكر إلا قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ(١) شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٥/٨].

وقالت بعد لحظات من صمت وتفكير:

- لقد فهمت من أقوالك يا صديقتي أن المرأة تتهمه بما يمكن أن يكون بريئاً منه، وبخاصة اتهامها إياه بالسرقة، ويؤيد هذا ما أعرفه عنه في ذلك اليوم، فقد سرقت نقوده ومعطفه وقفازه؛ وإذن فهو المسروق لا السارق، لهذا أرجو أن تهتمي بإظهار الحق، لا من أجلي ولا من أجل محسن، ولكن من أجل تحقيق العدالة، وإزهاق الباطل؛ فإذا تحققت لديك براءته، فلا تراعي أمري، ولا أمر موكلتك، والتزمي طريق الحق والعدل، ابتغاء وجه الله وحده، وإني لأشكر لك شعورك نحوي ونبل عواطفك.

وسكتت إصلاح.. وتكلمت الأستاذة وقالت في إكبار:

- لله أنت يا إصلاح! فما أنت إلا ملك كريم. وقد نبهتني إلى كثير مما يكشف الستار عن التلفيق في هذه القضية.

وانتهت المحادثة الهاتفية.. وحضر أستاذ الدين، وبدأت السيدات يفدن تترى، فأسرعت إصلاح نازلة إلى حجرة الاستقبال لاستقبالهن.

---

(١) يجرمنكم: يحملنكم، شنآن: عداوة.

open-kanali.com

ولقد حدث والأستاذ يشرح درسه أن أقبلت سيدة عجوز ترتدي معطفاً وخماراً أسودين، وكان برفقتها سيدة صالحة يظهر عليها الثراء والصلاح من هيئتها الظاهرة، والمسبحة التي كانت في يدها.

وكان من عادة الأستاذ أن ينادي إصلاح «بذات الدين». وطرق سمع السيدة الصالحة هذا النداء، فانتبهت وجعلت تنظر إلى إصلاح وتطيل إليها النظر. وقد أخذها العجب من رؤية ذاك الشباب على هذه الحشمة في هذا العصر.

وفي رغبة ملحة التفتت إلى جارتها العجوز ومالت على أذنها هامسة:

- من تكون تلك الشابة ذات الثوب الطويل والخمار الأبيض؟

فمالت العجوز بدورها على أذنها وأجابت في همس:

- إنها إصلاح هانم ربة المنزل، وهي حرم محسن بك المستكاوي.

فاهتز قلب السيدة الصالحة وبدا عليها الاهتمام بشأن إصلاح حتى لكأنها عرفتها، أو كشفت عن بعض صلتها بها؛ لكن جارتها لم تلحظ شيئاً من ذلك. واستمرت تتابع سرد ما لديها من معلومات قائلة:

- ووالدها شاكر باشا رجل عظيم وثري كبير، لكن

وأسفاه.. ليست موفقة في معيشتها الزوجية، ولا أطيل عليك، فزوجها يريد إرغامها على شرب الخمر، والخروج عارية ومقابلة أصدقائه، وهي كما ترين، أدباً، وكمالاً، وحشمة، وديناً..

وتنهدت متمتمة:

إيه.. دنيا.. رحم الله زماناً كان فيه الرجل ينفجر غيرة إذا رأى واحداً من الرجال ينظر إلى زوجته، أو يسمع صوتها، نهايته، (استمعي إلى الدرس) وقانا الله شر فساد هذا الزمن. وهدانا إلى طاعته.

وفي تلك اللحظة نظر إليهما الأستاذ مستنكراً صامتاً فابتعدت العجوز عن جارتها، وتابع الأستاذ الدرس.

وفي نهاية هذا الدرس أعلن الأستاذ توقف الدروس إلى ما بعد عودة ربة المنزل من أداء فريضة الحج، وخرجت السيدات بعد أن أدين صلاة العشاء شاكرات مودعات إصلاح وقد اطمأنت قلوبهن بما سمعنه من العظات الدينية، إلا قلباً واحداً ظل مشغولاً بإصلاح، ذلك هو قلب السيدة الصالحة.

ترى من تكون هذه السيدة؟

## ٢٤

نامت إصلاح تلك الليلة مستسلمة لقضاء اللّه، راضية بكل ما يأتي به، بعد الذي عرفته من صديقتها المحامية، عن خفايا أعمال زوجها وكذبه، مكتفية بعدل اللّه وانتقامه.

وكان من عادتها أن تستعرض قبل نومها كل ما تعمله طوال يومها من خير وشر، فتحمد اللّه على الخير، وتستغفره وتتوب إليه من الشر.

والليلة ما كان أكثر حمدها للّه الذي أعانها على التطوع بقول الحق في قضية زوجها، منزهة عن الباطل، مجردة من الأهواء.

وإذا كان قد أساء إليها زوجها فحسبها اللّه الذي اقتص منه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ على ظلم العباد.

وانصرم الليل وأقبل النهار، فاستيقظت إصلاح من نومها.

وبعد أن أدت صلاة الفجر، وقرأت ما تيسر من القرآن، عادت تواصل نومها هادئة راضية، واستمرت نائمة حتى إذا أضحى النهار، وعلت شمسه هبت من نومها فزعة.

obeikandi.com

وما فتحت عينيها حتى صاحت في شيء من الراحة:

- حمداً لله لم يكن هذا الوحش الضاري سوى حلم مزعج.

لكن ما بال قلبها يداخله شعور غريب؟ ويحدثها بوقوع أحداث جسام؟ لا شك أنها أوهام من أثر ذلك الحلم، لا تلبث أن تنقشع بعد حمام الصباح وصلاة الضحى.

وفيما هي تهم بالقيام من سريرها، إذا بإحدى الخادمات تقبل عليها وبيدها بعض أوراق من النوع الخفيف.

فلما رأت إصلاح هذه الأوراق في يدها صاحت في دهشة:

- ماذا بيدك يا ناعسة؟

- إعلان يا سيدتي، أتى به رجل كان يسأل عن سيدي.

- ماذا؟ إعلان؟ هاته. وما الذي قاله الرجل؟

- يقول إنه ذهب به إلى مكتب سيدي، فلما لم يجده هناك أتى به إلى هنا.

وتناولت إصلاح الإعلان بيد مرتعشة وقلب مضطرب.

ولما كان زوجها مسافراً ولم تعرف مكانه، فقد رأت لزاماً عليها أن تستلمه.

- ترى ماذا به؟

واهتزت الأوراق في يدها وهي تقرؤه، وشملتها موجة من الذهول، وظلت تنظر فيه قائلة في اضطراب:

- وامصيبتاه! أملاك مرتهنة؟ وربا مركوم؟ ثم حجز على الأملاك لبيعها في مدة لا تتجاوز اليومين؟

ياللداهية الدهياء، ما هذا الذي أقرأ؟ ومتى حصل كل هذا؟ وفيم صرف؟ وما الداعي إلى إخفاء أمر ذلك الدين عني؟

أسئلة أخذت تتدفق على نفسها كتدفق السيل الجارف، حتى إذا لم تجد من نفسها جواباً أطرقت واجمة ورأسها فوق راحتيها وقد سقط الإعلان من يدها على أرض الحجرة.

ومرت بها لحظة رهيبة كانت فيها نهباً لصراع عنيف بين إغواء الشيطان وسلطان العقل، فجعلت تقلب وتعيد في الماضي والحاضر حتى عادت إلى ذكرى الإعلان فتساءلت:

- والآن ماذا أفعل، وكيف أتصرف؟ وأين محسن ليعلم بهذا الإعلان؟ وأين الوقت حتى يراه ويتصرف فيه؟ وأكثر من هذا وذاك أين له ذلك المبلغ الجسيم المطلوب لرفع الحجز؟

ودعت الحوادث شبيهاتها؛ فتذكرت ما سمعته أمس من الأستاذة، وانثالت على نفسها الهموم وتداعت الأفكار.

ما أشبه اليوم بالأمس وإن اختلفت الحوادث، وتباينت الأسباب، دين يصل به إلى الحجز، ومعاص تدفع به إلى السجن، لقد تجاوز الحد وخرج عن الرشد.

واستحوذ عليها اليأس فعادت تتساءل:

- لكن... أليس لهذا العيش من آخر؟ أليس لكل شيء نهاية كما له بداية؟ هذه أعمال محسن، وتلك صفاته، لا يصلحه نصح، ولا ينفع معه صبر، ماذا يفيد في إصلاحه؟ ماذا ينفع في هديه؟

لا شيء.. لا شيء، إنها جناية والدتي، فلولاها ما تم الزواج.

وسمعت دقات الساعة تنبئ بقرب زوال وقت الضحى فتذكرت الصلاة.

وبعد صلاة الضحى راحت تدعو بين يدي الله أن يعينها على تحمل هذه الكارثة ويوفقها لما فيه رضاه.

وما هي إلا فترة الصلاة حتى خمدت ثورة ذلك الصراع العنيف ولم تعد تسمع إلا صوت عقلها يبعث في نفسها الرضا منبهاً:

- حذار من إيحاء الشيطان، إنه يحتال ليضمك إلى حزبه كما كنت قبلاً، الزواج من عمل القدر وإن ظهر لك أن والدتك هي السبب، أنسيت قوله تعالى:

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٩-٥٠]؟

فسكنت نفسها قليلاً، وأصغت إلى عقلها ملياً، واستطرد مذكراً في قوة:

- لا تزعزعي إيمانك بوساوسه، أنسيت الآية الكريمة: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٤٧/ ٣١]؟

لا تقنطي من رحمة الله، أنسيت الوعد الحق: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠].

وكأنما ذكر هذه الآيات قد بعث في قلبها الاستقرار وصدى ذلك الصوت قد حرك في نفسها كوامن من التقوى فقالت نادمة:

- آه، أستغفر الله، إنني لأذكر كل هذا ولا أنساه.

وغلبها الإيمان، فاستعاذت من الشيطان، ودب في قلبها الرضاء بعظيم الأجر، فعادت إلى سريرها وقد عزمت على الإصلاح بعد العفو والصبر.

وفي حزم واستسلام أخذت تفكر في الحالة التي سيصبح عليها زوجها بعد هذا الحجز والبيع، وجعلت تتخيل كربه، وما سيجلبه عليه الحادث من العار والفضيحة.

واستولى عليها ما في فطرتها من حب (إصلاح الناس) فراحت تسائل نفسها:

- أليس من الممكن أن يدفع به هذا الدمار إلى التمادي في المعاصي؟ ألم يزين الشيطان لكثير من أمثاله الانغماس في اللذات بحجة التسلي عن الهموم والمآسي؟ فما لها لا تجرب في هديه وإصلاحه نوعاً آخر غير النصح والصبر؟ ما أعظم التضحية بالنفس والمال في سبيل الله، وما أكثر ثوابهما إذا كانا بقصد تفريج الكروب وإغاثة المحتاج!

ألم يقل الرسول الكريم: «من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة»؟

حقاً ما أحوجني إلى تفريج تلك الكربة في ذلك اليوم الموعود. فماذا لو ساهمت بسداد هذا الدين؛ وسارعت في أدائه قبل فوات الأوان؟

شعور كمين يدفعها إلى هذه التضحية، ووحي من إيمان يحفزها إلى التنفيذ ابتغاء وجه الله، فإذا لم يصلح زوجها فحسبها الله الذي تعمل من أجله.

obeikandi.com

وعاودتها ذكرى العهد الذي كانت قد قطعته على نفسها بأن تكون عوناً للمحتاجين من الناس، فما لبثت أن صرت الجرس بجانب سريرها فأقبلت كبيرة الخدم، وما رأتها حتى صاحت:

- دادة حليمة؟.. إلي بدفتر حسابات البنك.

وجاءت به؛ فتناولته منها وراحت تقول:

- عشرة آلاف جنيه أودعتها باسمي عقب زفافي، أرجو الله أن يكفي ما بقي منها لسداد الدين.

وأخذت تقلب صحائفه متمتمة: هذا المبلغ سحب في سبيل الله، وذاك أيضاً سحب لزكاة المال المدخر والحلي، وهذا في شأن نفقات الحج..

وجعلت تحسب وتستقطع ثم صاحت:

حمداً لله، الباقي يكفي لسداد المطلوب.

وتم سداد الدين، ورفع الحجز عن الأملاك.

على أنها ما كادت تطمئن من هذه الوجهة، حتى روعت بوفاة والدها التقي البار، فيالتجمع المصائب؛ ويالحكمة الأقدار.

## ٢٥

فتح قصر زينات هانم أبوابه لأول حادث محزن لم يسبق أن حدث فيه مثله.

فقد كان كما تعلم لا يرى فيه سوى حفلات الطرب ومحافل الأنس والشراب.

واستمر ثلاثة أيام يعج بوفود طوائف المعزين والمعزيات لزينات هانم وأولادها، حتى ضاقت بهم غرفه على كثرتها وسعتها، وبالرغم من موت الباشا فقد ظل هذا القصر كعهده السابق من العظمة والبهاء، وكأن لم ينقص منه أحد.

وفي هذه الأيام كانت زينات هانم تتقبل العزاء وهي كما هي لا تغادرها روح الغطرسة الأرستقراطية، ولا تفارقها مظاهر الأناقة العصرية، وإن كان يخالطها بعض مظاهر الحزن والثأر.

وكانت إلى حالتها العادية أقرب منها إلى حالة الحزن و«الترمل»، وكانت بملابس الحداد الأنيقة والخمار الأسود الشفيف أكثر فتنة وإغراء، وكانت ممتلئة صحة ونشاطاً.

أما إصلاح فقد كانت بادية الصمت ينطق وجهها بما في فؤادها من صبر واستسلام. على حين امتزج حزن سوزان بآمال المستقبل والزفاف السعيد؛ إذ كانت هي وخطيبها قد عقدا الآمال على ما سترثه من تركة والدها لسداد ديونه التي كانت حجته في تأخير العقد والزفاف، ولهذا كان تقسيم الميراث هو شغلها الشاغل طوال أيام المأتم الأولى.

وفي أمسية، وقد خلا القصر من وفود المعزين، اجتمع الإخوة الأربعة للبحث في مسألة تقسيم ميراث أبيهم وما سيخص كلاً منهم من تركته. ثم رأوا أن يشركوا والدتهم باعتبارها شريكة معهم في هذا الميراث.

لكن ما بال زينات هانم تبدو صامتة في شرود ووجوم؟ وما لها قد انصرفت عن مجلسهم بما يظهر عليها من الأفكار والهموم؟ عجباً!!

لماذا لم تشترك مع أولادها في هذا الموضوع؟ لماذا لم تجب عن سؤال واحد منهم؟ ترى ما الذي خالط نفسها وسبب وجومها؟

يا الله... لقد شحب وجهها، وارتخت عضلات جسمها، واختل توازنها ووقعت على الأرض.

وانكفأ الأبناء على أمهم صائحين في فزع:

- أماه؟ ماذا جرى؟ ويح أنفسنا، الطبيب حالاً.

لقد شلت حركة أرجلها ومرضت بالفالج.

وانتشر خبر مرض زينات هانم بين الأصدقاء والصديقات، فامتلأ القصر بزوارها وعوادها، وانقلب العزاء في موت شاكر باشا إلى الاستفسار عن صحة زينات هانم.

ولكم سهر في أول المرض بجانب سريرها محبون، وتطوع بالسهر على راحتها معجبون، وكم فاضت عبرات متملقات ومتملقين، والكل آمل في الحظوة لديها بعد الشفاء، لكن المرض أخذ يزداد يوماً بعد يوم، وساءت حالتها، وأصبح الوجه النضر شاحباً باهتاً، والجسم الممتلئ في خفة ورشاقة، هزيلاً نحيلاً، وبقي ساكناً لا يتحرك منه سوى النصف الأعلى ويديها؛ وعز الشفاء وانقطع الأمل.

عند ذلك أخذ يتناقص عدد زوارها ويقل عوادها. وكلما زادت وطأة المرض، قل العواد، وأهملها من كانوا أصدقاء وكن صديقات، وشغل الكل بحفلاتهم ومسراتهم، وخلا القصر منهم أو كاد، ولم يعد يكثر من هذه الزيارات سوى الأطباء وشوقي «خطيب سوزان»، ولعلك لا تغفل عن سر إخلاصه وزياراته، وسبحان المبدل المغير لكل حال.

وآهاً منك أيتها الدنيا الغادرة، يا من لا تدومين على حال.

حتى زينات هانم أصبحت تشعر بغدرك وخيانتك، إنها لتشعر الآن بأن كل ما في نفسها قد أدركه التغير بسبب عدم استقرارك على حال، فكبرياؤها وغطرستها قد محقتا وتحطمتا. وأفكارها وآراؤها تبدلت واختلفت، حتى عقلها استيقظ وراح يحتقر ملاهيك ومتعك، إنها أصبحت تحس شعوراً يصلها بعالم غير عالمك المزيف، ويبعدها عن محيطك الفاني، ويدفعها إلى أعمال قد تبدو غريبة بالنسبة إليها، فتراها وقد عجز الطب عن شفائها تلجأ إلى مُنزل الداء ومن بيده الشفاء، تفزع إليه بالليل والنهار، تسأله العون وتخفيف الآلام. وتدفعها تلك المصائب إلى يقظة عقلها فتكثر من التوبة والندم على ما كان منها من السخرية بالدين وأهله، ويدفعها هذا كله إلى استدعاء ابنتها إصلاح قبل سفرها إلى الحجاز للندم أمامها على ما كان منها تجاه تدينها وتقواها.

وقبل السفر بساعات دخلت إصلاح حجرة أمها وكانت مضطجعة في سريرها نصف اضطجاع وظهرها مسند إلى وسائد مرتفعة وقد أخذتها غفوة التفكير.

وإذ شعرت بمقدم ابنتها، انتبهت وأخذت تنظر

إليها، وكانت نظرات كل منهما تعبر عما يفيض في قلبيهما من لوعة الفراق الذي ما منه بد.

وقبل أن تتكلم إصلاح بدأت الأم الحديث بصوت خافت مضطرب:

إصلاح!! ابنتي؟ لقد استدعيتك كي أهيئ لك وداعاً لا تشوبه السخرية التي ودعتك بها عندما سافرت مع زوجك من مصيف الإسكندرية إلى مصر الجديدة.

لا تندهشي يا بنتي، فقد أصبحت آسفة على زهرة العمر التي قضيتها ضالة مضلة، أسيء إلى غيري بعد أن أسأت إلى نفسي، وإن كنت قد أسأت إليك في الماضي، فهل لي أن أرى منك الآن صفحاً وغفراناً!

فترقرقت عينا إصلاح بالدمع، وانحنت على أمها تقبل يدها وتغمرها بدموعها، ثم رفعت رأسها وقالت:

سامحك الله يا أماه، وهل تظنينني إلا صافحة؟

فأمالت الأم رأس ابنتها نحوها، وراحت تضمها إلى صدرها في حنان وتقبلها في لوعة، وانكفأت إصلاح فوقها وامتزجت قبلاتهما بالعبرات.

وكان موقفاً مؤثراً.. أشفقت الأم على ابنتها منه فقالت في بكاء ونحيب:

- الآن سافري يابنتي على بركة الله، والزمي الطريق

الذي هداك اللّه إليه، ولا تنسي الدعاء لي بالمغفرة، أستودعك اللّه يا إصلاح.

- أستودعك اللّه يا أماه.

وسافرت إصلاح، وسافرت معها دادة حليمة، بعد أن ودعت أمها وأختها، دون أن ترى زوجها أو تعلم مكانه.

وسارت الباخرة بها وبمن معها تاركة أرض الوطن، وفي العين دمعة وفي القلب شغف إلى حج (بيت اللّه) والصلاة في (مسجد رسوله) وزيارته.

* * *

(لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك).

هذه هي التلبية التي ترددت عالية من أفواه ركاب الباخرة التي كانت بها إصلاح عندما وصلت بهم إلى مدينة (رابغ).

كان ذلك في مساء ليلة مقمرة، وكان البحر هادئاً جميلاً، والقمر يسطع بنوره السحري فوق مياهه الصافية، وقد أحرم الركاب جميعاً (بالعمرة) بعد أن سارت بهم الباخرة ثلاثة أيام، وقد جف دمع إصلاح وتخلى عنها الحزن، وبدأت أفكارها وأحاسيسها تتجه اتجاهاً جديداً.

وكيف يطول الحزن، وينهمر الدمع والباخرة تتهاوى إلى بيت اللّه الحرام، والقلوب عامرة بالصبر مطمئنة بالإيمان؟

وارتفعت في سماء جدة شمس يوم مشرق، وكان الحجاج قد باتوا في فنادق جدة، فاستقلت إصلاح وصديقاتها (سيدات الجمعية) السيارات قاصدات الحرم المكي الشريف بمكة المكرمة، لتأدية فريضة العمرة.

* * *

هذا هو الحرم المكي الشريف.

يا له من مسجد عظيم، يشغل هذا الحرم فراغاً كبيراً من أرض مكة المكرمة. وهو فناء واسع يسمح لآلاف الحجاج بالصلاة فيه في وقت واحد، تملؤه أعمدة قائمة، وله أكثر من عشرين باباً يدخل منها الوافدون من أية جهة يريدون، ويقصد هذا الحرم عدا الحجاج جميع أهل مكة للصلاة والتبرك. وقل أن تجد هذا الحرم خلواً من الطائفين العابدين في أي وقت، فهو دائماً مأوى الأتقياء وملجأ الغرباء، وبمجرد دخولك فيه تكتحل عيناك برؤية الكعبة الشريفة، قبلة الصلاة، وأول بيت وضع للناس من بيوت اللّه. وهي مكعب مرتفع الأركان، شامخ البنيان، مغطاة بستائر من

الحرير الأسود، وقد نقشت بأحرف الذهب أستارها، وثبت الحجر الأسود في أحد أركانها.

يشعر الناظر إليها بنور الربوبية يتلألأ فوقها، فيخفق القلب إجلالاً وتزداد النفس إيماناً. وهي بعدُ مقصد طوائف الحجاج، والأمل في تطهير ذنوب العباد.

وفي هذا الحرم، فيما يجاور الكعبة، مقام إبراهيم، وحجر إسماعيل، وبئر زمزم، وكلها قريبة من أرض المطاف الذي يحيط بالكعبة كما تحيط الهالة بالقمر.

في هذا المكان الطاهر، وقفت إصلاح ومن معها من السيدات بين آلاف الحجاج تائبة مستغفرة، تؤدي طواف القدوم. وهو أول مناسك العمرة وقد دعت الله أن يتقبل عمرتها، ويهيئ لها حجاً مبروراً.

وانتهت العمرة..

وكان المطوف قد أعد لإصلاح ومن معها مسكناً قريباً من أحد أبواب الحرم، ليقمن فيه مدة وجودهن بمكة، فأوين إليه.

وفي اليوم الثاني، كتبت إصلاح إلى أسرتها مستفهمة عن صحة والدتها.

وامتدت إقامة إصلاح بمكة عشرة أيام متشابهة الصباح والمساء. قضتها جميعها في (إقامة) الشعائر الدينية، وكل ما تتطلبه أعمال الحج.

obeikandl.com

كانت إذا ما سمعت صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة تسارع بالذهاب إلى الحرم، فإذا ما انتهت من الطواف حول البيت راحت تجلس بين السيدات، في المكان المخصص لهن لتحضر صلاة الجماعة، وكانت حريصة على هذه الجماعة حتى في صلاة الفجر.

هذا ما كانت تفعله داخل الحرم.

أما خارجه فكثيراً ما كانت تذهب مع دادة حليمة إلى منازل الفقراء، ومعها الكثير من أنواع الصدقات، تكسو عاريهم، وتطعم جائعهم، وتمد بالمال مساكينهم ومحتاجيهم، حتى إذا فرغت من ذلك كله كانت تجلس مع صديقاتها بالمنزل يقرأن القرآن، ويتدارسن الأعمال الخاصة بمناسك الحج.

وقد حدث خلال تلك المدة أن جاءت إلى إصلاح رسالة من صديقتها يسرية، وفيها ترجوها أن تصف لها مكة وما عملته فيها.

كان ذلك بعد مرور أسبوع من إقامتها، وكانت تتأهب للخروج مع صديقاتها إلى الحرم، فلما انتهت من قراءة الرسالة استأذنتهن في التخلف. وراحت تكتب:

مكة ٦ ذو الحجة ١٣٦٦هـ

عزيزتي يسرية:

نحن لا نزال في مكة، وسنستمر بها إلى ما قبل وقفة عيد الأضحى بيوم واحد، ثم نبرحها بإذن اللّٰه إلى «منى» ومنها إلى «جبل عرفات» يوم الوقفة، على أن نعود إليها ثانية قبل نهاية أيام العيد إن شاء اللّٰه.

ولقد استأجرنا منزلاً قريباً من أحد أبواب الحرم الشريف، والمنزل أثري جميل فرشت حجراته بالسجاجيد العجمية، والأثاث النظيف، والعرب أهل كرم ومودة، فلما نزلنا بديارهم راحوا يهيئون لنا أسباب الراحة ويمدوننا بما نحتاج.

تسألينني في خطابك أن أصف لك مكة، وما عملته فيها كما كنت أصف لك «باريس وسويسرة وفيينا» أيام كنت أصيف مع أسرتي بها. وإنه ليسرني أن أجيبك إلى ما تطلبين.

لكن ما بالي لا أجد من نفسي القدرة على التعبير عما يخالج شعوري نحو هذه الأرض المقدسة، والبلدة العظيمة، إنه لشعور يقف خيالي عن تصويره ويعجز قلمي عن الكتابة فيه! ومع هذا فقد أستطيع أن أعرفك بأنها مدينة تمتاز بجلال وروعة يشعر بهما كل من يقبل عليها وتطأ قدمه ترابها الطاهر، ويشم أنفه

openkandi.com

عبيرها المطهر، ومن هنا لا أرى وجه شبه ما بين هذه البقعة الطاهرة، وبين غيرها من البلاد في مشارق الأرض ومغاربها. ويكفي أنها كانت مهبط الوحي، ولم تزل أرض الحرم وقبلة العباد.

وإني لأستطيع بعد ذلك أن أفاخر بها مدن العالم على أنها الوحيدة التي لم تجرؤ التقاليد الغربية أن تعبث بتقاليدهم، ولم تستطع المدنية الفاسدة أن تمحو طابعها الإسلامي الخالد. بل لم تسمح قداستها لأي نوع من أنواع المغريات والملاهي المفسدة أن تدنس حرمتها، أو تلهي الحجاج عن العبادة والصلاة.

أما عن أعمالي هنا فأهم ما قمت به إلى الآن هو تأدية العمرة (وهي فريضة على كل داخل مكة). كان ذلك أول يوم من وصولنا إلى مكة، وقد كنا محرمين في الباخرة بقصد هذا الاعتمار.

والإحرام معناه ترك التأنق، وتجنب بعض أعمال وخصال كانت مباحة في غير أيامه، ولبس ما يستر الجسم جميعه بالنسبة إلى النساء. أما الرجال فلا يلبسون مخيطاً.

ولما وصلنا الحرم المكي، وقفنا بساحة المطاف للطواف حول البيت.

وهنا أقف قليلاً، كي أتخيل تلك الروعة، التي

obeikandl.com

استولت على مشاعري وأنا واقفة أشاهد أعظم موقف جليل وقفته في حياتي.

يا له من موقف رائع، تجلت فيه العظمة الإلهية وذل العباد، كما تجلت فيه المساواة بين الغني والفقير، لقد خفق قلبي إجلالاً وخشية، وفاضت عيناي بالدمع خوفاً ورجاءً، قبل أن ينطق لساني بالاستغفار والدعاء، وعندما رحت أطوف بالبيت مع الطائفين والطائفات كنت في غمرة من القدسية، لا أعي شيئاً مما حولي؛ وإن كنت لا أجد موضعاً لقدمي من كثرة الناس، هكذا كان شعوري، بل شعور كل واقف بهذا الموقف العظيم.

تصوري رجالاً كثيرين يهرولون حول البيت، ونساء كثيرات يطفن معهم وقد تلاصقت الأجسام، واختلط الرجال بالنساء، ومع ذلك فلا لفتة، ولا نظرة، ولا شعور نحو أي مخلوق؛ بل عنت الوجوه للحي القيوم.. وتحولت القلوب للرب المعبود.

وكلما طفنا بالبيت مرة اتجهنا بأعيننا إلى الحجر الأسود مكبرين، ثم نعود إلى الطواف ثانية.

وهكذا سبعة أشواط، ما شعر كبيرنا فيها بتعب، ولا أحس ضعيفنا منها بنصب، إذ الكل كانوا قد تجردوا من العالم الحسي، إلى العالم الروحي، وانشغلوا عن حس الأجسام بتطهير الأرواح من الآثام.. ولما انتهى الطواف صلينا ركعتين في مقام إبراهيم ثم

خرجنا من الحرم واتجهنا مهرولين ساعين داعين بين الصفا والمروة، وبهذا السعي لم يعد أمامنا سوى قص جزء من الشعر، وذبح ما تيسر من الهدي للتحلل من الإحرام، ثم كان القص في الليلة نفسها، وكان الذبح في اليوم الثاني. وبذلك انتهت العمرة.

ولا يفوتني أن أخبرك بأننا سنعود إلى الإحرام بقصد الحج ابتداء من الغد إن شاء اللّه.

وإني لأكتفي الآن بهذا القدر وإلى اللقاء.

إصلاح

وسمعت صوت المؤذن يؤذن لصلاة الظهر فأسرعت لاحقة بزميلاتها إلى الحرم لتشترك في صلاة الجماعة.

obeikandl.com

## ٢٦

مضى شهران على مرض زينات هانم كانت خلالهما نهباً لأفكار مظلمة ولسر دفين أخذ يقلق مضجعها ويزيد في مرضها.

واستمر هذا حالها، حتى كان صباح يوم جاء فيه الطبيب لعيادتها.

وبالرغم مما كان يبدو عليها من مظاهر التحسن، فقد سمعته يهمس في أذن الممرضة بما فهمت منه أنه لا أمل في حياتها.

وخرج الطبيب.. فأحست المريضة برعشة تحيط جسمها، وفزع يستولي على مشاعرها.

وسبحت بخواطرها، فقادتها أفكارها إلى.. الموت، السر الرهيب.. الجنة.. النار.. عذاب الضمير.. إنها لا تخاف الموت فهو المنقذ الوحيد من تلك الآلام.. وانهمر الدمع، وراحت في واد سحيق..

وأخرجها من واديها جرس الهاتف بجانب سريرها. فأقبلت الممرضة كالمعتاد، لكنها استدارت عائدة إلى حجرتها، فقد سمعت زينات هانم تجيب بصوت خافت:

obeikandi.com

- أشكرك يا صفوت بك، ولا لزوم لحضورك فقد حضر الطبيب وأمرني بالراحة التامة.

وأعقبت ذلك بوضع سماعة الهاتف مكانها وراحت تتمتم:

- صفوت بك هو الوحيد الباقي على وفائه من الأصدقاء والأحباء، ما أبغضه الآن إلى نفسي.

ومرت أمام عينيها صور الماضي معه فأطرقت في أسف وندم.

ومضت فترة من التفكير أعقبها شريط متتابع الصور أخذ يستعرضه خاطرها.. أصدقاء عديدون كانوا يحبونها، ويساهمون في الخير من أجلها، وصديقات عديدات كن يتملقنها ويظهرن الود لها، صحفيون كانوا يلتفون حولها ويبالغون في الثناء عليها وعلى حفلاتها.. فيا للزمان!! أين كل هؤلاء؟

- لقد انفضوا جميعاً من حولي ولم يبق منهم سوى صفوت بك ذلك المتكلم الآن.

بيد أني لا حاجة لي به ولا بهم؛ ولا بمتع الحياة جميعها، وما أرغب إلا في رضاء ربي ومغفرته.

واتكأت على الوسائد بالجزء العلوي الذي يتحرك من جسمها، وعادت تواصل الذكريات.

فمرت بذهنها ذكريات حياتها الماضية قبل زواجها، وأطياف حياتها الأولى بعده، وهنا عرضت لها صورة سرها الدفين فاهتزت هزة عنيفة، وامتلأ قلبها حيرة وانشغالاً.

واستيقظ الضمير.. ودعا إلى التفكير.

فصرت الجرس بجانبها للممرضة فأقبلت.

وما اقتربت منها حتى سلمت إليها مفتاحاً صغيراً، وكلفتها فتح درج مكتبها وإحضار ظرف كبير كانت تحتفظ به داخله وقلم وقرطاس.

وكان قد حان ميعاد الدواء، فما لبثت الممرضة أن عادت إليها تحمل جرعة الدواء، وسلمتها ما طلبت؛ وأغلقت الباب وانصرفت إلى حجرتها. وخلت زينات هانم إلى نفسها، وأمسكت الظرف بين يديها وراحت تنظر إليه في بكاء...

وتلفتت حولها، وكأن عيوناً كانت تنظر إليها وهي تهم بفتحه وإخراج ما فيه من الأوراق.

يا لها من أوراق!! يدل اصفرار لونها على قدم عهدها، ويدل بكاء زينات هانم وهي ممسكة بها على ما فيها من ذكرى مؤلمة.

ترى ماذا في الأوراق يبكيها؟.. وماذا فيها يقلقها؟

لا شك أن فيها ذكرى أثيمة؛ لأنها ما انتهت من قراءتها حتى رفعت رأسها ويديها إلى أعلى في توبة واستغفار.

ومرت بها فترة عسيرة أمسكت بعدها القلم بيد مرتعشة ضعيفة وأخذت تكتب والدموع تنهمر من عينيها.

وانتهت من الكتابة وطوت ما كتبته في اضطراب ووضعته داخل الظرف مع الأوراق القديمة وأغلقته، وفي حذر أخفته تحت وسادتها، وقد عزمت على أن تسلمه إلى ولدها حسين دون إخوته حينما تنفرد به، واسترخت في شيء من الراحة.

على أن هذه الراحة لم تدم طويلاً، ولم تكد تشعر بها، حتى عاودها الاضطراب، وبدا عليها القلق، فمدت يدها تحت الوسائد، وسحبت الظرف، وراحت تنظر إليه ثانية في حيرة وارتباك.

ومرت لحظة قلق تصورت فيها النتيجة المؤلمة، وتخيلت العار والفضيحة، ففضلت تمزيقه دون أن تعطيه لولدها.

وفيما هي تهم بتمزيق الظرف، إذ بضميرها يصرخ، ألا تفعل، ولا بد أن تسلمه له عندما يحضر في المساء لزيارتها.

openkandil.com

أليست تعتقد بوفاء حسين لوعده؟ ألا تثق به في تنفيذه لوصيتها؟ فماذا لو سلمته إليه، وأوصته بعدم فتحه إلا بعد وفاتها؟..

ومرة ثانية أعادته مكانه تحت الوسائد.

* * *

ومضى النهار.. وفي المساء جاء حسين وزوجته لعيادتها كالمعتاد. ودخلا حجرتها، ودخلت بعدهما سوزان وانضم إليهم سامي. والتف الجميع جلوساً حول سرير والدتهم وراحوا يتلطفون في الحديث معها، ويجتهدون في إدخال السرور عليها، وكانت الأم مستندة على الوسائد تستمع إلى أحاديثهم الممزوجة بالحب وإدخال السرور عليها.

وكان وجودهم معها قد أنساها تلك الذكرى المؤلمة فراحت تضحك من حركات سامي ونكاته..

وكانت قد وصلت إليهم رسالتان من إصلاح، إحداهما للأسرة والثانية ليسرية.. فاشتركت معهم في الاستماع إليهما.

ومرت بجلستهم فترة هنيئة شعر الأبناء بتحسن طارئ على والدتهم فشملهم الفرح والسرور.

وكان مرضها المفاجئ قد حال بينهم وبين تقسيم

obeikandl.com

ميراث أبيهم، فرأى سامي أن ينتهزوا هذه الفرصة السارة لإعادة التكلم معها في هذا الموضوع.

ونهض من مكانه، وجلس قريباً منها.. وراح يشير إلى هذه المسألة ويبدي لها رغبته في سرعة تقسيم الميراث.. وفجأة تغير لون المريضة وبان عليها الشرود والوجوم نفسهما اللذان شاهدوهما يوم بدء مرضها.

وعند ذلك صمت سامي وبهت الجميع، وظنوا أن ذكرى الراحل عزيزة عليها، ولا يليق بهم الخوض فيها حتى يتم لها الشفاء.

لكن أنى لها ذلك الشفاء وقد تبدلت حالتها فجأة، وغشى عينيها ظلام فلم تعد تراهم، ولم تعد تسمع من أقوالهم شيئاً، وانعقد لسانها، وضعف نبضها وسكنت حركتها في صمت رهيب؟!

رأى الأبناء هذا الذي طرأ على والدتهم فشمل الأسى نفوسهم، وسرى الحزن العميق بينهم، وملأ الرعب قلوبهم، وشغل الكل بهذه الحالة الطارئة.

وكانت سوزان بالقرب منها، فأمسكت بها تمنع وقوع جسمها، وأسرعت يسرية تصر الجرس للممرضة، في حين أخذ حسين يرفع الوسائد كي يهيئ لأمه مرقداً مريحاً ترقد عليه حتى تفيق.

وفي تلك اللحظة لاحت من الجميع التفاتة تحت الوسائد المرفوعة.. فرأوا المظروف المغلق.

وفي سرعة البرق مد سامي يده واختطفه قبل أن تقع عينا الممرضة عليه، وأودعه حجرته وكر راجعاً.

وجاءت الممرضة على عجل، وتذكرت أقوال الطبيب في الصباح.. فأسرعت تستدعيه بالهاتف.

رأى الطبيب «المريضة» فتأكد مما توقعه من انتهاء حياتها، وكان قد رأى جزع أبنائها فقال مهدئاً:

- لا تجزعوا يا أبنائي فهي بخير، ولكنني أرى حرصاً على مصلحة المريضة أن تتركوها بمفردها مع الممرضة قليلاً.

وانصرف.

وعقب انصرافه دلف الأبناء إلى حجرة سامي القريبة من حجرة المريضة وأخذوا في الدعاء والابتهال في بكاء ونحيب.

ومرت فترة ابتهال وبكاء، وفجأة تذكر سامي الظرف فأسرع وأخذه من فوق مكتبه.

ورآه الباقون.. فالتفوا حوله، وفي صمت شغلوا معه بأمر هذا المظروف..

ماذا به؟ ولماذا وضعته والدتهم تحت وسادتها؟ أيفتحونه أم ينتظرون حتى تفيق؟

وأخيراً دفعهم حب الاستطلاع إلى فتحه.

obeikandi.com

فتح سامي الظرف فوجد فيه أوراقاً بعضها تحوي كتابة قديمة وبعضها حديثة الكتابة، وجميعها عليها بعض آثار الدموع.

فتملكه العجب.. وجعل يتطلع إليها في دهشة، ولم تطل به الحال وأمسك بالأوراق الحديثة وطفق ينظر إليها والجميع حوله مرهفو السمع في شوق ولهفة.

وغمرته الدهشة عندما لمح بعض الكلمات الأولى وعرف أنها خاصة بأخيه حسين، فصمت لحظة، وبدا عليه التردد.. هل يسلمها إليه؟ أو يقرؤها قبله؟

وغلبه الفضول، واستولى عليه حب الاستطلاع، فصمم على ألا يسلم الأوراق إليه إلا بعد اطلاعهم عليها.

وراح يقرأ والجميع في إصغاء:

## «اعترافات»

ولدي حسين:

لقد شاءت نفسي الأمارة بالسوء، أن تنطوي على سر ما كنت أظن له كشفاً، أو يطلع عليه أحد يوماً من الأيام.

ولقد غرتني الحياة الدنيا وزينتها فأودعته طي

الكتمان وقذفت به في عالم النسيان، وما كنت أحسب أنه مهما نبطن تظهره الأيام.

آه.. يا بني.. لقد أراد الله للأيام أن تدول ليظهر الحق ويزهق الباطل، وعندئذ ينقلب نعيم الحياة الكاذب إلى عذاب الضمير القاتل.

على أني أرى لزاماً علي قبل الاعتراف بهذا السر الأليم، أن أخبرك بنبأ مضى عليه أكثر من عام، كنت أخفيه عنكم لا لشيء إلا لأني رأيت أن أسدل الستار على كل ما عساه أن يلامس هذا السر ويوقظه.

أتذكر يا ولدي يوم كنا جلوساً حول مائدة الطعام، ودخل علينا سامي مسروراً وأخبرنا بكسبه «مئتي جنيه» في «الميسر» من شاب يدعى محسن المستكاوي؟

لا شك أنك تذكر ذلك؛ ولعلك تذكر أيضاً غفلتي عنكم وقت ذاك وهو يمثل حركات الرجل الذي خسر نقوده في «الميسر». ثم تذكر بعد ذلك أني فاجأتكم بإقامة حفل باسم الخير، بنادي «السيدات العصريات» وشددت على سامي في ضرورة إحضار هذا الشاب إليها... وفهمتم يومئذ أن غرضي من هذا هو جمع مال الخير من الأغنياء الكرماء أمثاله.

لا يا ولدي؛ فما شيء من الخير كنت أعني وقتذاك، ولكني فقط كنت قد ابتدعت ذلك لكي أتحقق من

شخصية هذا الشاب لمشابهة اسمه ولقبه أحد أفراد أسرتي.

وتمت خطتي، وبان لي بعد محادثته أنه القريب نفسه الذي توقعته. ولكني ما كدت أقدم إليه نفسي حتى ظهر لي في أثناء حديثه، شبح ذلك (السر الأليم) عندما علمت منه أن مربيته عسرانة لم تزل في خدمة أسرته «وهي الوحيدة التي تعرفه» منذ كانت في خدمتي، فأخفيت عنه هذه القرابة، مخافة أن تكون مربيته قد أفشت هذا السر إلى أسرته.

نعم يا ولدي؛ لم أخف عنه وعنكم هذا النبأ، وتلك القرابة إلا حفظاً لذلك السر «الخطير» الذي سيكشف لك عن خفايا مصائب انقيادي وراء التقاليد التي أباحت اختلاط النساء بالرجال، وسهلت مخالطة الزوجات بأصدقاء أزواجهن.

ولدي.. كم يؤلمني أن أبوح لك باعتراف يكدرك كشفه وتفزعك معرفته.. ولكني مرغمة على أن أطلعك عليه حتى لا أضاعف جريمتي السابقة بالكذب والسرقة.. أو بعبارة أوضح بإدخال أبناء غير شرعيين في ميراث من ليس بأبيهم.

ولقد بكيت مراراً، وترددت كثيراً قبل البدء في كتابتي إشفاقاً على ولدي سامي وابنتي سوزان، من أن يكون اعترافي سبباً في حرمانهما من الميراث، في

openkandil.com

تركة شاكر باشا التي هي حق شرعي لك ولأختك إصلاح دون سواكما.

.. آه يا إلهي..!

تشجع يا ولدي، واستمع لهذا السر المشؤوم الذي كان السبب فيما أصابني تلك الليلة التي اجتمعتم فيها لتقسيم الميراث بينكم.

وإنه ليعز علي أن أطلعك مع هذا الاعتراف، على مذكرات طال الزمان بها؛ ما كنت لأطلعك عليها لولا أنها تشير إلى ماض يؤيد اعترافي ويثبت أقوالي.

كما يعز علي أن أكشف عن تلك الحقيقة المرة التي ستؤلم شعورك وتكدر صفوك.

ولكني أرجو أن تحسن الظن بي، فما رأيت بهذا الاعتراف إلا رضاء الله والبعد عن الآثام وعدم السكوت على توزيع المال الحرام.

وإني أعيذك يا ولدي من شر ما هو مكتوب في مذكراتي فقد كنت فريسة «سلطان الهوى والشيطان».

واعلم يا بني أنني ما أقدمت على هذا الاعتراف إلا بدافع الندم والتوبة، وبوحي من يقظة الضمير الذي تنبه فأمرضني وحطم جسمي وأدمع عيني وقرب منيتي، وكلما زاد مرضي واشتدت آلامي تذكرت أن هذا جزاء ما قدمت من معاص وندمت على غروري بالحياة واستهانتي بأوامر الدين.

أواه من عذاب الضمير.. إنه ليؤنبني من أجل تلك الحفلات الماجنة التي كنت أقيمها باسم الخير، وانغماسي في موبقاتها.. ومن أجل أستاذ الدين واستهزائي به. وظلم الخادمة التي اعتدى عليها سامي وطردي لها، آه.. كم يعذبني الآن من أجل ابنتي إصلاح ومحاولتي حملها على اتباع التقاليد الزائفة وحياة الضلال التي كنت أحياها، وفوق ذلك يذكرني بزوجي؛ فهو وإن كانت تقع عليه مسؤولية أخطائي لتساهله أمام تصرفاتي الضالة المضلة، إلا أنني نادمة الآن على ما فرط مني نحوه من خيانة وجحود.. فاللهم رحمتك بي ومغفرتك.

وإني لأرجو يا ولدي أن تعينني على تخفيف وزري وتساعدني على نيل رحمة ربي، فاغفر لي ما تقدم من ذنبي، واطلب لي عفواً عن ذنوبي من غافر تواب.

وها هي ذي المذكرات كما دونتها في حينها.

استمع الأبناء إلى هذا الاعتراف، وهم مأخوذون لا يشعرون أهم في يقظة أم هم يحلمون. وكانوا في حال يعجز اللسان عن وصفها والقلم عن الكتابة فيها.

ومضت لحظة أسود من ليل طويل كله مصائب وأهوال، ولولا بقية من أعصاب سامي الخائرة لسقط على الأرض وتناثرت الأوراق من يده..

وبالرغم من الدوامة التي كانت تدور به ومن ممانعة حسين الشديدة له، فقد انقض على الأوراق المدونة فيها المذكرات وراح يقرؤها بقلب مضطرب ويد مرتعشة، وحال يرثى لها.

٩ يناير سنة ١٩١٩

حضر اليوم أحد أقاربي وهو (علي بك المستكاوي) وطلب يدي من عمي فلم يوافق لأنه سبق أن طلق زوجه وكان له منها طفل في العام الأول يدعى محسن، فكدرني ذلك لما كان بيننا من الحب.

٤ يناير سنة ١٩٢٠

مضى عام فيه تزوج علي بك بفتاة تدعى «عنايات» وخطبت أنا لشخص يدعى «شاكر بك التركي» وافق عليه عمي لما كان يتصف به من دين وثراء.

واليوم تم زفافنا وانتقلت معه إلى فيلا يملكها بالعباسية.

٣ أبريل

اجتهد علي بك من يوم زواجي في مصادقة زوجي، وقد أخفى اهتمامه بي أمامه، ثم أخذ يظهر له من الود والإخلاص ما أشعره بأنه ألزم له من أخ شقيق.

ومع أن زوجي من المحافظين على الحجاب إلا أنه

ما كان يحجبني عن علي بك مخافة إغضابي، ولاعتقاده بحسن أخلاقه واستقامته.

٥ مايو

سافر زوجي اليوم إلى أوربة لمهام وظيفته، وتركني «وحيدة» في رعاية علي بك لثقته في وفائه.

٩ يونيه

قام علي بك بملازمتي، فكان لا يدع مكاناً من أماكن اللهو دون أن يصحبني إليها، غير أنه اليوم لم يشأ أن نتنزه في الخارج وآثر أن نلعب «الكنكان» في البيت، وكنا اثنين والشيطان ثالثنا.. فكانت الخطيئة وكان أسف وندم.

٣١ أغسطس

مضت ثلاثة أشهر على سفر زوجي، بدأت في نهايتها تظهر علامات الخطيئة، واليوم جاء زوجي من الخارج وقد أنعم عليه برتبة (باشا)، وجاء إلينا محملاً بالهدايا فقابلناه مثقلين بالخطايا.

٥ مارس ١٩٢١

تم أمس الوضع، وكان توءمين سمي أحدهما سامي والثانية سوزان، دون أن يتطرق الشك إلى زوجي.

وفي اليوم نفسه زارنا علي بك ورأى ولديه، فاستيقظ ضميره وظهر عليه الأسى والارتباك.

openkanal.com

٦ مارس

مات علي بك مساء أمس بالسكتة القلبية تاركاً زوجه عنايات هانم وطفلته الرضيعة يسرية فحزن عليه زوجي.

أما أنا فلم أتأثر لموته فقد دفن سري معه، ولم يبق من يعرف ذلك السر سوى عسرانة تلك الخادمة الخائنة التي تركتني والتحقت بخدمة زوجة علي بك الأولى.

٢ مايو

ما أسعدني اليوم بانتقالنا إلى قصر جميل في الزمالك سبق أن اشتراه زوجي لإعجابي به وأطلق عليه اسمي.

ومن هذا اليوم، أرى أنه لا داعي لتدوين مذكراتي فقد تبدل كل شيء.

وانتهت المذكرات، وتساقطت الأوراق من يد سامي وتهالك على المقعد، شاحب الوجه محطم الأعصاب، ونظر الباقون بعضهم إلى بعض في حيرة وقد انعقدت الألسن وساد بينهم صمت موحش، وران عليهم الذهول وعمهم الكرب والبلاء.

غير أن الأقدار قد اقتضت أن يكون مع كل عسر نوع من اليسر.

obeikandl.com

فلم يمض كثير على تلك الحالة المؤثرة، حتى لكأن الله الرحيم أراد أن يرحم هؤلاء الأبناء من شر ما هم فيه وينقذهم من شر ما هم عليه إذ دخلت عليهم الممرضة فزعة وأخبرتهم بموت والدتهم وانتهاء حياتها.

وحينئذ انقلب موقفهم، وتناسوا ما أصابهم، وشغلوا عن همهم بموت والدتهم.

وكان الليل قد ولى، وانبثق الفجر، فراحوا يستعدون لعمل اللازم في مثل هذه المناسبات.

* * *

مضى اليوم، وووريت زينات هانم التراب.

وعاد سامي وحسين بعد تشييع الجنازة، وانتهاء ليلة المأتم إلى أختهما مطرقي الرأس ولا يزال القلب مجروحاً، واللسان صامتاً، والاعتراف يشغل عقول الجميع.

وفي تلك الليلة باتت الأسرة في همّ، وقضى الجميع ليلة ليلاء. ليلة لم يكن همهم فيها مصيبة الموت، ولكن كان لكل منهم هم يشغله وشعور قد استحوذ عليه.

كان همّ حسين موزعاً بين قلقه على مصير أخويه

سامي وسوزان بعد حرمانهما من الميراث، وبين إشفاقه على مستقبل أخته إصلاح فيما لو عرف محسن بهذا الاعتراف المشؤوم، وكانت يسرية تفكر في محسن أيضاً باعتباره أخاً لها ظهر فجأة، وبظهوره يتحتم عليها أن تطلعه على وصية والده الخاصة باشتراكه معها في ميراثها.

أما سوزان فقد ظل همها منحصراً في الخطة التي يجب أن تتبعها لقطع علاقتها بخطيبها، حتى لا ينكشف أمرها أمامه.

في حين كان سامي قلقاً من أجل الحال التي سيصبح عليها والفقر الذي ينتظره حيث لا وظيفة لديه ولا شهادة معه.

وهكذا مضت تلك الليلة بسوادها وعظم بلائها.

وما انبلج صباح اليوم الثاني حتى روعت يسرية ببرقية تنبئ بوفاة خالتها في إحدى مدن الوجه القبلي.

ولما كان هذا الخبر يحتم على يسرية السفر لحضور المأتم والعزاء، فقد سافرت هي وحسين في اليوم نفسه تاركين سوزان وسامي في القصر.

## ٢٧

سجى الليل وأظلم الكون، وخيم على القصر السكون والوحشة. وقد مضت بضع ساعات على سفر حسين وزوجته.

وفي تلك الليلة دخلت سوزان حجرتها باكية بعد أن أوصدت دون خطيبها الباب عقب حصولها على فسخ خطبتها التي دامت بينهما ثلاث سنوات.

ومرت بوحدتها وحرمانها فترة كئيبة ارتمت بعدها منكفئة على سريرها بخمارها الأسود، وثوب الحداد الذي لا أثر للتأنق فيه، واستسلمت لبكاء تجاوبت له جنبات الحجرة، حتى عز الدمع واختفى السعير تحت الرماد، فأطفأت نور الحجرة وأخذتها غفوة استيقظت بعدها فزعة، وقد تمثلت لها صورة خطيبها عندما دخل عليها الليلة مواسياً، فراحت تسترجع الكلمات المؤلمة التي ألقتها على مسامعه لإثارته والتي بسببها تم لها الحصول على فسخ خطبتها.. قبل أن ينكشف أمرها أمامه، إنها لتذكر ألفاظ الطمع التي نسبتها إليه.. وكلمات الشماتة والأنانية التي وصفته بها، وأكثر من ذلك رميها في وجهه الشبكة المقدمة منه إليها.. فانهالت عبراتها وتراكمت عليها المصائب والأحزان.

obeikandl.com

وما أشد الوحدة وما أمرّ الفراق، وما أقسى هذه البلايا على مثل تلك التي نشأت بين حياة الترف والنعيم.

وألقت نظرة حولها بعد هذا التأمل والبكاء، كمن تبحث عن مواس أو معين.

فلما لم تجد غير سكون موحش، وأشباح تتراقص أمام عينيها، تملكتها رهبة المكان وروعة الحزن، فأضاءت نور الحجرة وجلست على سريرها ساهمة الوجه، شاردة النظرات تفكر في حاضرها المؤلم ومستقبلها المظلم.

لقد ماتت أمها وأعز أحبابها، وبموتها ظهر عدم بنوتها لمن كانت تشمخ بجاهه وتعتز بأبوته وثرائه.

يا لهول الذكرى!

إنها لم تعد إلا ابنة لرجل زان خائن للباشا، مجرم في نظرها، وبذلك فقدت خطيبها وخاب أملها.

وزفرت زفرة حارة وعادت تتابع الذكريات:

ما أسوأ الفرق بين ما كانت فيه وما آلت إليه، فقر بعد غنى، وذل بعد عز، وحرمان بعد تمتع ونعيم؛ أين ألجأ؟ وكيف أعيش؟ وعلى من أعتمد؟

وفاضت عيناها بالدمع وامتزجت أنفاسها بالتأوهات الخافقة في صمت. وسمعت صوت أقدام تقترب منها، إذ بأخيها سامي يدخل عليها مطرق الرأس تخنقه العبرات.. وقد روعته الحال التي كانت أخته عليها فتقابلت نظراتهما الباكية، وجلس على مقعد بالقرب منها وأطرقا في صمت باك وخيم الهم عليهما، وساد الحجرة صمت رهيب، لم يسمع خلاله سوى زفرات حارة، وتنهدات تقطع نياط القلوب.

ومرت بهما فترة قطع سامي بعدها الصمت بسؤالها عن شوقي خطيبها، فقد علم من البواب بخروجه منذ قليل.

وعلم بفسخ خطبتهما، وأحس المصائب تتجاوب أصداؤها بين جنبات نفسه، وتمتم في ذهول كمن يكلم نفسه:

- فسخت خطبتك؟ يا لتجمع المصائب!!

وأطرق باكياً.

وزاد سامي بلاء سوزان، واشتد كربها وأخذت تهذي في بكاء خافت:

- آه يا سامي.. لقد انهالت علي المصائب، وليس لي قدرة على تحملها، فكيف الخلاص؟ وكيف الاحتمال؟ إن حملي ثقيل ومصيبتي كبيرة وعقلي يكاد يجن

كلما تصور فتاة وحيدة يتيمة الوالدين فقدت المال والجاه وعطف الأم، خطيبة تهدمت آمالها، وضاع مستقبلها، قصراً منيفاً انقضت أركانه فوق رأسها وخلا من جميع مباهجه، وعما قريب ستصبح غريبة عنه.

وتطلعت إلى أخيها بعينيها الدامعتين وقالت في شبه عتاب:

- وأنت... أنت يا سامي، ليتك كنت من أرباب الأعمال فأعيش في كنفك وأنسى بعض ما أنا فيه من المصائب والبلايا.

واختنق صوتها بالعبرات وتوقفت عن الكلام وانفجرت باكية.

وكان سامي ينظر إليها في تحسر، وكأن صاعقة قد انقضت على رأسه فأطرق خجلاً، وجذب هدير أخته انتباهه وأحس عظم المسؤولية ورفع رأسه، وقال في توسل:

- رفقاً بحالي يا أختاه، ولا تذكريني بجنايتي على نفسي فإن مصيبتي كبيرة وبلائي أعظم.

فأدركت سوزان أنها زادت في آلامه وهمومه فقالت معتذرة:

- عفواً يا أخي ولا تؤاخذني بما أهذي به فما ذلك

إلا بسبب ما في نفسي من الحسرة، وما أصطلي بناره من مرارة الحرمان وظلام المستقبل..

وعاد إلى إطراقه، ومرت بخاطره الأموال التي كان ينثرها في الميسر والشراب، ونظر إليها قائلاً:

- لو تعلمين يا أختاه ما أعانيه منذ علمي بتلك الكارثة لفضلت لأخيك الخلاص من هذه الحياة المرة؛ والعيشة البائسة.

إنني أحتقر نفسي كلما تذكرت أني أصبحت فقيراً وليس لدي ما يؤهلني للعمل في وظيفة، أو ما يساعدني على إنقاذك وإسعادك.

وكانت سوزان قد انصرفت عنه إلى همومها، فعاد إلى إطراقه وأخذ يكلم نفسه نادماً:

- ليتني أتممت تعليمي ولم أعتمد على ثراء أو جاه. ليتني اتخذت سبيل أخي حسين ولم أتخذ مع الشيطان سبيلاً. أين كان عقلي الذي تنبه الآن بعد فوات الأوان؟ أين كان ذلك الضمير الذي استيقظ في هذه الليالي الحالكة السواد؟ إنه ليذكرني بتلك الخادمة التي اعتديت على شرفها وكنت سبب طردها ظلماً وعدواناً، إنه يعذبني الآن من أجل ذلك المخلوق البريء الذي كنت السبب في وجوده، من يربيه؟ ومن يرعاه؟ إنني لأتخيله أمام عيني في

مجاهل الحياة المقبلة: سفاكاً للدماء، سراقاً، شريداً في الأرض؛ طريد العدالة، وهذه جنايتي وتلك آثامي.

واستبد به الهم فاستطرد يائساً:

- أيتها الدنيا الغرور، ماذا بقي لي فيك؟ وما الفائدة من حياتي؟

وتسأله نفسه ماذا ينتظر.. ويحس حيرة، ويجيب: لا شيء إلا أن أموت بجرعة سم أو طلقة مسدس. لقد فاض بي كأس الهم، ولا أمل لي في الحياة.

وهب واقفاً كمن يريد التخلص من الحياة وآلامها بالانتحار.

وكانت سوزان قد تنبهت وسمعت عزمه الأخير، فهبت مذعورة وأمسكت بتلابيبه وجعلت تتوسل إليه في بكاء:

- بربك لا تفعل يا سامي، ورفقاً بنفسك. إن لم يكن من أجلك فليكن من أجل أختك البائسة التي ليس لها عائل سواك.

وفي تلك اللحظة عاودتها ذكرى لم تكن تأبه لها من قبل، ذكرى «أستاذ الدين» الذي طالما كانت تهزأ به وقالت متابعة:

- أما سمعت من أستاذنا كثيراً من الآيات والأحاديث

في وجوب الصبر على المصائب والرضا بكل ما يأتي الله به؟

وما زالت به حتى غير رأيه، وعدل عن الانتحار.

وفي استسلام للقدر تم الاتفاق بينهما على أن يبحث سامي عن عمل بسيط يعيشان منه، وشقة صغيرة يسكنان فيها.

وكان قد انتصف الليل فقام سامي إلى حجرته لينام.

* * *

وأطفأت سوزان نور حجرتها.. واستلقت على سريرها مستسلمة ليد القدر.. وأسلمت أعصابها للنوم.

غير أن خواطر جديدة هبطت عليها في تلك اللحظة... سلبتها النوم وردت إليها عقلها الذي لعبت به الأهواء طوال حياتها، وفي ندم وتحسر أخذت تردد هذه الخواطر:

- لقد كنت أعيش في بحبوحة من العيش بين ملاهي الحياة ولذاتها، فظننت أن لا حياة غير هذه الحياة السعيدة؛ ولا شقاء بعد ذلك النعيم، واعتمدت على ثراء من كنت أظنه أبي وعلى منزلة أمي، وأهملت ما كنت أسمعه من إصلاح في وجوب الاعتماد على الله وحده.

openkanal.com

وحضرتها بعض أقوال أختها ونصائحها الماضية فاستطردت في أسف:

- آه.. ما كان أشد غفلتي حينذاك، إنني لأذكر الآن أنني سمعت منها مراراً تلك الآية الكريمة ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ١٦/٩٧].

نعم، أذكر ذلك الآن نادمة على حياة اللهو والضلال التي كان جزاؤها الشقاء والحرمان.

وظلت فترة تفكر في معنى تلك الآية الكريمة؛ وفي عاقبة سخريتها واستهتارها بأوامر الدين، وعادت تكلم نفسها في ندم:

- حقاً لقد كانت أختي تعمل الصالحات فحفظها الله من أهوال ما جرى لي.. أما أنا فكنت أسلك طريق الضلال، فكان جزائي هذا البلاء كي أعيش في شقاء، لذلك آمنت بأن لا بقاء لنعيم الدنيا، ولا سعادة إلا في العمل للآخرة، نعم آمنت يا إصلاح بثاقب رأيك وبُعد نظرك بعد أن رأيت آخرة أمي وما آل إليه مصيرها، حقاً يجب أن أسلك طريقك كي أحصل على رضاء الله وسعادة الدارين.

لا بد أن أقتدي بك طائعة مختارة بعد أن عرفت

أن الله عزيز ذو انتقام، وأن ﴿حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٥٨/٢٢] فاللهم امنحني الهداية إذ لا سعادة إلا لمن ينيب إليك.

وهكذا رسمت سوزان لنفسها تلك الليلة نوعاً جديداً من الحياة يدل على تغلب سلطان العقل، خالياً من الأهواء والشهوات.

ونامت مستغفرة.

openkandil.com

## ٢٨

ما أقسى غدرات الزمان، وما أشد تقلباته!

لقد ظهر على القصر الخراب، وأظلم نوره، وأغلقت أبوابه ونوافذه وأصبح حديث المتحدثين، وعظة الغافلين، كما أصبح سامي وسوزان يشعران بأنهما غريبان فيه.. وقد أحاط بهما الشقاء، وأخذا يستعدان لمقاومة الفقر والحرمان في صمت وخفاء.

وقلما يشعر الأغنياء أو من هم في بحبوحة من العيش بآلام ذوي الحاجة والفقر.

غير أن حسيناً الذي تشبع قلبه بالإيمان ورققت عواطفه تعاليم الدين لم يغفل عن التفكير في مصير هذين البائسين طوال أسبوع سفره مع زوجته، فلما رجعا من السفر أسرعا تواً إلى القصر دون أن يفكرا في الذهاب إلى منزلهما.

ولا تسل عن شعور الأسى الذي استولى على حسين حينما دخل على (البائسين) ولحظ عليهما آثار هزال الجسم واصفراره وقد كسا وجههما ذل الحرمان وبؤس الكارثة.

وهز فؤاده الموقف، فتذكر القول المأثور، (ارحموا عزيزاً ذل، وغنياً افتقر).

وفي الحال استجاب لنداء الإيمان.. وأخذ يواسيهما في عطف وحنان واستمر في ملاطفتهما.. واستمرت زوجته في الترفيه عنهما.. حتى وافقا على أن يتناولا معهما طعام العشاء.

وقبل ميعاد النوم رأى حسين أن يزيد في تسليتهما والترفيه عنهما فأخذهما إلى الشرفة المطلة على النيل، وكان القمر يسطع بنوره الوضاء والهواء يهب هادئاً منعشاً، ومع ذلك فقد ظلت على وجه (سامي وسوزان) آيات الملل والرغبة في النوم، وأدرك حسين ذلك فاستجاب لشعورهما، ولم يعارض رغبتهما.. وقام كل إلى فراشه ومر يومان.. وأعقبهما يومان والبائسان كما هما، وحسين وزوجته لا يدريان ماذا يعملان لتخفيف بلائهما. وفي اليوم الخامس جاء ساعي البريد برسالة عليها طابع «المدينة المنورة».. لا شك أنها من إصلاح.

ولما كانت يسرية قد أرسلت إليها تنعي والدتها حين وفاتها فقد كانت في رسالتها مواساة لإخوتها وفيها عزاء. لكن هل ينفع العزاء مع هذا الحرمان والشقاء؟ لقد زادت هذه الرسالة في حزن البائسين ومصابهما. فطفقا يبكيان في لوعة أثرت في نفس يسرية وزادت في عطف حسين وحركت كوامن بره وشفقته.

لهف نفسه.. ماذا يفعل لتخفيف بلائهما؟ ماذا يعمله لإنقاذهما؟

وفجأة خطر له خاطر ارتاح له وتعمد بعده فتح الحديث عن تركة والده.

فأطرق سامي، وصمتت سوزان، وشحب وجهاهما في ذل وانكسار واغرورقت عينا حسين بدموع البر.. وترقرقت دمعة من هذا الدمع الحنون فأسرع يخفيها، واقترب بمقعده منهما.. وكانت سوزان تجلس على مقعد بجانبه وسامي أمامه فما لبث أن أمسك بيديهما بين يديه وراح يشعرهما بأنهما لا دخل لهما فيما كان من أعمال والدتهما، وأنه واثق من بر إصلاح بهما، وأنه سيظل وإياها أخوين لهما كما كانا قبلاً دون أن يجعلا لاعتراف والدتهم أثراً بينهم.

ويا لها من لحظة سعيدة تلك التي أخذ حسين فيها يؤكد لهما عزمه وإصراره على أن يكون تقسيم ما تركه الوالد بينهم جميعاً كأنهم إخوة أشقاء؛ فقد شعر هذان المحرومان في تلك اللحظة كأنهما في حلم جميل، وكانت جلسة هنية تلك التي شعر فيها حسين وزوجته بنور الأمل ينساب إلى قلب سامي وسوزان ودلائل الاطمئنان تضيء وجهيهما.

ومضت ساعة رفرف فيها السرور؛ إذ تعمدوا جميعاً خلق أحاديث سارة بعيدة عن آلام الذكرى ومصيبة

الكارثة. وعلى هذا النحو أخذ الحديث يتدرج معهم حتى وصل بهم إلى ذكر محسن وما يجب اتخاذه نحوه بخصوص (اعتراف والدتهم).

أيخبرونه بذلك الاعتراف الذي يسقط أختهم إصلاح في نظره؟ أم يكتمونه عنه ويجعلونه سراً دفيناً؟

ولقد كانوا يفضلون عدم إخباره وأن يسدل الستار على ذلك السر الأليم بينهم، لولا أن يسرية انفردت برأي رأى الجميع وجوب الأخذ به.

كان هذا الرأي متعلقاً بمسألة (وصية) لمحسن تركها والدها وهي صغيرة ولم تنفذها والدتها لجهلها بمقر محسن وعدم معرفتها بأخباره.

ولما كان خوف يسرية من الله ومحافظتها على أوامره يحتمان عليها تنفيذ تلك الوصية؛ كان لا بد لها من أن تطلع محسناً على ذلك الاعتراف الذي يثبت أخوته واستحقاقه لما في الوصية.

لهذا تم اتفاقهم على أن يذهب حسين إلى محسن ويطلعه على ذلك الاعتراف قبل عودة أختهم من الحجاز. ويفعل الله ما يشاء.

لكن أين محسن؟

إنهم جميعاً لم يروه منذ مدة.

## ٢٩

كانت إصلاح جالسة مع صديقاتها بمسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة، بعد أن أدين فريضة الحج، في اليوم نفسه الذي نظرت فيه بالقاهرة قضية محسن المتهم فيها من «فتاة الأندلس» بالاغتصاب والسرقة.

في ذلك اليوم ذهب محسن إلى المحكمة؛ وكان قد عاد من سفره في الخارج لحضور هذه القضية، بعد رحلة طويلة قضاها هائماً على وجهه مع بعض رفقائه وأصحابه.

ومرت فترة وجاءت الأستاذة سنية ومحامي محسن والفتاة. ولما نودي على القضية الخاصة «بمحسن» وقف ممثل الاتهام فأعلن ثبوت التهم الموجهة إليه من الفتاة.

ثم أذن للأستاذة بأن تؤدي مهمتها، فارتعدت فرائص محسن، وغاب لونه، وجعل يتطلع إليها وهي واقفة في خوف واضطراب.

وأمسكت الأستاذة بالأوراق وراحت تنظر فيها وقد اتجهت إليها الأنظار في صمت وإصغاء.

obeikandl.com

وقبل أن تبدأ في الترافع طن في أذنها صدى صوت إصلاح في الهاتف يردد:

- فإذا تحققت لديك براءته فلا تراعي أمري ولا أمر موكلتك بل التزمي طريق الحق والعدل ابتغاء وجه الله وحده.

وكأن صدى ذلك الصوت قد بعث في نفسها قوة في الحق والعدل..

فتوقفت لحظة ثم بدأت تترافع.

ولما كانت تعرف إدانة موكلتها، وقد وثقت من ذلك كل الوثوق، كانت مرافعتها أقرب إلى تبرئة المتهم من إدانته... وكان ذلك منها في شجاعة ولباقة أثارت إعجاب الحاضرين ودهشة محسن.

وما انتهت حتى قام محامي المتهم، فأظهر براءته بالحجج القاطعة والبراهين القوية.

ثم توقفت الجلسة للمداولة وانعقدت ثانية؛ واستعد القاضي لينطق بالحكم.

فاختلج فؤاد الفتاة وارتجفت أوصالها، واضطربت أعصاب محسن وخفق قلبه، وراح ينظر كل منهما إلى القاضي وهو ممسك بالأوراق التي دون فيها الحكم.

وساد الصمت بين الجميع، ونطق القاضي بالحكم، فإذا هو يقضي ببراءة المتهم.

ولا يمكنك أن تقدر حالة محسن التي كان عليها عندما سمع ذلك الحكم العادل النزيه.. إذ كان ذهول الدهشة قد استولى عليه فلم يصدق ما سمع، وسرور النصر قد ملك عليه مشاعره فلم ير غريمته وهي تخرج متسللة تجر أذيال الفشل.

واستمر على هذه الحال حتى ثابت إليه نفسه وعاد الدم يجري في عروقه، وعندئذ تأكد من تبرئته وكاد يطير من الفرح.

على أن سرور محسن بتبرئته لم يكن بأعظم من إعجابه بما أبدته الأستاذة النزيهة التي رأى فيها خروجاً عن المألوف في إظهار الحق ومراعاة العدل.

والأستاذة ولو أنها كانت صديقة لإصلاح إلا أنه لم يسبق لمحسن أن رآها أو عرف بأن لزوجته صديقة لها هذا الاسم، لهذا رأى لزاماً عليه أن يقدم شكره لتلك النزيهة التي سهلت للمحكمة مهمتها في إظهار الحق، وإزهاق الباطل.

وما لبث أن دلف إليها في حجرة المحامين، وراح يمطرها بعبارات الشكر والتقدير، ويثني على دفاعها ونزاهتها النادرة.

وكان دخول محسن إليها قد هيأ لها فرصة للتحدث عن صديقتها إصلاح، فانتهزت هذه الفرصة واعتدلت في جلستها ونظرت إليه وهي تعبث بالأوراق التي أمامها على المكتب، وأنشأت تقول في شبه نصيحة:

- إذا كان هناك يا (محسن بك) من تستحق الشكر والتقدير فلتكن هي زوجك الوفية المخلصة.

وكانت مفاجأة لمحسن أن يسمع ذكر زوجته، فقد كان حتى هذه اللحظة لا يعلم شيئاً مما قامت به من نبل وتضحية، حيث إنهما لم يتقابلا بعد المحادثة الهاتفية التي كانت بين زوجه والأستاذة. لذلك ظل صامتاً مبهوتاً يسائل نفسه:

- ما شأن زوجته؟ وما صلتها بهذه القضية، ومن أين علمت بها؟

وجمع أطراف شجاعته وقال متسائلاً:

- هل لسيدتي أن تفصح لي عن قصدها؟

- نعم يا محسن بك، وإنه لمن حسن حظك أن تكون زوجاً لإصلاح هانم تلك الزوجة النادرة الوجود.

فزادت دهشته ونظر إليها صامتاً.

واستطردت الأستاذة وقصت عليه كلمات إصلاح الأخيرة في الحديث الهاتفي وأعقبت ذلك بمدحها والإعجاب بها.

وكانت الكلمات التي سمعها من الأستاذة قد أثرت في نفس محسن وأيقظت كوامن الندم في قلبه وقال موافقاً:

- الحق ما قلت يا أستاذة، وإنني لسعيد الحظ بهذا الملاك الطاهر. ولا يسعني أمام ذلك سوى شكرك المزدوج على هذه العواطف النبيلة نحو زوجي، ودفاعك النزيه الذي أنار الحقيقة.

وانصرف شاكراً مسروراً.

* * *

ظل محسن طوال الطريق يفكر فيما سمعه من كلمات زوجته التي باعدت المقادير بين ميولهما.

وما لبث أن استيقظ حبه الدفين الذي كان يحاول إخماده كلما بدا له منها مخالفة لميوله وأهوائه، وحينئذ شعر بالحنين واللهفة إلى رؤيتها.

واستيقظ الحب الكامن في قلبه فاتخذ طريقه مسرعاً نحو بيته.

ولكن ما باله لا يجد عطرها الشذي يفوح عبيره في المنزل؟ ولا يسمع صوتها الجميل يغرد فيه؟ ويحه إنه ليشعر في بيته بوحشة كئيبة، إنها وحشة تحمل إليه ذكريات أيامهما السعيدة حينما كان يعود إلى المنزل

فيجد زوجه في زيارة إحدى صديقاتها في الخارج، لهف نفسه لا بد أنها سافرت إلى الحجاز دون أن يودعها.

ودخل حجرة نومه بخطا متثاقلة، وكانت مقفلة النوافذ وقد خيم على المنزل الصمت إلا بعض أصوات كانت تنبعث من حجرة الخدم.

وهناك ارتمى على (الأريكة) وقد تعلق بخيط من الأمل ربما يكون قد منعها من الحج مانع.

وكأنما أقنعه هذا الأمل، فشرع يفكر في الذهاب إليها عند أسرتها، لكن كيف يذهب بعد هذا الغياب الطويل؟

ومضت فترة سمع بعدها وقع أقدام إحدى الخادمات وهي تفتح (شرفة الحجرة) فانتبه ونظر إليها مستفهماً في لهفة كما ينظر الغريق إلى قارب النجاة.

ويا لها من لحظة تلك التي سمع منها فيها نبأ سفر إصلاح.. أحس كأن سهماً قد أصاب قلبه؛ وأفقده وعيه.

وقبل أن يفيق هبت من الشرفة نسمة معطرة بعبير (زهور الحديقة) فذكره ذلك بعطر زوجته، وخيل إليه أنها لا تزال في المنزل وأنها في حجرة الزينة المجاورة.

opeikandi.com

وأخذت عيناه تدوران في الحجرة وكأنه ينتظر قدومها.

وفي تلك اللحظة وقع بصره على رزمة خطابات كانت موضوعة فوق «المذياع» في الحجرة، فقام من مقعده وأخذ يفرزها قائلاً: خطابات باسمي؟ ولكن.. ما هذه الأوراق التي تجاورها؟

وألقى إليها نظرة.. وفجأة شعر كأن الدنيا تدور أمام عينيه، وكأن صاعقة من السماء قد انقضت فوق رأسه.

- أتعرف لماذا؟

- لقد رأى الإعلان الذي به أمر الحجز التنفيذي وبيع الأملاك.

ولا شك أن إحدى الخادمات كانت قد التقطته من أرض الحجرة يوم أن وقع من يد إصلاح ودسته بين هذه الخطابات.

ولا يمكن أن تتصور ما عراه في تلك اللحظة لأن تاريخ الإعلان كان قد أفقده صوابه، فراح يضرب كفاً بكف في حيرة وارتباك، وأخيراً وبلا تفكير، رأى نفسه يقفز على «الدرج» قاصداً «بنك الرهونات».

وهناك وجد ما لم يكن في حسبانه، فقد عرف

opeikandi.com

بسداد الدين في حينه كما عرف اسم منفذته ومبعث أمله.

وكأنما أجهزت تضحيات زوجه المستترة وأفضالها المتتابعة على ما فيه من شجاعة؛ فكادت عيناه تدمعان لولا أن تمالك نفسه وخرج مسرعاً.

obeikandi.com

## ٣٠

عاد محسن إلى منزله وهو أشد تقديساً لزوجته وتقديراً لأعمالها الجليلة، فدخل حجرته وأوصد بابها عليه في صمت وتأثر.

وما هي إلا لحظة استبدل فيها بملابس الخارج ثياب البيت، حتى أدار مفتاح المذياع «لعله يجد فيه السلوى» واستلقى على سريره.

غير أنه لم يسمع شيئاً مما كان يذاع، فقد كان مشغولاً بما في نفسه عن كل ما حوله، كان مشغولاً بزوجه فترك لخياله العنان يسبح في ماضيه من يوم زواجه إلى الآن.

فبدت له زوجته بحسنها وثقافتها، ثم بجليل أعمالها وعظم تضحياتها، فكفكف دمعة حارة وغاص في بحر من الندم والتأسف.

وفيما هو في آلامه إذا به يفيق على صوت المقرئ في المذياع يردد تلك الآية الكريمة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦].

فانتبه مسلوباً حتى لكأن قوة خفية كانت تدفعه إلى

obeikandi.com

تدبر هذه الآية وتفهم معانيها. وما لبث أن صاح في نفسه:

- عـجـبـاً!!!. ألـم يـخـلـق الله الإنـسـان فـي هـذه الدنيا إلا لعبادته؟ يالغفلتي.. ألم يوجدنا فيها إلا لطاعته؟

وأيقن أنه كان جاهلاً بحقيقة الحياة فاستطرد:

- ما دامت العبادة هي الغرض الحقيقي من وجودنا في هذه الدنيا فلا شك أنني كنت مخطئاً في تصرفاتي، وكانت زوجتي أبعد مني نظراً وأكثر فهماً. لك الله يا زوجي الرشيدة من سخرياتي وجهلي، فلقد غرتني مباهج الدنيا وملاهيها فحسبت الحياة لذائذَ ولهواً.

واستيقظ عقله بعد طول غفلته - فراح ينحي باللائمة على نفسه.

لماذا كان يهمل تلك التي فهمت الغرض من وجود الإنسان في الحياة؟ لماذا كان يتركها تعاني آلام الوحدة ومر الحرمان؟ أية إساءة أسلفتها إليه؟

ألكونها كانت لا تريد أن تشترك في حفل يعمل باسم الخير، والشر ينبع منه؟ أم لكونها كانت تريد إكرام الضيف لأنه ضيف لا لاختلاط الرجال بالنساء ومخالطة الأزواج لزوجات الأصدقاء؟

أيعقل أن يظفر زوج بمثل تلك الدرة النادرة ثم يستنكر أعمالها ويسيء إليها!؟

كيف يكون مسلماً ويبيح لزوجه الظهور عارية أمام أصدقائه ومخالطتهم؟ أيعقل أن يكون مسلماً ثم يسخر ممن تقيم حدود الإسلام وتتبع أوامره؟

لا شك أن مثل هذا الزوج شيطان، وإن كان يبدو في صورة الإنسان.

كيف يكون إنساناً يعقل، وقد كان يستنكر المعروف ويبيح المنكر؟ كيف يكون إنساناً يعقل وقد كان يتخبط وراء شهواته ولذاته؟

الآن فقط يحس أنه إنسان يعقل ويفكر، الآن فقط يشعر بأنه مخلوق جديد غير ذلك العربيد المتبذل، إحساس غريب يدعوه إلى الندم على ما فرط منه طوال حياته، شعور مفاجئ يدفعه إلى تقدير جميع أعمال زوجه والاقتداء بها. إنه ليشعر الآن بأن كل شيء في نفسه قد لحقه التغيير إلا حبه لزوجه الوفية؛ إنه ليذكر أعمالها الدينية فيرى السعادة تحيط به وتملأ قلبه. وأخيراً يسرح بذاكرته في آفاق عهده الغابر فيتذكر خليلاته الخليعات وصديقاته المستهترات فتسود الدنيا في عينيه ويحتقر نفسه.

يا لها من ذكريات متناقضة، إنها ذكريات يختلط

فيها الوفاء بالغدر والصدق بالنفاق، وتتلاقى فيها تضحية الزوجة المخلصة بأنانية الخليلات، وتقواها باستهتارهن وفسقهن.

ويفيق من تأملاته على صدى صوت زوجه في أول شجار بينهما يردد (إنني وأنت يا زوجي من دين واحد، والذي فرض علي طاعته قد فرضها وأوجبها عليك أيضاً، فلم لا نتحد معاً على طاعته ويكون حبنا في اللّه أدوم وأقوى).

- يا اللّه! صوت ينبعث الآن إلى نفسي وكأن كل كلمة منه مصباح يضيء حياتي، نصائح ثمينة صادرة من قلب مخلص عامر بالإيمان.

لك يا زوجي الوفية ما تريدين فنعم الرأي ونعم العمل به.

وكان قد تأخر عن ميعاد الغداء فقام هادئ القلب مطمئن النفس إلى حجرة الطعام.

وكان قد برح به الجوع فأقبل على الأكل بشهية، غير أن إقباله على الطعام لم يمنعه من الإصغاء إلى هاتف نفسه، إن صوت المقرئ يملأ سمعه، ومعاني الآية الكريمة لا تزال تلامس عقله، وقام مطمئن النفس، ومن أمامه صوت العقل يدعوه للذهاب إلى مكتبة زوجته ليسترشد بها ويعمل بما فيها بعد أن صارع أهواءه وتغلب عقله عليها.

وهناك أخذ يستخرج بعض كنوزها الدينية وما فيها من كتب نفيسة.

واستمر بقية يومه يقرأ كتب الدين في شغف، ويدرسها في إعجاب، فوجد فيها حلاوة ولذة ما كان يجدهما في غيرها من الكتب والقصص الماجنة التي كان يهواها.

ولما أوى إلى فراشه كان قد لاح له من هدي الدين ما شعر معه بكثير من الندم على ما فاته من الاطلاع على هذه النفائس من قبل.

ومنذ تلك الليلة استقر محسن في منزله يقرأ القرآن، ويطالع كتب الحديث والأحكام.

وكان لا يبرحه إلا من أجل الصلاة في المسجد، ولبعض شؤونه، ثم لا يلبث أن يعود إلى مواصلة دراساته الدينية.

وقبل نهاية عطلته الصيفية وصل إليه خطاب من صديق عزيز عليه..

أتدري ممن هذا الخطاب؟

إنه من صديقه ممدوح، وفيه يعتب عليه إهماله إياه وعدم سؤاله عنه من يوم زواجه.

عند ذلك رأى محسن من البر بصديقه أن يسارع

openkandil.com

بالسفر إلى السويس (البلدة التي فيها ممدوح) ليقضي عنده عدة أيام في غياب زوجه.

وحينما عزم على السفر تذكر خاتمه الماسي المرتهن «هدية ممدوح إليه» فما لبث أن سدد دينه وتسلم خاتمه.

وكان قد عزم على رد مبلغ زوجته الذي سددت به ديونه، فنفذ عزمه وأودعه المصرف باسمها.

وكان قد حان وقت صلاة الجمعة فرأى أن يؤديها قبل سفره إلى السويس.

* * *

وانتهى المصلون في مسجد مصر الجديدة من صلاة الجمعة وخرج محسن قاصداً محطة (كبري الليمون) وكان لاهياً عما حوله باستغفاره بعد الصلاة، وبما كان يردده في نفسه من دعاء «اللهم أتيتك تائباً مستغفراً من ذنوبي فتب علي واهدني صراطك المستقيم».

وأخرجه من استغفاره وتوسلاته صوت يهتف باسمه، فالتفت خلفه، وإذا به وجهاً لوجه أمام حسين شقيق زوجته، فصاح مهللاً:

- حسين؟ مصادفة سعيدة..

وسلما في شوق وبدأ محسن الحديث قائلاً:

- ما الذي جاء بك إلى هذا المسجد؟

- كنت في طريقي إلى منزلك لثالث مرة.

- في طريقك إلي؟

- نعم يا محسن بعد أن بحثت عنك في جميع الأماكن التي كنت معتاداً ارتيادها (ورب صدفة خير من ألف ميعاد).

وكانت رؤية محسن يصلي في المسجد قد أدهشت حسيناً ولكنه لم يعلق بكلمة وساد بينهما صمت قطعه محسن قائلاً في ابتسامة:

- وأخيراً وجدتني هنا، أليس كذلك؟

- حمداً لله على ذلك.

وصمتا شأن من لا يعرف كيف يبدأ الحديث.

وكان محسن لأخبار زوجته في لهفة وشغف فلم يسأل حسيناً عن السبب الذي من أجله كان يبحث عنه.. واكتفى بسؤاله عن إصلاح، وأخذ يمطره بأسئلة مختلفة عنها وعن أخبارها. وأراد حسين أن يتعجل معه الحديث عن موضوع الاعتراف والميراث، فدعاه إلى الجلوس معه في المقهى القريب من المسجد، وما إن عرف محسن بموت زينات هانم حتى ظهرت عليه دلائل

obeikandi.com

التأثر وقدم عزاءً حاراً وأظهر أسفاً شديداً لتقصيره، معتذراً بأسباب نفسية طارئة حملته على السفر في رحلة طويلة إلى الخارج.

ولم يطل بهما الجلوس حتى رأى حسين أن يحول مجرى الحديث نحو ذلك الاعتراف المشؤوم، وكان لا يدري من أين يبدأ حديثه؛ أيفاجئه بتلك الأوراق ويتركه ليقرأها أولاً؟ أم يمهد له بالحديث عنها قبل أن يسلمها إليه؟

وأخيراً تكلم مبتدئاً الحديث من يوم مرض والدته إلى ليلة وفاتها.

وكان محتفظاً بالظرف في جيبه، فتردد قليلاً ثم قدمه إليه..

وجلس ساهماً ينتظر ما عسى أن يقوله بعد قراءة ما فيه.

وفي دهشة بادية أخرج محسن الأوراق من الظرف، وما كاد يفرغ من قراءتها حتى تزاحمت في مخيلته الذكريات، فجعل يذكر نظرة الاهتمام التي قابلته بها زينات هانم أول مرة وقع بصرها عليه في (حفلة النادي) ثم عبارات الترحيب به، وسؤالها عن أسرته واضطرابها عند ذكر اسم مربيته، وتمادى في تصوراته حتى نسي وجود حسين الذي كان قد أقلقه الانتظار واستولى عليه الاضطراب.

ومرت دقائق مرور السنين وحسين في قلقه واضطرابه، ومحسن ينظر إليه في صمت ثم يطوي الأوراق ويجعلها داخل الظرف، ويودعها جيبه دون أن يتكلم.

ويا لهول تلك اللحظات التي مرت بحسين قبل أن يعرف رأي محسن في هذه الكارثة، فقد خفق قلبه وشحب لونه وتصبب عرق الخجل من جبينه، ولحظ ذلك محسن فأشفق وتألم. وكانت قد أساءته جناية والده فخرج عن صمته وبدأ الحديث قائلاً:

- معذرة أيها الأخ العزيز.. إذا كان أبي قد ملأ قلوبكم بالأحزان ونشر في أنفسكم المآسي والآلام.

وكانت مفاجأة لحسين أن يسمع منه ذلك الاعتذار الغريب. وكان مبهوتاً من هذا الرد، فلمعت عيناه دهشة مما لم يكن يتوقعه. وقبل أن يفيق من ذهوله تابع محسن قائلاً:

- أصغ إلي يا أخي ولا تحزن لما كان في الماضي.. لقد أخطأ والدي وأخطأت والدتك؛ فليسامحهما الله، أما نحن فما ينبغي لنا أن نحمل نتيجة وزريهما.

وغمرته ذكرى إساءته لزوجته فقال كمن يحدث نفسه:

- آه... كم يؤلمني أنني كنت سبباً في آلام زوجي،

وهذا والدي يزيدها آلاماً على آلام.. لكن مهلاً فسوف أجعلها تنسى الماضي بأحزانه وأحيطها بمستقبل سعيد وعيش رغيد.

وأخرج الأوراق من جيبه وناولها إلى حسين وتابع:

- وإنني لسعيد بأختكم تلك التي ستزيد في رابطة المصاهرة محبة ووئاماً.

ولم يكتف بذلك بل أخذ في مواساة حسين وتخفيف آلام الذكرى عنه.

وكان يتكلم بنبل وإخلاص أثرا في نفس حسين فعادت إليه الطمأنينة وفاض لسانه بمدحه والإعجاب به.

وأقبل «خادم المقهى» بالقهوة فطفقا يشربان ويتكلمان في مودة وإخاء، وأعاد محسن الحديث عن إصلاح فتذكر حسين رسالتين كانتا في جيبه، إحداهما من يسرية خاصة بوصية والدها، والأخرى برقية من الطور تنبئ بعودة إصلاح بعد غد.

أخذ محسن الرسالتين وكلتاهما عزيزة عليه.. ثم راح يقرأ برقية زوجه في لهفة وسرور. وما انتهى من قراءة الرسالة الثانية حتى اتجه إلى حسين وقال:

- يحسن أن نترك مسألة وصية والدي إلى ما بعد.

obeikandl.com

أما الآن فأرى ضرورة ذهابي معك لعزاء إخوتي ومواساتهم.

قال هذا وناول «خادم المقهى» حسابه وقاما قاصدين القصر.

دخل محسن مع حسين القصر وقد راعه الصمت المخيم على أرجائه والوحشة التي كانت تغمره. ولبث حيناً في الطابق الأول شارد العقل ساهم النظرات، وقد تفطر قلبه هماً وحزناً أمام هذا الانقلاب المريع، وتطاير خبر قدوم محسن إلى إخوته.. فأسرع سامي ومعه الفتاتان وراحوا يحيطونه بالترحيب في بكاء ونحيب؛ وكان الموقف مؤثراً فأقبل محسن على أختيه يغمرهما بعطفه ويواسيهما في حنان، ونجحت محاولة محسن في إدخال السرور على قلوبهم جميعاً، واستمر في ملاطفتهم وإبعاد الأحزان عن قلوبهم حتى انطفأت شعلة البكاء، وفترت حرارة الذكرى وتلاشت الآلام شيئاً فشيئاً، وخيم على الجميع جو من الصفاء والحب الأخوي الصادق.

وحان وقت الغداء فقام الجميع إلى حجرة الطعام.

وهناك دار الحديث عن إصلاح. وعرت الفرحة الجميع لعودتها بعد غد.

وعلى المائدة قرر الإخوة أن تكون مقابلة محسن لزوجته على ميناء السويس مفاجأة.

وما فرغوا من الطعام حتى كان قد خطر لمحسن خاطر ارتاح إليه وصمم على تنفيذه، فقد رأى أن يذهب إلى منزل جده ليزيل ما به نحوه ونحو زوجته قبل عودتها.

وأوشكت أن تزول من الأفق آثار النهار وجنحت الشمس إلى الغروب، فاستأذن محسن إخوته ليذهب إلى جده.

obeikandl.com

## ٣١

ها قد وصل محسن إلى منزل جده بعد غيابه الطويل.

ووقف بباب المنزل ينظر حوله متردداً.. إذ عاودته في تلك اللحظة ذكرى خروجه مطروداً من جده، فتوقف واضطربت يده وهوى معها إلى الجرس وأعاد يده إلى جانبه. وتردد مرة أخرى وهو واقف أمام الباب يفكر لكن يده سبقته فصر الجرس. وانفتح الباب وظهرت به مربيته عسرانة.

وقبل أن يتكلم حملقت فيه ملياً، ثم صاحت مهللة:

- محسن بك مرحباً بك.

وسلم عليها.. وقبلت يده، ودخل محسن حجرة جده مستأذناً. وكانت مفاجأة للجد أن يرى محسناً في تلك اللحظة.. فجعل ينظر إليه في دهشة وكان مستلقياً على سريره بجلباب البيت، فنهض جالساً وراح يرحب به في حنان.

- هذا أنت يا محسن.. مرحباً بك يا ولدي.

فاغرورقت عينا محسن بالدمع فرحاً بهذا اللقاء

obeikandl.com

غير المنتظر. وفجأة مال على جده يعانقه ويقبل يده، والجد مسرور برؤيته. ثم جلس على الكرسي تجاه سريره، وتكرر ترحيب الجد، وزادت دهشة محسن، وعجب من تبدل حالة جده وتغير مقابلته.

وفي هذه اللحظة جاءت خالته، وأقبلت عليه في لهفة، فقام محسن لتحيتها، فاحتضنته باكية وقبلته في شوق وحنان. ولم يطل جلوسه وبدأت عاتبة على انقطاعه عنهم وتسأله عن زوجته مستفهمة عن موعد عودتها من الحجاز.

وكان محسن من تلك المقابلة مبهوتاً لا يدري سبباً لهذا التحول من جده ولا من أين عرفت خالته خبر سفر زوجته.

وما لبث أن بدأ الحديث معتذراً:

- إني آسف يا خالتي لما كان من انقطاعي عن زيارتكم. وقد جئت لأعتذر ولأزيل الفكرة السيئة التي لدى جدي عن زوجتي.

ونظر نحو جده وتابع:

- فهل أستطيع ذلك يا جدي؟

وما أشد الدهشة التي استولت عليه حينما نظر الجد إليه مبتسماً وقال في هدوء:

- لا تقل شيئاً يا ولدي فقد عرفت عنها كل شيء جزاها اللّه عن صبرها خير الجزاء.

فسر محسن على ما به من الدهشة والعجب وقال مستفهماً:

- جدي يعرف حقيقة زوجتي؟.. حمداً للّه فقد كفاني ما أردت إظهاره، وهل علم جدي بتدينها وصفاتها؟

- أمس فقط، من خالتك، بعد رجوعي من سفري.

فزاد عجب محسن ونظر إلى جده متسائلاً:

- أسافر جدي إلى بلاد المغرب؟

- نعم يا ولدي بعد شفائي من المرض الذي كان قد اعتراني بسببك إذ كنت أظن بزوجك الظنون، وحاشا يا ولدي أن أظن؛ فقد كنت رأيت بعيني ليلة زفافك ما حملني على ذلك.

فانبسطت أسارير محسن وقال ضاحكاً:

- والآن، هل سر جدي بتحقيق دعاء جد العائلة الأكبر؟

- حمداً للّه يا بني.. (فخير متاع الدنيا المرأة الصالحة).

فزاد سرور محسن بما سمعه وما لبث أن اتجه إلى خالته متسائلاً:

- باللّه يا خالة من أين أتت إليك أخبار زوجتي؟ وكيف عرفت بسفرها؟

فتبسمت خالته وقالت في بساطتها المعهودة:

- لقد رأيت زوجتك يا ولدي بعيني وأنا داخل منزلك، وسمعت عن حقيقتها، فما وجدت لها مثيلاً في هذا الزمن.

فنظر إليها مبهوتاً وعاد يسائلها في دهشة:

- خالتي رأت زوجتي وفي منزلي؟ إن هذا لعجيب! وهل عرفتك؟ وماذا قالت لك؟

- لا يا ولدي! إنها لم تعرفني، ولم تكلمني إلا كما كلمت غيري، ولولا خجلي من أعمالك أمام جارتي لكلمتها وعرفتها بنفسي.

- عجباً وكيف كان ذلك؟

فاقتربت منه وراحت تخبره بأسلوبها الساذج:

- كان ذلك يا ولدي منذ أكثر من شهرين. وكان جدك قد سافر إلى «بلادنا» عندما دعتني هذه الجارة - وأشارت إلى المنزل الذي أمام النافذة - لأذهب معها إلى درس «دين» في منزل «سيدة» بمصر الجديدة كثيراً ما كانت تذكرها أمامي بالمدح والإعجاب حتى اشتقت إلى رؤيتها... وفعلاً ذهبت معها.

وانتابتها نوبة سعال كان محسن في أثنائها ينظر إليها متلهفاً لسماع بقية حديثها، ولما انتهت النوبة عادت تقص عليه الحديث الذي كان بينها وبين جارتها في آخر درس ديني بمنزل (إصلاح) قبل سفرها إلى الحجاز؟

«ولعلك تذكره»..

وما فرغت من سرد قصتها حتى قالت:

- الحق يا ولدي أنني فرحت بها بقدر ما تألمت من معاملتك لها. وعندما رجع جدك أمس من سفره، أخبرته بكل ما سمعته عنها ورأيته فيها. ففرح وعزم على الذهاب إليها بنفسه بعد عودتها من الحجاز، ولكن لا أخفي عنك، فقد ساءته أعمالك ومعاملتك لها.

وكان محسن مصغياً إليها في اهتمام فما انتهت حتى أسرع قائلاً في أسف:

- عفا الله عن أعمالي السالفة مع زوجي (يا خالتي). ولقد ندمت عليها وعزمت على ألا أعود إليها.

وفي اليوم الثاني.. استقل محسن سيارته قاصداً السويس. وكانت الشمس وقت الأصيل ترمي بأشعتها الذهبية الخفيفة على بور توفيق الجميل، حيث يسكن صديقه ممدوح.

وصعد محسن السلم وانتهى به إلى السطح ووجد (روف جاردن) صغير على بابه لافتة نحاسية باسم صديقه.

وطرق الباب ففتحه (ممدوح) بنفسه، وما كاد يراه حتى صاح مهللاً في ترحيب:

- محسن؟... يا لها من مفاجأة سارة...

وتعانق الصديقان في اشتياق. وفي حجرة الاستقبال جعل ممدوح ينظر إليه في دهشة ممزوجة بالفرح.

وما لبث أن صاح مازحاً:

- وأخيراً جئت يا سيد محسن، ألم تزل تذكر صديقك ممدوح، خلتك نسيته بزوجك العصرية وحفلات والدتها اللانهائية.

ألم تعدني بزيارة منك بصحبتها وأنت تودعني في المحطة؟ فأين تلك الزوجة المصونة والجوهرة المكنونة؟

فأجاب محسن معتذراً:

- إنني آسف يا صديقي، إذ جئت وحدي، أما زوجي فقد سافرت إلى الحجاز وستصل باخرتها إلى هنا غداً.

فتطلع إليه ملياً ثم صاح ساخراً:

obeikandi.com

- حجاز؟ هأ. هأ. هاي. أحجاز أم باريس؟ يا صديقي العزيز ماذا تقول؟ لعلك خلتني جدك فجئت تخدعني، والله أوحشتنا يا محسن..

لكن قل لي؟ أنسيت أنني الذي أوحيت إليك بخداع جدك وإخفاء صفات زوجك العصرية عنه؟ فلماذا تحاول اللف والدوران.

- لا تظن يا صاحبي أنني أكذبك، وما قلت إلا الحق ولقد جئت لاستقبالها ولزيارتك، وسأخبرك بكل شيء بعد أن أخلع ملابسي وأصلي العصر.

فزادت سخرية ممدوح وراح يقهقه ثم قال:

- تصلي العصر؟ إنك تنقلني من عجب إلى عجب يا صديقي، وإنني أخشى ألا أكون أمام محسن المستكاوي! أمتأكد من أنك محسن صديق ممدوح؟ أكاد لا أصدق ذلك.

فتبسم محسن ضاحكاً وقال:

- ستعرف كل شيء بعد يا صديقي فلا تتعجل.

قال هذا ثم شرع في استبدال ملابسه، وأدى صلاة العصر، وبين ضحك ودهشة قاده ممدوح إلى حجرة نومه، وجلسا متجاورين. وهناك أخذ محسن يقص على صديقه قصة حياته مع زوجته، وما جرى له من يوم

زواجه إلى أن استقام حاله وصلحت نفسه. ثم اغرورقت عيناه بالدمع لذكرى إساءته لزوجه.

وكان ممدوح في أول الأمر يستمع إليه في سخرية ولا يكاد يصدق سمعه، لكنه ما كاد يرى على وجه محسن علامات الجد ودلائل الصدق والتأثر حتى اكتست ملامحه أمارات التصديق وراح يصغي إليه في صمت وتأثر؛ وما ختم محسن قصته حتى قال ممدوح مهنئاً:

- حمداً لله يا صديقي على استجابته لدعاء جدك الأكبر، وهنيئاً لك بتلك الزوجة التي جمعت بين سعادة الدنيا والآخرة. والآن فقط عرفت السر فيما كان يبدو على إصلاح هانم ليلة الحفلة التي خطبتها أنت فيها، غير أن لي رجاء واحداً وهو ألا تدع لذكرى ماضيك وإساءاتك لزوجك أثراً في نفسك، ولك أن تطمئن بعد يا صديقي؛ فمثل تلك الزوجة لا يحمل قلبها ضغناً ولا تنتظر منها سوى الصفح والغفران.

وكان قد حان ميعاد العشاء فتركه لحظة، وما لبث أن أحضر منضدة صغيرة وضعها أمام السرير وراح يهيئ له ما عنده من الأطعمة.

وبالرغم مما فهمه ممدوح عن استقامة محسن فإنه قد أحضر مع طعامه زجاجة خمر وكأسين للشراب.

عند ذلك تطلع إليها محسن مستنكراً وصاح قائلاً:

- يا صاحبي لقد ولى عهد هذه الخمرة وانقضى. وما كان أجدرني بتركها من زمن مضى. ولقد صدق الرسول حيث قال: «الخمر مفتاح كل شر» وحسبي من الشر ما لحقني العار منه والدمار. ولقد تبت عنها توبة لا رجعة لها ولا عودة بعدها.

وكان يتكلم بعزم وإصرار، فما لبث ممدوح أن نزل على إرادته ورفع الخمر عن المائدة وجلس بجواره.

وعندما شرعا يأكلان لحظ محسن دلائل العزوبة تحل بالبيت فيما على المنضدة من طعام مجهز في السوق، وما في أرجاء مسكنه من الفوضى المخيمة عليه، فأخذته الشفقة بصديقه والرثاء لهذه الحياة التي يحياها، وتمنى أن يوفقه الله إلى من تسعده وتنير ظلمات بيته.

وبدافع الرغبة في إسعاد صديقه فاتحه في وجوب زواجه وترك حياة العزوبة، وكان ممدوح قد بدأ يشعر باستقامة حال صديقه ويحس بأنه أمام رجل كامل الرجولة يعتمد عليه وصديق عاقل يعمل بمشورته. فما لبث أن عزم على الأخذ برأيه.

وعندما استلقى على فراش النوم كانت قد اختمرت في رأسه فكرة الزواج الذي ما كان يهتم به أو يفكر فيه.

وفي سكون الليل ظل ساهداً يفكر فيمن يختارها شريكة لحياته المستقبلة، وقبل أن يداعب الكرى أجفانه كان قد أجمع رأيه على بعض صاحباته وصديقاته ممن يراسلنه ويراسلهن. وعلى مائدة الإفطار في الصباح عاد ممدوح إلى الحديث مع صديقه حول هذا الموضوع الذي بات يشغله، وما لبث أن قال في لهجة تحوي معاني الأخوة الصادقة:

لقد كنت يا محسن مستشارك ومرشدك أيام كنت تجهل حقائق الحياة ولا تعرف فيها سوى اللذات والملاهي. أما وقد أصبحت رجلاً عاقلاً متزناً فإنني أرجو ألا تبخل علي برأيك فيمن تصلح شريكة لحياتي المستقبلة.

وقبل أن يجيب محسن راح ممدوح يصف له إحدى الفتيات اللائي كن يراسلنه وما هي عليه من مميزات عصرية.

ولم يكتف بتلك الفتاة؛ بل شرع يذكر له غيرها من الفتيات العصريات؛ شوشو، وديدي، وريري.. اللاتي كان محسن يراه معهن ويعجب بهن، وكان محسن مصغياً إليه في صمت وقد بدا على وجهه اهتمام الصديق المخلص. وأطرق مفكراً وانتظر ممدوح الرد وطال انتظاره.. وساد الصمت، وفجأة رفع محسن رأسه وتطلع إليه متسائلاً:

- أتريد رأيي يا ممدوح؟

- ومن غيرك يا محسن رشيداً مخلصاً.

- وتتزوج بمن أشير بها عليك؟

- من أجل هذا تكلمت الآن يا صديقي.

فاعتدل محسن في جلسته ونظر إليه ملياً وراح يقول:

- ممدوح.. صديقي.. أنت تعرف أني تقلبت كثيراً بين مسرات الحياة ولذاتها في مشارق الأرض ومغاربها. وتبعاً لذلك عاشرت كثيراً من أنواع النساء، وخبرت أحوالهن على طبقاتهن وأديانهن، ومع ذلك فما وجدت خيراً من المرأة التي تخاف ربها وتحافظ على أوامر دينها.

ولاحت لمحسن عن بعد من شرفة الحجرة باخرة الحجاج تتهاوى متجهة نحو الميناء وكان قد فرغ من تناول الطعام، فوقف يستعد للخروج، وفي نشوة وضع يده على كتف صديقه متطلعاً إليه وظل يتابع في إخلاص:

- الزوجة التقية يا ممدوح كنز الرجل، ومصدر سعادته في دنياه وآخرته، فهي التي تمهد له طريق الخير وتعينه على نوائب الدهر، ولقد صدق الرسول حيث قال:

obeikandl.com

«الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

واعلم يا صديقي أن مسألة الزواج من المسائل الهامة التي يجب أن تنظر إليها بعين العقل والحكمة أكثر من النظر فيها بعين العاطفة والانقياد وراء الأهواء والشهوات، ثق بي يا صاحبي، فالسعيد من اتعظ بغيره، وعمل بمشورة مجرب مخلص.

ونصيحتي إليك ألا تنقاد وراء شهواتك ولا تتزوج إلا:

«بذات الدين».

obeikandl.com